يوسف زيدان

النبطي

رواية

الطبعة الثالثة

دار الشروق

النبطي

الطبعة الأولى نوفمبر ٢٠١٠
الطبعة الثانية ديسمبر ٢٠١٠
الطبعة الثالثة ديسمبر ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٠٩٩٨/ ٢٠١٠
ISBN 978-977-09-2938-1

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

يوسف زيدان

النبطي

دار الشروق

مكتوبٌ في الزُّبُـر الأُولى:

إنَّ الأُمورَ التي تُروى مُشافهةً، لا يَحِقُّ لكَ إثباتُها بالكتابةِ..[1]

(١) العبارةُ في التلمود البابلي، في سِفر تِموراه وسِفر جِطين (تموراه تعني: البدل، وجِطين معناها: وثيقة الطلاق).

تنويهٌ:

نهاياتُ هذهِ الرواية، كُتبتْ قبلَ بداياتها بقرون.. وقد قدَّتِ النهاياتُ البدايات.

الدِّيباجةُ

في سَنَدِ الرِّوايةِ

الحمْدُ للهِ المنـزَّهِ عَنِ الصَّاحِبَةِ والوَلَد. يَبْتَلي العِبَادَ بالشَّدائِدِ، وَهوَ الَّذي يَهِبُ الجَلَد. سُبْحَانه. جَعَلَ السَّلَفَ عِبْرَةً للخَلَف، وأَجْرَى الوَقائِعَ بما يُناسِبُ السُّـنَنَ، وبمَا قد يَخْتَلِف. نَحْمَدُهُ حَمْدَ الحالمينَ، الرَّاضينَ بالضَّرَّاءِ والسَّرَّاءِ، السَّاكنينَ حِينَ البَأْسِ، وسَاعَةَ البُؤس. ونُسَلِّمُ كَثيرًا ونُصَلِّي، عَلَى نَبيِّهِ العَدْنَانيِّ الذي نُصِرَ بالرُّعْبِ مَسِيرةَ شَهْرٍ، ودَانَتْ لِدَعْوَتِهِ الأَرْضُ بالهدْي والقَهْر.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَخْبَرَني شيخي الجليلُ الحسنُ الإسكندرانيُّ، عَنْ شَيخِه الأَجَلِّ مُحمَّدٍ اللَّوَاتي، قَالَ: أَخبرنا الإمامُ مسعودٌ المغربيُّ في مجلسِه، بسَنَدِه، مَرْفُوعًا إِلى الشَّيْخ طَبَارة البَلَوِي. عن أَبي المواهبِ البغداديِّ المؤَدِّبِ، عَنْ شِهَابِ الدِّينِ الهَرويِّ الأَفْغَانِيِّ المعْروفِ بالشَّيخ جَرَادَة، عَنْ نور الدِّين الوَزَّانِ السَّائِح، عَنْ عَبْدِ اللهِ المعَمِّرِ نَزيلِ القَاهِرَةِ، عَنْ شُيُوخِهِ وشيخاتِه وبعضِ عَمَّاتِه، عَنِ الخالَةِ الغَابرَةِ مَارِيَّة. وقيلَ: بَلْ صَوَابُ اسْمِها مَاوِيَّة، أَنَّها قالتْ:

الحيــوةُ الأولــى

شَهْرُ الأَفْرَاحِ

في يوم حارٍّ لم تسطع فيه شمسٌ، جاء العربُ من بعيدٍ يخطبونني لواحدٍ منهم. الأوانُ ربيعٌ، غير أن الغُبارَ الأصفرَ الآتي منذ يومين، من صحرائِهم القريبةِ، الجرداء، يهيمُ في كلِّ الأنحاء فيحجبُ الأشياءَ من حولي، ويَطْمِرها. تحصَّنتُ منذ صحوتُ، بحجرة أمي، وبقيتُ في فَرْشتي وحيدةً، مكتوفةَ الركبتينِ بالذراعين، وقد أرحتُ للخلفِ رأسي حتى مسَّ جدار الخرابةِ العتيقةِ، اللصيقةِ، التي نُسَمِّيها البرابي. جدارُها العتيقُ رطبٌ، والميلُ إلى الخلف يُريح. دجاجاتُ أمي، وكُلُّ دواجنها، انسلَّتْ من حَوْشِ البيتِ إلى حجرتِنا. وراحتْ تتحامى من الحرِّ والغُبارِ، بالوقوف ساكنةً فوق الأرضِ الرَّطْبَة، أسفل سريرِ أمي وتحتَ دِكَّتي، وهي تباعدُ ما بين أجسامها وأجنحتِها، وتُبقي المناقيرَ مفتوحةً. رائحةُ الدواجنِ في الحرِّ نَفَّاذة. أنا بالبيت وحدي، فأمي وأَخي بنيامين ذهبا من قبل صَحْوي، إلى بيت بطرس الجابي، البيتِ الذي نسمِّيه القصر، لأنهُ كبيرٌ ومن طابقين.

لم يسألوني عن رأيي في الخاطبِ العربيّ، لكنِّي بلا تردُّدٍ، موافقةٌ عليه. فقد تجاوزتُ الثامنةَ عشرةَ من عمري، بعدةٍ من شهور، ويكادُ يأسي من الزواجِ يبلغُ منتهاه.. آه.. تأخَّر عنِّي الفرحُ، حتى تهرَّأ قلبي مع تقلُّبِ الليلِ فوق النهار، وتعاقُبِ حَرِّ الصيف على مطر الشتاء. تمرُّ أيامي بطيئةً، وأنا متوحِّدةٌ هنا. شاحبةُ الرُّوح. حَيْرَي.

صاحباتي اللواتي كنَّ يمرحنَ حولي، تزوَّجنَ، فخلا الكَفْرُ من ضحكاتِ العَذَارى، ومن الفَرْحاتِ الأولى التي دامتْ حتى ظننتُها لا تتبدَّدُ. لا شيء لا يتبدَّدُ. لم يبق في الكَفْرِ إلا الرجالُ الطيبون، العابسون بغير سبب، والنسوةُ الكادحاتُ اللواتي ينظرن نحوي، بإشفاقٍ يليقُ بعانسٍ، والأطفالُ الصاخبون في الدَّرْبِ طيلةَ النهار، بغيرِ مَرَحٍ.. متى سيكونُ لي أطفال؟

حَظِّي من الحياة قليلٌ، مع أنني بيضاءُ كقلبِ القمحة، وجميلة. نحيلةٌ قليلًا، لكنِّي جميلة. نسوةُ الكَفْرِ كُنَّ يؤكِّدنَ أنني إذا تزوَّجتُ، وزادَ وزني، سأصيرُ حسناء. فعينايَ الصافيتانِ واسعتانِ، لونُهما لَوْنُ العسلِ الذي يجمعونه أيامَ البرسيم. وتحوطُهُما رموشٌ كثيفةٌ في لون ليالي الشتاء. حاجبايَ العريضانِ، كثيفا الشَّعْرِ، وناعمان. شعري أيضًا ناعمٌ وطويلٌ، وسميكةٌ ضفائِرُه. أنا لا أُحِبُّ الضفائر، شَعْري مُرسلًا أبهى. كانت دميانةُ صاحبتي تقول إني حينَ أُطْلِقُ خُصلات شعري، وأخُطُّ بالكُحْلِ رموشي، أغدو فاتنةً مثل نساء البلدةِ البيضاء.

دميانةُ كانت تعرفُ كلَّ شيء، ما يُقال وما لا يُقال. تزوَّجتْ قبل أعوامٍ ثلاثة، أيامَ كنا في الخامسة عشرة. عُمرنا واحدٌ. فقد قالتِ الأمهاتُ إننا وُلِدْنا في شهرِ توتَ، الخريفيّ، أولِ شهورِ السنةِ التي مَلَكَ فيها الملكُ المسمَّى هِرَقل، بلادَنا الواسعةَ والنواحي التي حولها. تزوَّجَتْ دميانةُ، في الشهرِ ذاتِهِ الذي تسقطُ فيهِ، وتصفرُّ، أوراقُ عروشِ العنب. لا تعلو لي ضحكةٌ، من يوم ابتعدتْ عنِّي. صرتُ من بعد رحيلها وحيدةً، حزينة. لكنِّي أيامَ عُرْسِها كنتُ فَرِحَةً من أجلها، لأنها اشتهتِ الزواجَ ككلِّ البنات، وهَامَتْ بالأَوْهام. امتدتْ خِطْبَتُها شهورَ ذاك الصيف الذي مَرَّ علينا كأنه الطيف، ثم تزوَّجَتْ حين تقصَّفتْ أوراقُ الكَرْمِ وتغضَّنَتْ أغصانُها والشُّجُون. تركتْني، وتركتِ الكَفْرَ كلَّه، لتسكُنَ مع الولدِ الممصوصِ الذي تزوَّجَته، في بلدتِهِ البعيدةِ التي نسمِّيها البَرَمون. أهلُ البلدة البيضاء يسمونها بيلوز، ويسميها العربُ الفَرَما. لهذه البلدة الكبيرة، مثل كل شيء كبير، ثلاثةُ أسماء. الوصولُ إلى هناك، يحتاجُ ركوبَ بغلةٍ، تظلُّ تسيرُ شمالًا نهارًا كاملًا، أو أكثر. يقولون هنا: إن دميانة بعد زواجها بعامٍ، ولدتْ طفلتينِ في بطنٍ واحدة، ثم انقطع منها حَبْلُ الحبَلِ.

حنيني إلى دميانةَ، حارقٌ. لا أستطيعُ السفرَ إليها، وهي لم تأتِ يومًا لزيارةِ أمِّها. أمُّها يسمِّيها أهلُ الكَفْرِ: هَزَّة. لأنها بدينةٌ، يهتزُّ جسمُها كلُّه حينَ تمشي. الناسُ في الكَفْرِ ينادون بعضُهم بعضًا،

أحيانًا، بغير أسمائهم. كانوا ينادون أمي وأنا صغيرةٌ: غزالة. لأنها نحيفةٌ رشيقةُ الحركةِ كالغزلان، وكحيلةٌ جَفولٌ لا تهدأُ في البيت حركتُها. أمي جميلةٌ وحنون.. ما عادوا بعدما مات أبي ينادونها غزالة، صاروا يسمُّونها أمَّ ماريَّة، وصارتْ تخافُ أن يأتي يومٌ يسمُّونني فيه: العانس.

يومَ رحلتْ دميانةُ عنَّا مع زوجها وأهله على حمارٍ ضعيف، خرج أهلُ الكَفْرِ كلُّهم لوداعِها بعد العُرْس. مشينا معها من باب الكنيسةِ، حتى نهاية ساحة السوق. وعند السور الخلفيِّ للبلدة البيضاء، بلدةِ الكُفَّار، جمعَنا الحِضْنُ الأخيرُ، العَجُول. لحظتَها لم تكلِّمني دميانةُ، ولكنْ عيناها الدامعتانِ قالتَا الكثير. باحتْ بنظراتها، حتى أحسستُ بخوفها، وهي التي طالما تحرَّقتْ للزواج، وطالما عرفتْ ما يكونُ بين النساءِ والرجال. لكنها في لحظة الفراق أَجْهشتْ مذعورةً، وتولَّتْ عنِّي كأنها تفرُّ إلى أفقٍ مخيف.

في طريق عودتنا من وداعها، بخطى الفرح والحزن، همستْ لي أُمُّها هَزَّةُ عندَ بوابةِ الكَفْر، بأنَّ عليَّ الإسراعَ بالزواج كي ألحقَ بدميانة. أضافتْ وهي تتوكَّأُ على كتفي، فتُميلُني ناحيتَها وتُوجِعُني، أن الفتاة إذا تخطَّتِ الخامسةَ عشرة بلا زوج، يدبُّ بباطنها الصدأُ فيخرُبُ معدنها. هززتُ لها رأسي كالموافقة، مع أنني لم أفهمْ مقصدها. لم أكنْ قد عرفتُ بَعْدُ، أن معدني في مكمني. كلامُها أدار برأسي يومها، الأسئلةَ المحيِّرة: كيف سأُسرعُ إلى الزواج؟ وأين

سبيليَ المتاح؟ وما معدِني هذا الذي قد يصدأ؟ وكيف يمنعُ الزوجُ الصدأ؟

الزوجُ.. أَتُراهُ أتى اليومَ، ليأخذني إلى الموضع الذي يُسعدني فيه، وأُسعده. هل آن أوانُ سعدي؟ النسوةُ المتزوجاتُ، الحزيناتُ، يُسمِّين الزواجَ السَّعْدَ. لكنني رأيتُ البناتِ الصغيراتِ وحدهنَّ السعيدات، المرحات طيلةَ الوقت كفراشاتٍ تبتهجُ بغير حساب، وإنْ غابتِ الأسبابُ.

آهٍ يا دميانةُ، ما عُدنا صغيرات. أُمي حبستني من بعد عُرْسِك، فلم أعدْ أطوِّفُ حُرَّةً في الأنحاء، نهارًا، مثلما كنا نفعل أيامَ بهجتنا الأولى. مساءَ يوم رحيلك، جلستُ كالمعتاد على الأرض أمامَ أُمي، وجلستْ هي على شفا سريرها القديم. وبعد لحظةٍ مدَّدَها السكونُ، دعتني إلى ما عوَّدتني عليه في الأُمسيات: أن أروي لها ما رأيتُه في يومي، وأقصَّ كُلَّ ما قيلَ أمامي. كي تطمئنَّ عليَّ، على ما كانت تقول.

رويتُ لأُمي ليلتَها تفاصيلَ عُرْسِك، وما حفظته من كلام أهل الكَفْرِ في يومك الحافل. وحين حكيتُ لها نصيحةَ أُمِّكِ بالإسراع إلى الزواج، كي أتجنَّب الصدأ، طفرتْ من عينيها دمعتانِ من عصيرِ الألم، وأَمالَها الهَمُّ إلى الوراء. ولَّتْ وجهَهَا الشَّاحبَ ناحيةَ الحائط، وببطء مريضةٍ، شدَّتْ فوقَها لحافَها الخشن كأنها ستنام، مع أنَّ الجوَّ كان حارًّا والهوَامَ مبتهجةٌ.

بعدما تولَّت عني، بقيتُ ساعةً أُقلِّبُ أغصانَ العَوْسَجِ، متقدةَ الحوافِّ، ليعلوَ دُخَانُها من الماجورِ المكسورِ، فيطردَ عن حجرتِنا الهوَامَ والناموس.. بعد حينٍ، أخذني من الظلام وَهَجُ الأغصانِ، وأشكالُ الدُّخانِ الغامضة. همتُ شاردةً، مغلقةَ العينين، مسترجعةً ببطءٍ لذيذٍ صورتَك في ثوبِ عُرسك، وقد وضعوا الإكليلَ على رأسِك. ابتهجتُ في سِرِّي، لما تذكرتُ لمعةَ عينيكِ في الكنيسة، ساعةَ انتهى الكاهنُ من تلاوةِ الصلوات، وصيَّرَكِ امرأةً.. هه، أنا ما حكيتُ لكِ يا دميانة ما جرى معي في البرابي مع الرجل الغريب، قبل زواجكِ بيومين، قبيلَ الغروب. لم أجد فرصةً لأحكيه لكِ، ولا حكيته طبعًا لأمي، ولا لغيرها.

في تلك الليلة البعيدة، بقيتُ هائمةً، سَكْرَى بلذَّةِ الذكريات. حتى إذا امتلأتْ سماءُ حجرتنا دُخَانًا، واحترقتِ الأغصانُ اليابسةُ كُلُّها. هَزَّتْ أكتافي رعدةٌ مُباغتةٌ، فقمتُ كالملسوعةِ لأدُسَّ نفسي تحت لحاف أمي. مع أن الجوَّ كان حارًّا. احتضنتُها من ظهرِها، وحين مسَّتني الطمأنينةُ نِمْتُ. أمي لم تكنْ نائمةً حقًّا. آخرُ ما بدا بجوف فؤادي، بعدما أغمضتُ عينيَّ طويلًا؛ نظرةُ الرجلِ الغريب ولمساتُ أناملِه. آهٍ يا دميانة، كأنَّ الأمرَ كان الليلةَ الفائتة، وكأنَّ الأعوامَ ما مَرَّت.

* * *

عرفتُ بمجيء العربِ الخاطبين، ضُحى اليوم. دخلتْ عليَّ الحبشيةُ الخادمةُ بقصرِ الجابي، ساعةَ اشتدادِ الحرِّ وسكونِ

العصافير، وهي تدعوني بإشاراتها وألفاظها المبهَمة للذَّهابِ إلى القصر. الحبشيةُ لا تعرفُ كلامنا، مع أنها هنا منذُ سنين. انتبهتُ لها، وللنسوةِ الصاخباتِ اللواتي جئن وراءها، حين داستْ أرضَ حجرتنا وفوق رأسها ماجورٌ فَخَّاريٌّ، فيه ماءٌ نظيف. دخلتْ خلفها أُمُّ نونا، القصيرةُ، تضحكُ وترجرجُ صدرها الكبير، داعيةً بفرحةٍ غامرةٍ لأن أقومَ فأرتدي هذا الثوبَ الجديدَ، الزاهي، الممدَّدَ من قبلِ صحوي على سرير أُمي.

ـ *هيَّا يا مارية، استحمِّي بسرعةٍ وارتدي الثوبَ الجديد، فقد وصلوا ولن نتركَهُمْ ينتظرون.*

ـ *مَنِ الذين وصلوا، وينتظرون مَنْ؟*

ـ *يوووه يا مارية. العربُ جاءوا يطلبونك. وصلوا إلى السَّاحة، بحميرٍ وجمالٍ كثيرة. اللقاءُ والغَدَاءُ بقصر الجابي.*

ـ *ما أخبرني أحدٌ بأيِّ شيء.*

ـ *جئتُ لأخبرك، أمُّكِ أرسلتني، هيَّا انشطي. بعد استحمامِكِ، كَحِّلي عينيكِ.*

راحتِ الحبشيةُ تنظرُ نحوي، وتبتسمُ، فتلمعُ أسنانُها الشهباءُ في ليلِ وجهِها. نظرتُ إليها مستغربةً وِقْفتَها، فخرجتْ بعدما تركتْ على الأرضِ الماجورَ، وبجواره صابونةً باليةً فوقَ قطعةٍ من اللُّوفِ الأبيض. لحظةَ نهوضي من فَرْشتي، عادتْ أمُّ نونا وأغلقتْ عليَّ

الباب، وهي تهزُّ رأسَها وتغمزُ لي.. تتغامز النسوةُ الكبيرات، عند ذِكْرِ الزواج.

قمتُ، كمأخوذةٍ من حُلْمٍ إلى حُلم. غسلتُ عنِّي العَرَقَ والغُبار، وعصبتُ مسرعةً ضفيرتيَّ، ودخلتُ في ثوبي الجديدِ بعدما مررتُ بالمِرْوَدِ بين أجفاني. فورَ خروجي، صخبتِ الجاراتُ اللواتي كُنَّ يعرِّشنَ في الحوش. تَضَاحَكْنَ، وعلتِ الزغاريدُ، وهُنَّ يغنِّينَ ترنيمةَ الأفراحِ التي مطلعُها: أَقْبلي يا عروسَ سليمان، يا أجملَ من بدر التَّمام.

الثوبُ ضيقٌ عن عَمْدٍ من عندِ صدري، وأكمامُه ضيقٌ منبتُها من تحتِ إبطيَّ، لكنَّ أطرافَها واسعةٌ من فوقِ كفَّيَّ، ومؤطرةٌ بشريطٍ من قماشٍ لامع. لما خرجتُ تحوطُني الجاراتُ، يحوطُهُنَّ أطفالُهنَّ؛ كان الهواءُ قد رَقَّ قليلًا، وقَلَّ الغُبارُ العالقُ في الأجواء. رأتني هَزَّةُ وهي جالسةٌ على المصطبةِ التي بآخرِ الدرب، فدعتْني بتَحْنَانٍ إليها، وحين جئتُها جذبتْني حتى احتضنتْني بقوةٍ، ثم علَّقَتْ بعنُقي عِقْدًا مُبهجًا فيه خَرَزٌ ملوَّنٌ، كانت تُخفيه في شقِّ ثدييها العظيمين. لما التفَّ حول عُنقي العِقْدُ، تصايحتِ النسوةُ وتضاحكنَ، وصخبنَ بالزغاريد مع دخولنا القصر من بابه الخلفيّ.

قصرُ الجابي تحوطه حديقةٌ خضراءُ الأرضِ، فيها أشجارُ رُمَّانٍ وبرتقالٍ وليمون. الحديقةُ صغيرةٌ من الخلف، من جهةِ الكَفْرِ، وفسيحةٌ في الجهة المقابلةِ التي فيها البابُ الكبير. وفيها هناك

حوضُ ماءٍ مدوَّرٌ نسمِّيه النافورة، لأن بقلبِه ماسورة ينفرُ من قلبها في الهواء الماء. الطابقُ الأرضيُّ للقصر، بمدخله بَسْطةٌ رخامية، وبابٌ، بعده فَسَحةٌ تفتحُ عليها غرفٌ أربعة. أولُها غرفةُ الضيوفِ الواسعةُ، التي على يمينِ الداخلِ من الباب. الغرفةُ مبلَّطةٌ، وعلى نوافذِها ستائرُ تمنع عن الجالسين الشمسَ والغبار. أحبُّ الستائرَ، فهي رقيقةٌ ناعمة، تَسحر عيون الأطفال والصبايا.

لحظةَ عبوري من أمام غرفة الضيوف، لمحتُ العربَ متَّكِئينَ هناك على الأرائِكِ، متباعدين، مستريحين كأنهم في بيوتهم. نسوةُ الكَفْرِ كُنَّ يتحشَّرنَ فرحاتٍ، في آخرِ الفَسَحة، أمام غُرفة الطبخ. احترتُ لحظةً، حتى ألفيتُ أمي تنظرُني وسط النسوة، وعيناها الدامعتانِ تبتسمان. أعطتني إبريقًا زجاجيًّا أزرقَ، فيه نبيذٌ أحمرُ ممزوجٌ بماءٍ، تسبحُ فيه قطعٌ صغارٌ من التُّفَّاح الأخضر. وفي يدي الأخرى وضعتْ سبعةَ أكوابٍ، متراكبة، وقالتِ ادْخلي عليهم.

ركبتايَ ترتجفانِ، وأطرافُ كفَّيَّ. أُمُّ نونا من خلفي تُدَلِّكُ بتحنانٍ كتفيَّ ومنبت ذراعيَّ، وهي تتلو صلواتٍ مهموسة. أصواتُ الرجالِ تأتي من غرفةِ الضيوف عاليةً، فيهتاجُ خوفي. رجوتُ أمي أن تدخلَ معي، فهزَّتْ رأسَها غَيْرَ موافقة. كدتُ أبكي، فقالتْ لتهدِّئني: إن الحبشيةَ ستدخلُ ورائي، ومعها إبريقٌ آخرُ ومزيدٌ من الأكواب.

- *صُبِّي للضيوفِ أولًا، ولا تتردَّدي. وسوفَ تناولُكِ الحبشيةُ بقيةَ الأكواب.*

ـ *أمي..*

ـ *ادخلي يا مارية.*

أودُّ لو أهبط إلى الأرض، فأبكي حينًا لأهدأ. لكن النسوة أخذنني إلى غرفةِ الضيوف، ودفعنَني من وراءِ بابِها نحو الرجال. لا مفرَّ، دخلتُ والخجلُ يعصرني، وتهصُرني العيون.

الغرفةُ واسعةٌ جدًّا، كالدنيا. كأنها أوسعُ مما كنتُ أعرفُها، وأعلى ارتفاعًا. العربُ المعرِّشون، أكثرُ من عشرةِ رجالٍ يجلسون على اليمين صفًّا، وفي مواجهةِ البابِ يتربَّعُ بطرسُ الجابي مُفتخرًا، وتحت قدميه صُرَّةٌ كبيرةٌ من الكَتَّان. عن يسارِهِ واحدٌ من العرب، كبيرُ السنِّ، وعن يمينه ابنُ أخته السمينُ، بَسَنْتي، ثم أخي بنيامين. على أرائِكِ الجهة اليسرى، جماعةٌ من رجال الكَفْر، بأولهم أبونا شُنُوتَه كاهنُ كنيستِنا، بجلبابِهِ الأسودِ متقرِّحِ الأطرافِ والأكمام. على بطنِهِ الكبير، يتدلَّى من عنقِهِ الصليبُ الخشبيُّ، المعلَّقُ بالحبلِ الخشن.. لو كان يلبس بُرْنُسَ القُدَّاسِ اللامعَ، والقفطانَ الأسود، لكان منظره أليقَ بمجالسة الخاطبين.

* * *

العربُ جاءوا يخطبون، ولا نساءَ معهم. أين سأجلسُ بعدما أصبُّ لهم ما يشربون؟ لا امرأةَ في الغرفة لأجلسَ بجوارها، ولا نسمةَ هواء. العربُ يتشابهون في الأرديةِ الواسعةِ المخطَّطَةِ بالسيورِ

اللامعةِ العِرَاضِ، والعمائمِ البيضاءِ المعصوبةِ فوق رءوسِهم. عيونُهُم مكحَّلةٌ. نظرتُ مشدوهةً نحو بطرس الجابي، الجالسِ هناكَ في جلبابٍ فاقعِ اللونِ، أصفر. من كتفيهِ تنسدلُ عباءةٌ بلونِ الـجُمَّيـْز، ومن حولِ عنقِهِ يتدلَّى الحبلُ الأسودُ اللامع، المعلَّقةُ فيه سِنُّ التمساح.

كأنهم فُوجئوا، كلُّهم، بدخولي. توقَّف صَخَبُهُم وحدَّقوا ناحيتي، فازداد اضطرابي. بلغ وجيبُ قلبي مداه، لحظةَ قالَ أحدُهُم بصوتٍ أجشَّ: *ما أحلى العروس*. وقال آخرُ منهم: *مَرْحى، مَرْحى*. وقال الكاهن: *بركاتكِ يا أمّ النور*.

رحتُ أصبُّ لكلِّ واحدٍ كأسًا، فيأخذُها من يدي إلى فمه.. في وَسَطهم عربيٌّ لم يشربْ كأسَه. أخذَها مني بيُمناه فوضعها بجواره من دونِ أن ينظرَ نحوي، فأمكنني من النظر إليه. ملامحُهُ دقيقةٌ رقيقةٌ، وعيناهُ المكحَّلتانِ واسعتان. ثوبُهُ نظيفٌ أبيض، وعمامتُه تفوح بعطرٍ خافت. على جانبيْ وجهِهِ النحيلِ الرائقِ، ينسدلُ غطاءُ رأسِهِ الشَّفَّاف. أتُراه خاطبـي؟ يا ليتَه. فهو يبدو مثل قديسٍ شاب، أو ملاكٍ تاه عن طُرق السماء، فهبط إلى الأرض بلا قصدٍ، ليعيش حينًا بين الناس.

وهـو يأخذُ الكأسَ من يدي المرتجفة، قال بصوتٍ خفيض: *شكرًا يا خالة*. تمنيتُ لحظتَها بقلبِ حالمةٍ، لو كان هو الذي جاء يخطبني.. لكنه لم يكن، كان أخا خاطبي الأصغرَ منه، المسمَّى

عندهم الكاتب لأنه يكتبُ لهم عقودَ التجارات، وهو الملقَّبُ هناك بالنبطي مع أنهم كلُّهُم أنباط، وهو الذي سيعلِّمُني في حيوةٍ تالية، خفايا كلام العرب وأسرارَ مَسِّ المعاني بالكلمات.

* * *

سقيتُ العربَ جميعًا وهم ينظرون، ولما وصلتُ بصبِّ النبيذِ إلى بطرس الجابي، لم يرفعْ وجهَهُ نحوي. قال مَزْهُوًّا وهو يأخذُ الكأس من يدي: *يكفيكِ هذا يا مارية، اجلسي هنا جنبَ أخيك، الحبشيةُ سوف تصبُّ للباقين من أهلنا.*

أفسح بنيامينُ موضعًا فجلستُ في الركنِ، خَجْلَى، وعن يميني الكاهن شُنُوتَه. لم أنظرْ في وجوهِ الخاطبين، من شدةِ تحديقِهم نحوي وهم صامتون. تنحنحَ بطرس الجابي مرتين، ثم تحدَّث إلى عربيٍّ منهم، والغرفةُ كلُّها تسمع: هذه *يا شريكي الحبيب، ابنتُنا مارية، صالحةٌ وطيِّعةٌ وتقيَّة، وأنتم أهلٌ لها، وسوف تكونُ ببلادِكُم وديعةً آمنةً، وتصيرُ أُمًّا لأطفالٍ كثيرين منكم، بمشيئةِ الرَّبِّ.*

جاوبَه واحدٌ منهم، بصوتٍ خشنٍ: *سنكون لها خيرَ الحافظين، وسوف تبقى بيننا عزيزةً مكرَّمة، فنحنُ في بلادنا أعزاءُ مكرَّمون. ولن يسعنا إلا إكرامُها، فهي ابنةُ جدَّتنِا المصريةِ هاجر، أُمِّ العربِ أجمعين.*

تداخلتْ أصواتُهم واصطخبوا فيما بينهم بكلامٍ كثيرٍ، فالتفتُّ

إليهِم. لمحتُ وجوهَهُم المكسوَّةَ حُمرةً وسُمرةً، لكني لم أميِّزْ خاطبي. في نظرتهم جُرأةٌ تُهيلُ عليَّ الخجلَ، وتسحبُ وجهي نحو الأرض. بعد حينٍ من حَيْرتي في جِلْستي، ألقى أحدُهُم إلى الكاهن شُنُوتَه كيسًا صغيرًا من قماش، وقال: إنها دراهم لطلباتِ العُرس. باركَه الكاهنُ وهو يدسُّ الكيس مبتهجًا في جيب جلبابه، ثم ينهمكُ معهم في كلامٍ كثيرٍ عن البابيلون، وعن جندِ الملك هِرَقل، وعن حروبٍ تجرى في نواحٍ بعيدة. هم يسمُّون البابيلون الفُرْسَ، وجندُ هرقلَ يسمُّونهم الرُّومَ، ويقولون الدرهمَ وهم يقصدون الدراخمة.

كان بطرسُ الجابي يكلِّمُهُم بكلامِهِم، وكأنهُ منهم، وكنت أتحيَّن اللحظات فأحتال لأنظر إليهم، وإليه. أعادَني لإطراقتي، حينَ رفعَ صوتَهُ بقولهِ: إن الزواجَ سيكونُ في الكنيسة، بيتِ الربِّ، وصخرةِ الديانةِ التي تجمعُنا. ردَّ عليهِ جارُهُ العربيُّ، كبيرُ السنّ: سيتمُّ المراد كُلُّه بمعونةِ *الرَّبِّ يا خال بطرس، مُدَّ يدك فخُذْ مني أمام الرجال مَهْرَ العروس. ولسوف نغيبُ شهرًا في رحلتنا إلى قوص، نعودُ بعده لنأخذَ العروسَ ونتمَّ الزواج. أمامَكُم من الآن شَهْرٌ للأفراح، وسوف نتلوهُ بشهر أفراحٍ آخر، حين نصلُ ديارنا سالمين.*

* * *

نحنُ في الكَفْرِ نعرفُ كلامَ العرب، وهم يعرفون كلامَنا. فهم يأتون إلى ساحةِ السوق، من ألوفِ السنين، ويأتي معهم أطفالُهُم الذين كنا نلعبُ معهم. فيعلِّمُ الأطفالُ الأطفالَ. يسمُّونهم هنا التُّجَّار،

والبعضُ منا يسمِّيهم أبناءَ إسماعيل، والبعضُ العربَ. وهم يسمُّون كثيرًا من الأشياءِ بغيرِ أسمائِها، فيقولون المهرَ بدلًا من الأربون، ويسمُّون الناموسَ الذُّبابَ، والذُّبابَ الذُّبابَ.. ويسمُّوننَا القبط، ويسمُّون بلادنا مصرَ، مع أنها من ألوفِ السنين اسمُها كيمي.

من ألوف السنين. تلك هي إجابةُ أمي، كلَّما سألتُها عن أصلِ شيء.. متى يا أمي كانتِ البرابي المجاورةُ عامرةً؟ من ألوف السنين.. متى التصقتْ بيوتُ الكَفْرِ، بجِدار البرابي؟ من ألوف السنين.. متى صنعوا بوابةَ الكَفْرِ المتهالكة؟ متى صارتِ البلدةُ البيضاءُ بيضاءَ؟ متى صارَ الكُفَّارُ كُفَّارًا؟ متى جاء النهرُ ليمرَّ قُربَ بيوتنا؟ متى اختلفتِ النساءُ عن الرجال؟ متى وَفَد العربُ من صحرائهم إلى ساحة السوق؟.. كلُّ ذلك عند أمي، كان من ألوفِ السنين.

دخلتِ الحبشيةُ بالأطباق والأرغفة، تسبقها رائحةُ الطعام. صفَّتْها على أطراف المائدة الطويلة، قصيرةِ القوائم، التي بوسطِ الغرفة. هي أيامُ صومٍ، لكنَّ رائحةَ الثوم المقليِّ في الطعامِ، فوَّاحةٌ شهية. عندما دُعِيَ العربُ إلى الطعام، وهَمُّوا بالهبوطِ إلى الأرض أمام المائدة، سنحتْ لي فرصةُ الفرار من الغرفة، فاستبقتُ مع الحبشية الباب.

تلقَّتْني أمي في الفَسَحَة، لَهْفَى، وبعدما احتضنتْني أسلمتْني إلى امرأتين كانتا تهشَّان الأطفال من أمام غرفة الضيوف. أخذتني

إحداهُما إلى غرفةِ الطبخ، وأجلستني في زاويتها على ماجورٍ قديم، مقلوب.. رأسي يدورُ كحجرِ الرَّحَى الطاحن، وبطني يعصرُهُ مغصٌ غريبٌ مفاجئ. وددتُ لو انفردتُ برهةً، لكنَّ النسوةَ دخلنَ يسبحنَ فوق أطفالِهن، فغَرفْنَ من الأواني الكبارِ أطباقًا تراصَّتْ على الأرض، وسطَ أرغفةٍ كثيرةٍ انهالَ عليها الجميعُ من حولي آكلين، غيرَ ملتفتين ناحيتي.

رحتُ، وحيدةً، أُحدِّق نحو نعلي، وفي رأسي تجوسُ خواطرُ حَارَّةٌ، غامضةٌ، رهيفةُ الأطراف كحوافِّ الصوَّان المكسور. بعد حينٍ غابتْ عن أذني الأصواتُ، وغامتْ عيناي، وتذكَّرتُ دميانة.

أحتاجُكِ اليومَ. أحتاجُ يا دميانة أن نحكيَ الحكاياتِ، ونوصلَ النهايات بالبدايات. أكان يخطر لنا، يا حبَّة قلبي، أن مآلِيَ سيكونُ بين هؤلاءِ الأعرابِ الأغراب، وأنهم سيطلبونني من بطرسِ الجابي. لو سألتُ أمي، فسوف تقول: إن أخي بنيامينَ صغيرٌ ولا يصحُّ له مجالسةُ خاطبين، وإن العمَّ بطرسَ قريبٌ لها من بعيد.

كُلُّ الناسِ هنا أقاربُ، من قريبٍ ومن بعيد، وكلُّهم أخفوا عني الأيامَ الفائتةَ خبرَ الخاطبين. لكنَّني كنتُ أشعرُ بشيءٍ في الخفاءِ يجرى، فالجاراتُ اللواتي كُنَّ يأتينَ إلى حَوْشِ بيتنا نهارًا، يبقينَ مع أطفالهنَّ أطولَ مما اعتْدنَ، ويتضاحَكْنَ أمامي ويتغامزنَ بغيرِ داعٍ، فلا تعترضُ أمي ولا تحتفي. كانت تكتفي بالتبسُّمِ الباهتِ، والتشاغلِ بحياكةِ ثوبي الجديدِ هذا، الذي ظننته أول الأمر ثوبًا

للعيد الذي اقترب. الثوب زاهِي الألوانِ، مؤطَّرةٌ حوافُّهُ بأشرطةِ القَصَب الدمياطية البديعة.. دمياطُ بلدةٌ بعيدةٌ في جهة الشَّمال، تصنعُ أقمشةً غالية.

أنا أعرفُ أنواعَ الأقمشة، لأن أمي تحيكُ لأهلِ الكَفْر، وتخيِّطُ ملابسَ النسوةِ وجلابيبَ الأطفال. كلَّما قَصُرَ منها الخيطُ، مَدَّتْ لي الإبرة لأضعَ لها خيطًا آخر. ما عادتْ ترى الثقبَ الدقيق، فقد صارتْ كبيرةَ السِّنِّ. ربما بلغتْ من عمرها الأربعين. لو سألتُها عن سنِّها، فلن تُجيب. أُمُّ نونا، كانت تردِّدُ دومًا أنها في عُمرِ أمي، وسمعتُها الشهر الماضي تقولُ مازحةً، إنها تشعرُ بنفسها في العشرين، مع أنها بلغتِ الأربعين.

انتبهتُ لما حولي حين تزحَّفتْ نحوي طفلةٌ، وراحتْ تُشاغبُ ذيلَ ثوبي البرَّاق. هي ابنةُ مارية، ابنة هيدرا السقَّا. عمرها عامان. أودُّ لو أحملُها إلى حِجْري، لكنَّها ستلطِّخُ ثوبيَ الجديد بالتراب وبقايا الطعام. أبدعتْ أمي حياكةَ هذا الثوب، فهي ماهرةُ الأصابع، لكنَّها لا تحيكُ جلابيبَ الرجال ولا أثوابَ العرائس. فهذه، يخيِّطها حائكٌ مخصوصٌ، عنده بيتٌ كبيرٌ ودكانٌ صغيرٌ، في قلب الكَفْرِ الكبير. الكَفْرِ النائمةِ بيوتُهُ على خَدِّ النهر، مثلما تنامُ بيوتُ كَفْرنا.

قبلَ عُرسِ دميانةَ بأيام، ذهبتُ مرةً إلى ذاكَ الكَفْرِ الذي نسمِّيه الكبير، لأنه بالنسبة إلى كَفْرنا كبير. أحضرنا من هناك ثوبَ زفافِها الأخضرَ المزركش، وإكليلَ العُرس. كنا جماعةً كبيرةً من أهلِ

كَفْرنا. ذهبنا مع دميانة وأبيها الطيب، الذي يسمِّيه الناسُ أحيانًا أبو العنق، لأن عنقَهُ طويلٌ نحيل. سرنا غربًا بحذاءِ النهر وقد ابتدأ ازديادُ فيضانه، حتى وصلْنا للكفرِ الكبير بعدَ ساعة سيرٍ. يقولون: لو أكملنا يومَها احتذاءَ ضفَّةِ النهر، لوصلنا إلى بلدةٍ أبعدَ من الكَفْر الكبير، وأكبرَ منه، اسمُها الزقازيق.. ويقولون: إن أجدادَنا جاءوا قديمًا من تلك البلدة البعيدة، التي لم أَرَها. الزقازيقُ في كلامِنا، معناها السمكُ الصغير.

في الكَفْرِ الكبير بيوتٌ كثيرة، كبيرة، بينها دروبٌ طوالٌ متعرِّجة. في التفافة دَرْبٍ منها، ينـزوي دكانُ الحائكِ وبيتُهُ. زوجته امرأةٌ طيبةٌ، قدَّمت لنا يومَها، بَليلةَ قمحٍ محلاَّةً بعسلٍ، بلا حليب. قضينا الظهيرةَ في بيتها ممتلئين بالمرح، ثم عُدْنا بثوبِ الزفافِ والإكليل، وقد كاد يدهمُنا في الطريقِ ظلامُ الغروب.

في طريق عودتِنا، كانتِ العصافير ترجع صاخبةً إلى الأشجار، وكان أبو دميانةَ يداعبُنا بالنِّكات، فتضحكُ قلوبُنا وعيونُنا والشِّفاه. هو رجلٌ طيبٌ. أُمُّ دميانةَ لم تأتِ معنا يومَها، فهي لا تستطيعُ المشيَ إلى بعيد، ولم يجدْ زوجُها لها بغلةً لتركبها. هكذا قال لنا. لما اقتربنا من كَفْرنا، اقتربتْ مني دميانةُ وهي تحتضنُ بتحنانٍ ثوبَ عُرْسها، وهمستْ بأنها تنوي إبقاءَ زوجها في السَّريرِ عاريًا، أسبوعًا كاملًا، حتى تشبع منه. اضطربتُ من كلامها فلم أردّ، ولم تكن تنتظرُ ردًّا. بدتْ مع شرودها، كأنها تفيضُ من باطنها إلى باطنها.. في جلسةِ المساءِ، حكيتُ لأمي ما جرى في رحلتنا، وذكرتُ ما همستْ به

دميانةُ لي، فجفلتْ ثم مالتْ برأسِها من فوق سريرها نحوي، وقالتْ مرتجفةً وهي تزمُّ شفتيها وحاجبيها:

ـ عيب.. عيب.

إذا كان في الزواج عيبٌ، فلماذا يحتفلُ به الناس. يزيِّنون العروسَ ليشجِّعوا الزوج، وينشرون على الملأ خِرْقةَ دَمِ العذرية، ويتركون الزوجينِ منفردينِ ليفعلا كُلَّ ما يشتهيان. وبعد ذلك يقولون إذا ذُكرتْ أمامهم الأفعالُ، إنها عيب.

لعلَّ العيبَ في الكلام، لا في الفعل. فالأمرُ ما دام مكتومًا لا يُقال، ولا يُقال عنه، فهم يقبلونه. المكتومُ عند الناس مقبولٌ. أيامَ حبستْني أمي، رجوتُها باكيةً أن تُطلقَني مثلما كنتُ حُرَّةً، فرفضتْ وقالتْ إنني كبرتُ، وإنها تخافُ عليَّ من كلامِ الناس. الكلامُ هو العيبُ، وهو ما يخيف.

لم أعدْ أكلِّمُ أمي كثيرًا، مثلَما كان الحالُ في زمني البهيج، أيامَ كنتُ أدورُ طيلةَ النهار مثل كلِّ الصبايا، في حنايا البرابي المجاورة، وفي الأطراف وساحةِ السوق. أزور بيوتَ الكَفْر كلَّها، ثم أعودُ قبلَ الغروب لأحكي لأمي بالليل ما جرى في النهار، وأروي لها كُلَّ ما سمعتُه، كي تطمئنَّ عليَّ. أمي لم تكنْ يومًا مطمئنة.. المكانُ الوحيدُ الذي طالما تمنيتُ الذهابَ إليه، وما ذهبتُ، هو البلدةُ البيضاءُ التي تفصلُ ساحةُ السوقِ الفسيحةُ، بين سورها الخلفيِّ وبيوت كَفْرِنا.

كَفْرُنا يبدو من خارجه كأنه بيتٌ واحدٌ كبيرٌ، نبتَ من جانب جدار

البرابي، ثم امتدَّ إلى حافةِ الربوةِ المشرفةِ على تلك الأرض الوطيئة، التي يعلو إليها النهرُ حين يفيض، ويزرعُها أهلُ الكَفرِ حين يغيض. يسمِّيها أهلُ الكَفْرِ هبةَ النهرِ، وكُنا أيامَ الطفولة نسمِّيها الملاعب.

الربوةُ التي يجلس الكَفْرُ على حافتها، فوقَها كُلُّ ما أعرفُه. خرابةُ الآثارِ القديمةُ المسماةُ البرابي، بيوتُ كَفْرِنا، ساحةُ السوق، البلدةُ البيضاء. وعلى امتداد النظر، تحوطُ الربوةَ من جميع الجهات، عدا جهةِ النهر، عروشُ الكرومِ والأشجارُ العاليةُ والنخلاتُ المتباعدة والمتقاربة. وعلى مبعدةٍ منا، كفورٌ أخرى تختبئُ وسطَ الزروع، وتحوطُها الخضرةُ التي تحوطُنا. الخضرةُ تمتدُّ حولنا، حتى آخرِ العالم. آخرِ العالم. وصلتُ إلى هناك، يومَ جريتُ فَزِعةً من صرخات أمي والنسوة، بعد صيحاتِ هيدرا السقَّا في الدرب، بأن عمِّي بشايَ قد قُتلَ في ترعة الثعبان.

* * *

انتبهتُ من هيجان خواطري وجولان الأفكار، حين علتْ جلبةُ الرجال الخارجين من غرفة الضيوف. أصداءُ ضحكاتِهم بين الجدران، صاخبةٌ. بحماسٍ ومرحٍ، نهضتِ النسوةُ من حول الطعام، وفي ذيولهنَّ الأطفال، فتحشَّروا خارج غرفةِ الطبخ لينظروا ظهورَ العرب المغادرين. رفعتُ عينيَّ إلى شُبَّاك الغرفة، فرأيتُ أن أوانَ الغروب قد حان.

قمتُ متمهلةً من فوق الماجور المقلوب، ونفضتُ عن ذيل

ثوبي الغبار والنملَ الساعي. خرجتُ من غرفة الطبخ تائهةً، فرأيتُ بطرسَ الجابي عائدًا بعدما ودَّع العرب. رجال الكَفْرِ خرجوا معهم، لتوديعهم ثانيةً عند ساحة السوق. استدعاني بإشارةٍ باسمةٍ إلى غرفة الضيوف، فدخلتْ أمي معي وسبقتني إلى حيثُ جلس. جلس بنيامين عند الزاوية اليسرى للغرفة، وبقيتُ واقفةً خلف أمي.

وهو يمُدُّ يدَهُ في جيبِ جلبابِه، التفتَ بطرسُ الجابي مبتهجًا إلى ناحيةِ بنيامين، وهَزَّ راضيًا رأسه السمين وهو يهنِّئ أمي المبتسمة، ويناولني خمسةَ دنانيرَ ذهبيةٍ، لامعة، قال إنها الأربون. أضاف بصوتٍ أعلى: *سيكونُ عَقْدُ الأملاكِ، والتتويجُ بالإكليل، وبقيةُ مراسم الزيجة؛ بعد أربعة أسابيع.*

دمعتْ عينُ أمي حين مَدَّ بطرس الجابي يده في جيبه الآخر، وأعطاني من عنده دينارينِ ذهبيين، لا يلمعان، قال إنهما هديةُ عُرْسي.. لم أمتلك قبل اليوم دنانير، لكن كان قلبي يخفق لها، حين أرى لمعانها في يد التُّجار بساحة السوق.

أشار بطرس الجابي إلى الصُّرَّةِ الموضوعة على الأرض، وقال إنها هدايا العرب لي، ولأمي. أكَّد أنهم قومٌ كرماءُ، وأغنياء، وأنهُ يعرفهُم منذُ زمنٍ بعيد، ويعرفُ أقاربَهُم الساكنين بصحراء سيناء، والصحراواتِ الممتدةِ إلى قوص. لم أكنْ يومَها قد عرفت ما سيناءُ، وما قوص. وليتني ما عرفتُ.

دعتْ أمي لبطرس الجابي بدوام السعادة، فهزَّ رأسَهُ مسرورًا

وهو يخرجُ من غرفةِ الضيوف وأمي تتبعُه، وأنا أتبعُها. في منتصفِ الفَسَحةِ التي بين الغرف، همس لأمي بصوتٍ خفيضٍ، بالكاد سمعتُه: اسمعي، *لن أكون هنا يومَ العُرس، فعندي بعدَ أسبوعين رحلةٌ للصعيد، ولا أعرفُ متى سأعودُ، فالأحوالُ هناك مضطربةٌ، ويُقال: إن جند هرقل سيرجعون فيطردون البابيلون.*

أظهرتْ أُمي الجزعَ، ثم قالت بصوتٍ مرقّق، وهي تعقد أصابع كفَّيها على بطنها: *سوف ننتظرك يا سيدي، فالعُرسُ بدونك لن يكون مبهجًا، وأنتَ لنا السندُ الوحيدُ والمعين.*

ـ *لا .. لا تؤخِّري مارية، فيهجُمُ عليها لهيبُ الصيف في طريقها إلى بلادِ العرب. وقد أغيبُ في رحلتي شهرين أو أكثر، فعندي عملٌ كثيرٌ هناك.*

ـ *تعودُ لنا سالمًا، يا سيدي.*

ـ *اسمعي، بَسنتي سيبقى هنا ومعه الحبشية. إن احتجتِ شيئًا لعُرس مارية، اطلبيه منهما.*

ـ *هل سأراك يا سيدي قبل سفرك؟*

ـ *طبعًا، سأُرسلُ في طلبك. ولكنِ اهتمِّي بماريةَ الأيامَ القادمة، فهي الآنَ العروس.*

ترحَّلتِ النسوةُ والأطفال عن القصر، وكنا آخر مَنْ رحل. فقد بقينا خلفَ بطرس الجابي، حتى تركَنا عند السُّلَّم الذي بآخر

الفسحة، وصعد إلى طابقه الأعلى. غرفةُ نومه هناك، وهناك غُرفٌ أخرى لا أعرفها، لأنني ما صعدتُ إلى هذا الطابق قطُّ. أمي صعدتْ إليه كثيرًا. فهي قريبةٌ له من بعيد، وهو يطلبُها للعناية بقصره، فتقضي هناك طيلةَ النهارِ ولا تعودُ إلى سريرها منهكةً، إلا بُعيدَ الغروب. هو رجلٌ طيبٌ، وطويلٌ، وليس له زوجة.

* * *

خرجنا إلى الحديقة الأمامية، وقد كاد الظلامُ يمحو الظلال، فاستوقفني بسنتي السمين. كان ينتظرُنا في غبش الغروبِ، بجلبابه الغامق المتهدِّل، تحت شجرة الرمَّان الكبيرة التي عند بوابة القصر. ناداني فعدتُ من خلف أمي، إليه، ولما وقفتُ قُبالته هَمَّ أن يتكلَّم، لكنه اكتفى بالصمت وهو يمدُّ لي يُمناه، ليهديني دينارًا ذهبيًّا لامعًا، ويمدُّ عينيه محدِّقًا كالأبلهِ إلى شفتي التحتانية. تمنَّعتُ عن قبولِ هديته، فأصرَّ بأن صَرَّ حاجبيه، من دونِ أن يحوِّل عينيه عني. مددتُ ذراعي لآخذ منه الدينار شاكرةً، فتعمَّد لمس باطن كفِّي بأطراف أصابعه. امتدح فجأةً ثوبي، فهربتُ من أمامه. مع أنَّ الثوب يستحقُّ المديح.

لما انصرفتُ عنه، ظلَّ بسنتي متسمِرًّا بموضعه تحت الشجرة. أحسستُ به، من دون أن ألتفت ورائي، أنه ينظرُ إلى ورائي ويناديني بلا صوت. أسرعتُ الخطى، حتى لحقتُ بالخارجين من باب القصر الخلفيّ، إلى الدرب المظلم. أدركتُ الباقياتِ من النسوة، ومن ورائهنَّ أطفالهنَّ، ومن ورائهم أمي والحبشيةُ تحملان صُرَّة

الهدايا الثقيلة. أغلقتُ خلفي الباب الخلفيَّ للقصر، وبقيتُ برهةً عند باب بيتنا، أنظر السائرين في الدرب، وهم ينسلون من أمامي رويدًا. ابتلعتهم حلكةُ الدرب وأبوابُ بيوتهم وبوابةُ الكَفْر.

كَفْرُنا صفَّانِ من بيوتٍ مبنيةٍ بالطين المعجون بالتبن. بين الصَّفَّينِ دربٌ، رطبٌ مفتوحةٌ عليه كل البيوت. كنتُ أظنه في صغري، جزءًا من بيتنا. بأول الدرب البوابةُ القديمةُ المفتوحةُ دومًا على ساحةِ السوق، وبآخرِهِ البابُ الخلفيُّ لقصرِ بطرس الجابي. بيوتُ الصفِّ الذي على يمين الخارج من باب القصر الخلفي، يحدُّها من خلفها جِدارُ البرابي السميك، الثقيل. الصفُّ يبدأ من ناحية الساحة، بالكنيسة. بعدها بيت حَنَّا الكرَّام، وبعده بقية البيوت التي آخرها بيتُ الكاهن شُنُوتَه، ثم بيتنا. بيتُنا بين قصر الجابي وبيت الكاهن، محصور. كان أبي ينوح مساءً في سريره بترنيمةٍ تضايق أمي فتنهره، لكنه لا يكفُّ عن العويل، مردِّدًا ما معناه: *جناحُك مكسورٌ يا عصفور، بين الجابي والكاهن محصور*.. بعدما مات أبي، ظل نواحه يتردَّدُ زمنًا في أحلامي.

بيوت صَفِّنا تستندُ كُلُّها إلى جدار البرابي، المشقوق في بعض البيوت. الشقُّ الذي في بيتنا جعلناه بابًا إلى البرابي، لكنه مرتفعٌ عن الأرض كنافذة. والشقُّ الذي في بيت حَنَّا الكرَّام، كبيرٌ، ومفتوحٌ بلا باب على ناحيةٍ من أرضِ البرابي، تحوطها أحجارٌ كبارٌ متكسِّرة. كان حَنَّا الكرَّام يربِّي هناك الخنازير، ويُلقي لها كلَّ مساءٍ بالقمامةِ

التي يجمعها ساعةَ الغروب من ساحة السوق، ويتركها أمامها كي تمصَّها طيلة النهار التالي. كانوا يسمُّونه حنَّا الكرَّام، مع أنه لا يزرعُ الكروم، ولم أشاهد يومًا عنقودَ عنبٍ في بيتهِ. في بيتهِ شهدتُ الويل، وعرفتُ الفزع.

الصفُّ المقابل لبيتنا، يبدأُ من عند البوابة ببيت العمِّ سمعان، صاحب النِّسناس. نسميه بذلك، لأنه كان يعيشُ مع قردٍ صغيرٍ من نوع النسانيس، طويلُ الذيل جميلُ الوجه، لا يكفُّ عن الحركة. كنا نلعب معه ونحن صغار، فيلاعبنا ويبتهج معنا. ذهب به العمُّ سمعان مرة، ولم يعد به من بعدها. هو يعود إلى الكَفْر أيامَ جَمْعِ العنب، لأنه يعملُ بالمعصرة، ومع الخريفِ يرحلُ ليعمل في نواحٍ بعيدةٍ لا أعرفُها. يقولون عنه هنا إنه مجنون، لأنه لم يتزوَّج قطُّ، ويكلِّم نفسه حين ينفرد وحين يمشي وحيدًا.. أمي كانت تقول: الذي يعيش وحيدًا سيموت وحيدًا، وقد لا يجد مَنْ يدفنه.

بآخر هذا الصَّفِّ بيتُ عَمِّي بشاي، المواجه لبيتنا. عمِّي بشايُ كان أصغر من أبي بسنوات، وكان يذهبُ إلى بيته في الليل فقط، أما نهارُه فيقضيه خارج الكَفْر، أو في بيتنا. لما ذهب إلى الحرب الكبيرة، وقُتل هناك، أغلقْنا بيته فماتَ من طول الوحدة، لأن المكان لا يحيا من غير السُّكَّان.

* * *

بعدما وقفت برهةً عند باب بيتنا، حائرةً دخلتُ البيت هائنةً ومنهكة. كان بنيامين قد دخل قبلي إلى حجرته الأقرب إلى الباب،

ودخلتْ أمي والحبشية حجرتنا اللصيقة بالبرابي. قابلتُ الحبشية في الحوش، خارجةً وهي تبتهج، فأغلقتُ خلفها باب البيت وذهبتُ إلى حجرة الحبوب المتوسطة بين الحجرتين، لأخلعَ عني متسترةً بظلامِها، هذا الثوبَ الجديدَ الملتصقَ بصَدْري وخَصْري.

ارتحتُ حين أغلقتُ بابها ورائي، ومن ورائِهِ سكتتِ الأصواتُ، أو سكنتْ أذني عن استماعِها. وارتحتُ حين طرحتُ عني سِتْر رأسي وخلعتُ نعليَّ، ثم أرجحتُ في الظلام شَعري. وارتحتُ حين رفعتُ عني برفقٍ، ثوبي اللصيق المؤجِّج وما تحته من سراويل.. بقيتُ لحظاتٍ في وحدتي عاريةً، مطمئنةً للوحدة والظلام، ومضطربةَ الباطن.. قبل أن أمدَّ ذراعي اليسرى، لألتقطَ ردائي المنـزليَّ المعلَّقَ على الوتد الغائص في الحائط، ألصقتُ بحائط الحجرة ظهري الدافئ. رفعت يديَ وأنا مغمضةُ العينين، حتى لمستُ الوتد بأناملي المرتجفة، ومررتُ بها عليه ثم تعلَّقتُ به.. بدأ اهتزازُ قلبي، حين أحسستُ بأطراف ضفائري المفكوكة، تداعبُ كتفيَّ وعنقي وأعالي صدري.

أمسكتُ شعري بيدي اليمنى، وحككتُ به رقبتي من مبتداها، فاعتراها خدرٌ لذيذ. بأطراف أصابعي وأظافري، رحتُ أفركُ صامتةً صدري، وأخمشُ منتهاه الناهض.. تماوج فيَّ بردٌ ودفءٌ، ثم غمرتني الرعشةُ المخدِّرةُ، وسَرَتْ بأسافلي سخونةٌ تزايدَتْ، والتهبَتْ، وتأجَّجَتْ، وتوهَّجَتْ.. ثم هدأتُ، وأخذني الدَّوَارُ.

انتظارٌ

نمتُ من أول الليلِ ساعةً ثم سحبني من بساط النُّعاس، السُّهْدُ ونقيقُ الضفادع، فبقيتُ أتقلَّب في فرشتي طيلةَ ليلتي.. أنهكني الأرقُ، وأقلقني التردُّدُ ما بين انتباهاتِ القلق وخَطْفاتِ الوسن، حتى تصايحتِ الدِّيكةُ كي تنبِّه الشمسَ إلى طلوعها. ألا تَمَلُّ الشمسُ هذا الطلوعَ اليوميَّ المبكر؟

تكاسلتُ عن مفارقة دِكَّتي، حتى بدتْ ألوانُ الفجر الشفَّافة من بين جريد السقف، وتشاجرتِ العصافيرُ كي توقظ الناس. أمي قامتْ قبلي من سريرها إلى أعمالها اليومية، فتصنَّعتُ النوم حتى خرجتْ من الحجرة، ثم استدرتُ وأطلتُ النَّظَرَ في زاوية الحجرة، حيث الصُرَّةُ المربوطةُ بأطرافها. استدرتُ ثانيةً في فَرْشتي، وقرَّبتُ أنفي من سور البرابي، حتى نفذت إليَّ رائحةُ الأحجار العتيقة، فأخذني نَوْمٌ صباحيٌّ لذيذ.

كانت أمي رحيمةً بي، فلم تنهرني كعادتها لتوقظني. حين دفعتُ

عني سَكَرات التكاسل، كان غبارُ الأيام الفائتة قد تبدَّد عن الأجواء، وراح ضوءُ الشمسِ الأبيضُ يفترشُ حوش البيت. عند الباب المفتوح على الحوش، غمرتني بهجةٌ وطمأنينةٌ نادرة. أمي تجلس عند الحائط المقابل، وبين ساقيها ماجورُ الغسيل الكبير، متآكل الحواف، وقد شمَّرت عن ذراعيها وانهمكت في لَتِّ غسيلٍ قليل. قطع معدودات. رأيتُ الحبلين المشدودين بين جانبيِ الحوش، يهتزَّان ابتهاجًا، كأنهما ينتظران المشطوفَ من الغسيل.

ابتسمتُ لأمي ومِلْتُ عليها لأضعَ على رأسها قُبلةً، فأمالتْ إلى كتفي رأسها، وأمسكتْ معصمي بكفِّها الحانية المبتلَّة بالماء، المتبَّلة بالأمومة، كأنها تتشبَّث بي. جلستُ عن يمينها لأساعدها في عَصْرِ المغسول، فأزاحت عن الماجور كفِّي وهي تقول: *ارتاحي أنتِ، فأنتِ هنا ضيفةٌ سوف ترحلُ بعد شهر.*

وددتُ لو أقول لها إني أحبها، وإني سآتي كثيرًا لزيارتها، وإني سأتذكَّرها كُلَّ صباحٍ ومساء. لكني ارتبكتُ، فاكتفيتُ بأن قبَّلتُ ثانيةً رأسَها المكشوف، ولمستُ بخدِّي مَفْرق شعرها.. جلستُ خلفها، وأخرجتُ المشطَ الخشبيَّ العريض من جيب جلبابي، وبقَصْد مداعبتها، مررتُ بالمشط على شعرها المتهدِّل على ظهرها، فأحسستُ بها تبتسم.

مسكينةٌ أمي، لم يبق برأسها إلا شعرٌ خفيفٌ، يزدادُ كُلَّ يومٍ خفَّةً. شعري أنا كثيفٌ. تصل أطرافُه حين أضفِّره، إلى أعلى

نقطتين بصدري. وحين أفُكُّه يطولُ، فيكاد يمسُّ بطني بأطرافه.. بلَّلتُ شَعْري من ماء الشَّطْف، ورحتُ هانئةً أمطُّ بالمشط خُصلاته المتموِّجة، كي أُسْبِلَها استعدادًا لتضفيرها من جديد، بينما عيناي تجولانِ في أنحاء البيت.

* * *

لبيتنا حائطٌ واحدٌ، فيه البابُ الخشبي الرقيق، الفاصل بين الدرب وحَوْش البيت. بابُنا في غالب الأوقات غيرُ مُوصَدٍ، لأننا نسكن آخر الدرب، ولا يمر من أمامنا أيُّ غريب. لا يدخل الدرب أصلًا، أيُّ غريب.

حوائط البيت الثلاثة، الأخرى، ليست له. فعن يمين الداخل من البابِ، السورُ الخلفي لقصر الجابي. وفي مواجهته جدارُ الأحجار الكبار، الفاصل بين الكَفْر والبرابي. حائطنا الثالث، مشتركٌ مع بيت أبونا شُـنُوتَه وهو الذي بناه، فيما أظن.. حَوشُ بيتنا، مفتوحةٌ عليه الحجراتُ الثلاث، ومساحتها مجتمعةً كمساحته. حجرتنا أنا وأمي تلاصق البرابي، بعدها حجرة الحبوب، ثم الحجرةُ المجاورة لباب البيت حيث ينام اليوم بنيامين ليلًا، وكان أبي ينام فيها ليلَه ونهارَه، حتى ذهب إلى الرَّبِّ ليرتاح من مرضه.. لا أحبُّ دخول هذه الحجرة.

في الحوش، على يسار الداخل من باب البيت، معزاةٌ مربوطة من عنقها. ناعمةُ الشعر، جميلةُ العينين. أهداها بطرس الجابي

لأمي يومَ عيد العذراء، ولم تلد عندنا بعدُ. وفي الزاوية المقابلة، حيث التقاء جدار القصر بحائط البيت الوحيد، زيرٌ نشرب منه الماء النظيف، الذي يأتينا به هيدرا السقَّا كلَّ يومين.

سقَّاءُ الكَفْرِ مسودُّ الوجه، ونحيلٌ قصير، القِرْبَةُ التي يحملها على ظهره وكتفيه، طولها في مِثْل طوله. زوجته سمينةٌ، تزنُ مثله ثلاثَ مرات، لكنه يحبُّها ويدلِّلها دومًا ويناديها: يا بقرة. يقولون إنه في شبابه، حَجَّ مرتين إلى كنيسة القيامة، ماشيًا. هذه الكنيسة بعيدةٌ جدًّا. في المرة الأولى جاء بصليب خشبيٍّ كبير، علَّقه في عنقه ولم يخلعه قطُّ. وفي المرة الأخيرة عاد من هناك، وقد اختار لنفسه اسم هيدرا، وهجر اسمه السابق: بشاتي. لو بدَّلتُ يومًا اسمي، سأختار صوفيا أو مرتينا.

في منتصف الحوش، يمتدُّ حَبْلان مجدولان من لوف النخيل، نعلِّق عليهما المبلول من الغسيل. وبآخر الحوش من جهة البرابي، فرنٌ كبير خلفه نخلةٌ تُعطي البلح كلَّ عام، بجوارها جذعُ نخلةٍ خشن، مائلٌ كالسُّلَّم، نصعدُ عليه إلى سطح البيت.. عند التقاء جدار البرابي بسورِ القصر، غرفةٌ ضيقة غير مسقوفة، فيها حفرةٌ مغطاةٌ ببلاطةٍ كبيرةٍ مثقوبة من وسطها، هي محلُّ قضاء الحاجة.

* * *

السكونُ تامٌّ من حولي، وفي داخلي، لولا طنينُ الذباب وخربشاتُ الدجاجات. هي لا تكفُّ عن نَقْرِ الأرض، والتقافز في

الأنحاء. دجاجاتُ أمي طيبةٌ ورقيقةٌ، مثل أمي. أحبُّ الصغار منها، والصغار والكبار من الإوزِّ، لكني لا أحبُّ البطَّ. خاصةً ذكُوره التي تفحُّ دومًا وتطارد بقية الطير، وقد تعضُّ الصغار من الأطفال فتُبكيهم، مع أن منقارها لا أسنان فيه. ذَكَرُ البطِّ أسودُ، وقبيحٌ منظره، يذكِّرني بالرجل الضخم الذي خَتَنني أنا ودميانة في بيت حنَّا الكرَّام، حين كنا صغيرات. أخذتنا النسوةُ يومَها من غفلة الطفولة، إلى بيته الكئيب الملاصق للكنيسة، وفي الغرفة المظلمة التي بآخر البيت، أمسكننا فجأةً كي يتمكَّنَّ منَّا.. بسطنَنا على ظهرينا فوق سرير قديم، وبَعَّدْنَ بأيدٍ قويةٍ بين ساقَيْنا. وبعدما نزعنَ عنَّا السراويل، مال علينا الرجلُ الأسودُ بأنفاسه المتهدِّجة، كأنه ذَكَرُ بَطٍّ يفحُّ، وقَصَفَ بسكِّينه قطعةً من معدِننا.. امتلأ الكَفْرُ بصراخنا الفَزِع.. لم تكن أمي بقُربي.

- قُومي يا مارية لنشر الغسيل.

ربطتُ على عَجَلٍ طرف ضفيرتي بالشريط الملوَّن، وقمتُ لألتقطَ الملابس المعصورة. ما بين انحناءاتي على الماجور ووقفاتي أمام الحبل المشدود، لم أنظر إلى وجه أمي. وحين نظرتُ، رأيتُ دموعًا على خدِّها. هي تبكي مثلما اعتادت، صامتةً. سألتُها عن سِرِّ بكائها، فمسحتْ خدَّها بباطن كَفِّها وقالت: لا شيء.. سألتها إن كانت حزينةً لأنني سأتركها؟ فأجهشتْ حتى سال أنفُها، ثم مَرَّتْ على وجهها بباطن ذيل ثوبها، وقامتْ منتفضةً إلى حجرتنا. لحقتُ بها ورجوتها أن تهدأ، كيلا تنهمر معها دموعي. بباطن كفَّيها كفكفتْ

سَيْلَ دمعها، وأشاحتْ عني وهي تقول: *هذا قلبُ الأُمِّ يا مارية، سوف تعرفينه يومًا ما.*

جلسنا برهةً صامتتينِ، ثم خرجتُ من الحجرة وراءها مستسلمةً، ولما جلستْ أمام الفرن لتسحب الرماد من جوفه بالبَشْكُور الحديدي، عدتُ إلى جلستي السابقة على الأرض، وأسندتُ ظهري إلى سور القصر. لم أجد ما أنشغل به ففككتُ ضفيرتي كي أُضفِّرها من جديد، فعاد خاطري إلى شروده، وتنقَّلتُ بين ذكرياتٍ تمرُّ بقلبي مثلما تمرُّ فوق الغيطان قطعُ السحاب.

ازداد النهارُ حَرًّا، وما أوقدتْ أمي بَعْدُ نيرانَ الفرن. الحياةُ في كَفْرنا مملةٌ. بعينٍ كَسْلى، لاحقتُ حركةَ أمي وهي تكنسُ الحوش بعرجون قديم، ثم تجلبُ من فوق السطح عددًا من أقراص الجلَّة، وتَصُفُّها قُرب فوَّهة الفرن. ارتقتْ جذع النخلة المائل ثانيةً، لتستلَّ من الأكوام التي فوق السطح، أغصانًا يابسة سوف تكون حطبًا. اليابسُ من كل شيء، والأخفُّ والأشفُّ، سريعُ الاشتعال إذا مسَّه أيُّ لهب.. في داخلي لهبٌ مشتعل.

قدحتْ أمي حَجَرَيِ الصَّوَّان فالتقط القشُّ الشرارةَ منهما، وجلستْ بالقرب مني، منهمكةً في دَسِّ الحطبِ والجِلَّةِ بجوف الفرن. الجلَّة أسرع اشتعالًا، وأقلُّ دخانًا. أمي تبدو دومًا منهمكةً، ومنهكة، فهي لا تهدأ عن الانشغال بعملٍ ما. مسكينةٌ أمي ومهمومةٌ مثل بقية الأمهات، وشاحبة. لا يزال على وجهها مَسْحَاتٌ من جمالها

الأول، تذكّر بزمن صِبَاها، أيامَ كانت تُشبهني. سوف أُشبهها حين أكبر.. لماذا ارتضتِ الزواجَ بأبي، وهي تعلم أنه ضعيفٌ، ويعاني المرض. هل كان حاله أفضل أيامَ تزوَّجَتْهُ، أم تراها انتظرتْ مثلي، فلم تجد أفضل من نصيبها المكتوب؟

أبي استبدَّ به السُّلُّ سنين، ثم أهلكه بعدما أنهكه. أمي عانتْ معه المرَّ في مرضه، وباعت كُلَّ المعز التي كانت عندنا، ثم باعتِ الطيور بأبخس ثمن. لولا بطرسُ الجابي، لصارت حياتُنا بؤسًا مقيمًا.

أتانا صوتُ أُمِّ نونا، ونونا ابنتها، من وراء باب بيتنا المفتوح. دخلتا علينا ضاحكتَيْن، يحوطهما بعضُ أطفالهما. لهما هيئةُ أُختين قصيرتين، ولهما بطنانِ منتفخانِ معظم الأوقات، كأنهما تتنافسان في الإنجاب. أُمُّ نونا أنجبتها أيامَ كانت في الخامسة عشرة، وعندما بلغت ابنتها الحادية عشرة، زوَّجتها لابن عَمِّ أبيها. كانت نونا في أول زواجها، تهربُ نهارًا من بيتهم، لتلعب مع الأطفال في الدرب والساحة. فيخرج زوجُها العاملُ بالمعصرة، ويفتِّشُ عنها حتى يُمسك بها ويحملها على كتفه، كلُعبةٍ، ويعود بها إلى البيت وهي تبكي، وترفسه بساقيها القصيرتين. والناسُ تضحك. كُنا نسمع صرخاتها آناءَ الليل، وكانت أمها حين تسألها النسوةُ، تهزُّ كتفها اليمنى، كعادتها، وتقول غير عابئةٍ: *البنتُ صغيرةٌ، وكُلُّ ما فيها صغير*. ثم تضحك. نونا ما زالت تنادي زوجها إلى اليوم، يا عمِّي، لكنها ما عادتِ الآن تلعب، فقد بلغ عمرها قرابة العشرين عامًا، ولها من الأطفال خمسةٌ.

ـ *جئنا نخبزُ الفطير معكم.*

تهلَّلتْ أمي لأمِّ نونا ورحَّبتْ، فاقتربت منَّا وحطَّتْ عن رأسها ماجور العجين وغطَّته بغطاء رأسها، وأبقت شعرها مكشوفًا. شعرُها قصيرٌ مثلها، لكنه كثيفٌ. نونا تمسك كالحبالى سلَّةً من الخوص، وعصا من تلك التي نرقِّق بها عجين الفطير. هشَّتْ أُمُّ نونا الأطفال إلى الدرب، ليلعبوا بعيدًا عن نار الفرن ودُخَانه، وعن الخبز والخابزات، وعادت إلينا بعدما وَارَبَتْ خلفهم باب البيت. دخلت نونا حجرتنا، لتحطَّ من على كتفها رضيعَها النائم، ثم عادت ومعها ابنتها مارية ذات العامين، الممسكةُ دومًا بذيل ثوبها.

وهي تخرج من حجرتنا، صاحتْ نونا وكأنها اكتشفت هناك كنزًا: *لم تفتحوا صُرَّة الهدايا*؟! طلبتْ مني أمي إحضار الصُّرَّة الثقيلة إلى وسط الحوش، فأتيتُ بها بعناءٍ. تحلَّقنا حول الصُّرَّة في وسط الحوش، غير مبالياتٍ بحرِّ الشمس الواقفة فوقنا. فكَّتْ أمي الأطرافَ المعقودة، فانفرطتْ من الصُّرَّة قطعٌ متنوعةُ الألوان، من القماش الغالي. علا صَخَبُ نونا وأمِّها، وجلجلتِ الضحكاتُ. قسَّمت أمي هدايانا، فتركت لي من قطع القماش خمسًا، وأخذت لنفسها قطعةً سوداء، وأعطت لنونا قطعةً حمراء، ولأمِّها قطعتين. كانت في الصُّرَّة صُرَّةٌ أصغر منها، فيها أكياسٌ من كتَّان، في كل كيسٍ طحينٌ ذو رائحةٍ نَفَّاذة. اهتزَّت أمُّ نونا وهي تقول مبتهجةً: *هذه بهاراتٌ للأكلات يأتي بها العربُ من بلادٍ بعيدة، وهذا مبشورُ جوزِ*

الهند الذي يُرَشُّ على الفطير. زبيب، تينٌ مجفَّف، بلحٌ عجيب، هذه الكُرات الصغار لا أعرفها.

عرفنا بعد أيام، أن تلك الكراتِ المجهولة، توابلُ تسمى جوز الطيب. تُدقُّ ويُوضع منها اليسيرُ على الطبيخ، فتشهِّي الطعام وتزكِّي رائحته.. شقَّتْ أمي قماش الصُّرَّة الكبيرة، فصارت صُرَّتين قسَّمت عليهما بقية الهدايا، ثم أعطتْ واحدةً منهما لأُمِّ نونا ودخلتْ بالأخرى إلى حجرتنا فوضعتها هناك، وعادت مزهوَّة. لم أدرك ساعتَها السِّرَّ الساكن خلف هذه القِسْمة، ولا السببَ في أن أُمَّ نونا تلقَّت نصيبها راضيةً، بلا تمنُّع، وأرسلته على رأس ابنتها لبيتها، بعدما حزمته جيدًا. في المساء عرفتُ من أمي، أن أمَّ نونا بتوفيقٍ من أُمِّ النور، هي التي دَلَّتِ العرب عليَّ وامتدحتني عندهم، حتى أتوا بالأمس خاطبين.

* * *

حَمِيَتْ نارُ الفرن وطقطقتْ في جوفه الأغصانُ اليابسة، وانتهينا من تدوير قطع العجين الصغار، وابتدأنا في دَحْيها وبَسْطها لتصير أرغفةً وفطائر. حين هدأ الدخانُ وانتظمتْ نارُ الفرنِ، صارت قُبَّتُه جاهزةً لدسِّ العجين المرقَّق. أدخلنا الفطائر أولًا، فهي لا تحتاج النار القوية التي تُنضج الأرغفة.

أحبُّ رائحة الفطير، حتى وإن كان من غير زُبدٍ. هو بالزُّبد أشهى مذاقًا، لكنَّ الأيامَ صيامٌ. ظلت أُمُّ نونا تغنِّي وتهزُّ كتفيها، كأنها ترقص

جالسةً، وهي تنتظر كل فطيرةٍ خارجةٍ حتى تدهنها بزيت السُّمْسُم، وترُشَّ عليها ذلك الأبيض المبشور المسمَّى جوز الهند. كلَّما انتهتْ من فطيرةٍ، وضعتها باسمةً في سلَّة الخوص الكبيرة، المغطَّاةِ بقطعة الكَتَّان. صنعنا فطائر كثيرة، ثلاثين أو أكثر، ثم ابتدأ خَبْزُ الأرغفة. ما كدنا ننتهي، حتى تقاطرتْ علينا الجاراتُ المهنِّئاتُ، يَخُضن في أطفالهن.

ساعةَ العصرِ كانت الأفواهُ تلوكُ برضا، قطعَ الفطير اللذيذة. إحدى الجارات جاءتْ بماجور جديدٍ، مغسول، وأفرغت فيه ما كان في الزير من ماء. سكبتْ عليه عَسَل الفواكه، وقلَّبته بخشبةٍ نظيفة، وراحت تغرفُ منه أكوابًا للحاضرين. من وراء الحشد المحيط بباب البيت، جاء هيدرا السقَّا، فأفرغ مبتهجًا قِرْبته في الزير، وهو يصيح: *بركاتك يا أَمّ النور*.. علتِ الضحكاتُ، وحلَّقَتْ في سماء بيتنا بهجةٌ كانت منسيةً.

بعدما أكلوا جميعًا، وشربوا، تحلَّقوا حول هَزَّة الجالسة على عتبة الباب، وجاءوا لها بطبلةٍ كبيرةٍ وأعوادٍ دقاقٍ من البوص. هي الأمهرُ بين نسوة الكَفرِ في النَّقْرِ على الطبلة، تدقُّ عليها بأصابع يدها اليمنى، وبين أصابعها اليسرى الممسكة بالطبلة، عُودُ البوص الذي يرفُّ عند النقر به، فيرنُّ صوتُ الطبلة، وتهيِّج أصداؤه الشوقَ إلى الرقص.. الفتياتُ رقصن أولًا، وانضمت إليهنَّ الأمهاتُ تباعًا، كالمعتاد. قبيل الغروب، كان الكلُّ يرقص أو يتراقص أو يشدُّني إلى وسط الحوش، لأرقص بينهنَّ.

الرقصُ مفرحٌ.. يديرُ الرأس.. يُسْكِرُ. لو عرفه الذين يشربون الخمر ليسْكروا، لَسَكروا بالرقص بدلًا مما يشربون. سُكْرُ الرقص أحسنُ، ودواره أرقُّ دَوَار. سكرتُ مرةً من النبيذ خِفيةً، فدار رأسي حتى نمتُ، ثم انقبض بطني بعد صحوي وصدع دماغي. الرقصُ لا يصدِّع ولا يقبضُ، بل يطرح عنَّا الأحزانَ ويكسو الخدودَ حُمرةً مُشتهاة، ويمنح الراقصات مِفْتاح المرح. والأهمُّ، أنه يترك للصبايا فُسحةً لتبيان المفاتن.

لم أرقص منذ زفاف دميانة. أمها هَزَّةُ كانت تقول إنني أبدعُ الفتياتِ رقصًا، لأنني أجذب نظرها فأقودُ أصابعها لنقر الطبل، بأكثر مما تقُودُني هي للحركة. لم أفهمْ يومًا كلامها، لكنني كنتُ أسعدُ به وأفخرُ، كلَّما قالته. انهمكتُ معهنَّ ولمحتُ أمي مرَّاتٍ أثناء رقصي، فرأيتها تمسح عن عينيها الدموع بسِتْرِ رأسها. أمي تبكي حين تحزن، وحين تفرح. هل هي سعيدةٌ لزواجي، أم حزينةٌ لقُرب رحيلي عنها؟ أظنها مثلي، وحالُها مثلُ حالي أيامَ زواج دميانة.

النسوةُ جذبنها لترقص بقُربي، فتفلَّتتْ، فلاحقنها، فتمنَّعتْ، فنهرتها هَزَّةُ وزعقتْ فيها وهي تضحك: *هيَّا يا غزالة، ارْقصي اليوم لمارية*.. جاءت أمي على بساط الاستحياء، تدفعها الأذرعُ إلى قلب الدائرة، فرقصتْ بجواري وسط صخب النسوةِ والأطفال. الأطفالُ يصخبون حين تَصْخبُ الأمهاتُ، ويضحكون إذا ضحكن. اهتاجتِ الحركاتُ والضحكاتُ مع وَقْعِ الطبل والأغنيات، وراح جريد النخلةِ العاليةِ، يهزُّ الهواءَ فرحًا بي.

أمي لم أرها ترقص من قبل. ولَّيتُ وجهي نحوها لأعرف طريقتها في الرقص، فرأيتها تضحكُ متردِّدةً خَجْلي، وتهزُّ كتفيها وتقلِّب في الهواء كَفَّيها، بأكثر مما تحرِّك خَصْرها ورِدْفيها. لكنها على كل حال سعيدة. أنهتْ رقصتها بأن احتضنتني وسط هتاف النسوة، وسالتْ دموعُها من جديد، ثم انفلتتْ إلى جلستها الأولى عند باب حجرتنا.

مع مغيب الشمس أُضيئت القناديل، وامتلأ الحوش، وتحشَّر أهلُ الكَفْر حول باب البيت. أتى الرجالُ يتقاطرون من مزارع العنب وحقول القمح. المتأخِّرون منهم عودةً لا يجدون مكانًا، فيقعدون عند المصاطب التي بآخر الدرب، وحول باب بيتنا. كلَّما جاء منهم واحدٌ، ناولتْه امرأتُه فطيرةً، وكوبًا من الماء البارد المعسَّل.. بعد الغروب جاء بنيامين مُتعبًا كعادته، وحائرًا، وفَرِحًا من أجلي. جلس بجوار أمي، فأعطته فطيرةً راح يمضغ منها على مهل، وقد انهالت عليه دعوات النسوة بزواجٍ قريب. هو يصغرني بعامين أو ثلاثة.

استولى الليلُ على السماء، وتسرَّبتِ النِّسوةُ وأزواجهُنَّ والأطفالُ. كانت أُمُّ نونا آخرة الباقين. لما خلتْ بنا، شدَّتني بتدلُّلٍ يليق بامرأةٍ قصيرة، وأخذتني إلى حيث يجلس بنيامين وأمي. أجلستني فصرنا كمثل الدائرة، وقالت مُتهامسةً لأخي ونحن نسمع: *تَعلَمُ يا حبَّة القلب، يا بنيامين المسكين، أنك عندي مثل أعزِّ أبنائي.*

وسيكون زواجك قريبًا بمشيئة ربنا المسيح، وسيكون لك خيرٌ كثيرٌ إذا صحَّت زِيجةُ مارية، فقد كلَّمتُ العربَ لتعمل معهم في توزيع التجارات بنواحينا. وسيأتي خيرٌ كثيرٌ، لك ولأمك الكادحة الصابرة. العربُ أغنياءُ، وقد امتدحتُك عندهم وطلبتُ منهم أن تعمل معهم، فلم يرفضوا. فإن صحَّتِ الزيجةُ، فانتظرِ الخيرَ الكثير.

ـ سوف تصحُّ، بمشيئة الرَّبِّ وعنايةِ العذراء.

ـ *يووه يا مارية.. وماذا كنتِ تفعلين في غرفة الضيوف؟*

ـ خجلتُ، *فلم أرفع وجهي نحوهم.*

ـ *ياه، لو أخبرتني يومَها لعرَّفتُكِ. هو الطويلُ الذي كان يعلِّق في عنقه، صليبَ العظم المصبوغ. يااه يا مارية.*

امتد صمتٌ طويلٌ، مثقلٌ بسكينة الدَّرْبِ وسكونِ الهواء. السبتُ يومُ السكونِ، والاستعدادِ لصخب الأحد. رحَّلَنا الشرودُ عن بعضنا ونحن متجاورتانِ، وأخذتني الخواطرُ إلى جهاتٍ متفرقة.. بعد حينٍ من الغياب التفتُّ إلى أمِّ نونا، فرأيتُ عينيها الضيقتينِ تنظرانِ نحو بيت عمِّي بشاي، المغلقِ المهجورِ. أحضرتها من شرودها بسؤالها:

ـ *ما اسمه؟*

ـ *مَنْ؟*

ـ *خاطبي.*

ـ *آه.. اسمه سلامة، أهله ينادونه سلُومة.. سلُومة، الفيلُ أبو زَلُّومة. هئ هئ هئ.*

ـ يسمونه *الفيل!*

ـ *لا، لا. أُمازحُكِ يا مارية.*

أمُّ نونا تحبُّ المزاح، لأنها قصيرة. ابنتها نونا، لا تكف ايضا عن

المرح والممازحات. القصيراتُ من النسوة مرحاتٌ، لكن القصار من الرجال خبثاء. في الكَفْر رجالٌ قصار، وهم ماكرون بطبعهم وخبثاء كالثعالب. سألتُ أمَّ نونا عن عُمْرِ الخاطب، فقالت: أظنه في الثلاثين. وعن هيئته، فقالت: طويلٌ وجميلٌ.. سكتتْ لحظةً قبل أن تُضيف: *ولكنْ في عينه حَوَلٌ طفيفٌ.*

اقشعرَّ جلدُ ذراعي من كلامها الأخير، واشتدتِ القشعريرةُ عندما سألتها عن بلدته، هل هي بعيدة عن هنا؟ فقالت من دون أن تنظر نحوي: يوووه.

في حجرتنا، قلتُ لأمي بعد الغروب: إن خاطبي كبيرُ السِّنِّ. لم يعجبها الكلام، فعقدتْ حاجبيها وهي تؤكِّد أن الرجال لا يكبرون، مهما امتدَّ بهم العُمر، فالنساءُ يكبرن لأنهن يلدنَ ويُرضعن، فينهدُّ الحوْلُ وتسقُطُ العافية.. قلتُ: إنه أحولُ، فقالتْ: لا تنظري في عينيه.. سكتُّ لحظةً ثم صارحتُها بأنني خائفةٌ من العيش معه في الصحراء البعيدة، فقالت بحزمٍ: *ما كُلُّ هذا الدلالِ يا مارية، هل أتانا خاطبٌ غيره؟ وهل ننتظر حتى تدخلي في زمرة العوانس التعِسات؟*

آلمتني أمي، ونامت. أولتني ظهرها من فوق سريرها، وتركتني مُمدَّدةً على دِكَّتي، أتقلَّب على شوك كلامها. بقيتُ طويلًا من غير نوم، ثم قلتُ في نفسي: لعلها محقة. لا بأس. بعد شهرٍ سأكون زوجةً، وبعد عامٍ أُمًّا، وبعد سنواتٍ سيكون لي بناتٌ كثيرات، وأولادٌ.

ما معنى أن الرجالَ لا يكبرون؟ بطرسُ الجابي كبيرٌ، وبنيامين أخي صغيرٌ. صحيحٌ أن جسمه نحيلٌ، لكنه جميلٌ، وقويٌّ. حين يحمل أجولة الخزين، أو يدقُّ بالشاكوش المسامير، يشمِّر عن ذراعيه فتظهر قوة كتفيه ويلمعُ منبتُ ذراعيه، ويبدو جلد كتفه الناصع كأنه يلفُّ بداخله حزمةً من حبالٍ قوية. بنيامين قويٌّ وجميل، لأنه صغير. كنتُ أتمنى زوجًا شابًّا، مثله، أو أكبر منه بقليل. بطرسُ الجابي كبيرٌ، لكنه ليس ضعيفًا ولا قبيحًا. في وجهه حمرةٌ، من مداومة احتساء النبيذ. أخي بنيامين شاحبٌ لكنه أجمل منه، لأنه أصغر منه. كُلُّ صغيرٍ، أجملُ من كلِّ كبير. الكتكوتُ أجملُ من الديك والدجاجة، والمعزاةُ الوليدةُ أجملُ من أمها وأبيها، والشموعُ أجملُ من الشعلات. كيف يا أمي سأكلِّم زوجي، ولا أنظر إلى عينيه؟ هل أَخَّر الزمانُ زواجي، ليهبني في النهاية زوجًا أحول؟.. حَظِّي من الحياة، حقًّا، قليل.

سَحَّتْ دموعي ساخنةً، حتى بلَّلتْ مخدَّتي. بكيتُ صامتةً، فلم تشعر أُمي ببكائي. صرتُ أبكي مثلَها، خِفيةً، بلا صوت. البنتُ تصير كأُمِّها لا محالة. لما غلبني النومُ، رأيتُ أحلامًا وفيرةً، قويةً كأنها الحقيقة. تقلَّبتُ في رقدتي كثيرًا، حتى أيقظتني أمي قبل سطوع الشمس. هذا فجرُ الأحد، اليومِ الأبهجِ بين أيام الأسبوع.

بعد استحمامٍ سريعٍ بحجرة الحبوب، ألبستني أمي بهمةٍ عالية ثوبًا جديدًا، قماشه بلون السماء. راحتْ من خلفي تشدُّ جوانب

الثوب عليَّ، وتهمهم وهي تأخـذ علاماتٍ بالإبرة، ثم تخلعه عني لتخيِّط موضع العلامات. فعلتْ ذلك مرات. لم أنتبه إلى جمال لون الثوب في غَبَشِ الفجر، لكنني بعدما جدلتُ ضفيرتي وخرجتُ إلى الحوش، وقد أرسلتِ الشمسُ نُورَها، بدا لونه بديعًا. أمي ماهرةٌ في الحياكة، وهي تحفظ تفاصيل جسمي.

قبل خروجنا إلى الكنيسة، وراءنا بنيامين، مدَّت لي أمي مِرْوَدَ الكُحل، وعقدتْ بطرفِ ضفيرتي أشرطةً من حريرٍ لامع، زرقاء اللون. ثم ألقتْ حول رقبتي قطعةً من حرير الأشرطة اللامع، لأغطي بها رأسي عند دخول الكنيسة.

النسوةُ رأينني في الدرب فسعدنَ بي، وحسدنني، حتى حسدتُ نفسي من فرط سعادتي بثوبي البديع، المفصح. صدري يطلُّ جريئًا من تحت القماش الناعم اللصيق، وذيلُ الثوب يرفُّ حول قدميَّ حين أمشي، ثم يقترب من فخذيَّ على استحياءٍ، حتى يلتصق ببطني وصدري. الصدريةُ اللصيقةُ الضيقةُ، المؤطَّرةُ أطرافها بالشريط الأزرق اللامع، ترفعني في الهواء. رقبتي عاريةٌ، وجميلة، ابتهجتُ حين رأيتها في المرآة قبل خروجي. لو كان هذا الثوب بلا أكمام، لصار ألطفَ وأجمل. المكشوفُ ألطف، لأن الأجسامَ أجملُ من الأقمشة. لن أقول ذلك لأمي ولا لغيرها، لأنهم لن يفهموني.. قبل خطبتي، كانت أمي تحيكُ ملابسي واسعةً، موصدةَ الصدر تمامًا، وكبيرة الأكمام. كأنها كانت تصرُّ على صَرْف عيون أهل الكَفْر، عن

المخبوء من مفاتني. وهي اليوم تسمحُ بما كانت تمنعه، وتحيك لي ثانيَ الأثواب الضيقة الفاتنة.. لو كانت دميانةُ الآن هنا.

لما رأتني نونا، قالت والنسوةُ تسمع: *جميلةٌ وحَقِّ العذراء يا مارية، في ثوبك ميوعةٌ ودلال، محظوظٌ زوجُك العربي*.. غمرني خجلٌ لم تخفِّف منه ضحكاتُ النسوة، وقُبلاتهن التي انهالت. أمي ابتسمتْ راضيةً، ولما طلبتْ منها نونا، أن تحيك لها ثوبًا مثل ثوبي. تخلَّصت أمي من الأمر بقولها إن الأشرطة الحريرية الملونة، نفدت من عندها.. بحنقٍ طفوليٍّ طلبتْ نونا من أمها، أن تأتي لها بأشرطةٍ حريريةٍ من البلدة البيضاء، أو من أيِّ مكان. قبل أن تردَّ عليها أمُّها، قالتِ امرأةُ هيدرا السقَّا، المسحوبة من لسانها: *يا أمَّ نونا، أحضري أيضًا لابنتك بَعْضَ طولٍ، فمثلُ هذا الثوب لا يناسب القصيرات*.. انفجرتْ ضَحْكاتُ النسوة، فنظر إليهنَّ الكاهنُ شُنُوتَه شذرًا، وزمَّ شفتيه مُغاضبًا، فَهَدَأْنَ مكتفياتٍ بالابتسامات وبقايا الضحكات.

القُدَّاسُ تأخَّر، لأن القسَّ والشمامسة لم يصلوا بعدُ من الكَفْر الكبير. منذ رحل أبونا باخوم عن الكَفْر، قبل قرابة عامين، يأتينا أيامَ الآحاد قسوسٌ من الكَفْر الكبير، لإقامة القُدَّاسات، ويأتي معهم شمامسة. لم أعرف سبب رحيل أبونا باخوم عن الكَفْر، لأنني كنت حبيسة البيت وَقْتَ ارتحل، ولما استفسرتُ من الناس ومن الكاهن شُنُوتَه، لم أجد إجابة. أحزنني ذهابه عنا، لأننا كنا نحبه. كان يجمعنا ونحن أطفال قربَ بوابة الكَفْر، ويُلقي علينا عظاتٍ طيبةً، يجعلها

على لسان الطيور والحيوانات. ويروي لنا قصصًا مسليةً، عن ابتداء الخلق وسيرة الملوك الطيبين.

علَّمنا أبونا باخوم الدينَ القويم، بحكاياتٍ كان يحكيها عن عصفورةٍ وابنتها: العصفورةُ الابنةُ كانت غاضبة من أخيها العصفور المتشرِّد، فطلبتْ من أمها أن تطرده من الشجرة، فقالت لها أمها: لو طردناه فسوف يتشرَّد أكثر، وقد تأكله الحدأةُ لأنه وحيد، فنحزن. ونحن في النهاية نحبه، وبالحبِّ سوف يعرف الطريقَ القويم، يومًا ما.. العصفورةُ الأمُّ قالتْ لابنتها أيامَ الصوم، وقد رأتها حائرةً: إذا اشتهيتِ مأكولًا أو مشروبًا غيرَ صياميّ، فكُلي واشربي، لأن صومك قد فَسَدَ ولم يعد له داعٍ، فالصومُ يكون عن الاشتهاء، لا عن الأكل والشُّرب.

كنتُ أرى في أبونا باخوم، أبًا وأُمًّا وعمًّا. حين كان الكاهن شُنُوتَه ينهاه عن تعليم البنات، مع الصبيان، كان يبتسم له ولا ينصاع. أبونا باخوم لم تكن له زوجةٌ، مع أن البياضَ لحق لحيته، وكان ينام وحده في الكنيسة. كنت أحبُّه وأفرح بكلامه حين يقول إني أذكى أطفال الكَفْر، وأسرعهم تعلُّمًا. في طفولتي كنت أقول إنني حين أكبر، سأتزوج أبونا باخوم، فتضحك أمي وتقول: *الرهبانُ لا يتزوَّجون، شُنُوتَه له زوجة لأنه كاهنٌ، لا راهب*.. لم أكن أفهم هذا الكلام، وما زلتُ إلى اليوم لا أتفهَّمه. باخوم في كلامنا معناها صورة الله، وشُنُوتَه تعني الله يعيش، وتعني ابن الله.

* * *

كانتِ الآحاد أحلى أيامنا، فكلَّما بلغ أحدنا السابعة من عمره، أهداه أبونا باخوم قطعة قماش، فيصير له جلباب جديد. جلبابُ الولد جيبه إلى الداخل، وجيب جلابيب البنات يخاط من الخارج، كيلا يحجبن عن الناس ما يخفين في جيوبهنَّ.. كنا جميعًا بعد قُدَّاس الأحد، نجتمع بأول الساحة في الصباح الباكر، ونجلس على الأرض في دائرةٍ تحوطها البهجة، عند جدار الكنيسة، وقد علَّق عليه أبونا باخوم اللوحة الكبيرة السوداء، التي يكتب عليها الحروف بالطباشير وأحجار الجير. قطعُ الطبشور أوضحُ كتابةً.

كان أبونا باخوم يحب الرسم، فأَحَبَّهُ الأطفال لأنه يحبه. كان في مرَّةٍ يرسم لنا سحابًا متلاصقًا، ثلاثَ قطعٍ كبار، ويقول: إنها العالم الفسيحُ، ونواحي الأرض التي يحوطها البحرُ من كل الجهات. وفي مرَّةٍ أخرى، يرسم لنا على اللوحة السوداء ذراعًا كبيرة، بأعلاها كَفٌّ مفتوح الأصابع، ثم يقلب اللوحة فتصير الذراع بأعلى، ويقول: إنها النيلُ، نهرنا الكبير، وباطنُ الكفِّ أرضنا الخضراء الواسعة، والأصابعُ الخمسة هي أنهارٌ تفرَّعت عن النيل. تسأله دميانةُ عن موضع كفرنا، فيشير إلى طرف الإصبع الصغير من الكفِّ المقلوبة، ويقول: نحنُ في مكانٍ صغير هنا، فنضحك كلنا حتى يضحك معنا وهو يقول: حين تكبرون *قليلًا*، ستعرفون.

كبرتُ ثلاثة أعوام، من دون أن أعرف شيئًا جديدًا. حوائطُ البيت لا تعلِّم، ولا صمتُ أمي، ولا المعزاةُ المربوطة بحوش البيت.

تعلَّمنا من أبونا باخوم كيف نكتب كلامنا، وكلامَ العرب. كلامُنا أسهل كتابةً. كنا إذا عَلَتِ الشمس فوقنا، ندخل إلى الكنيسة كي نحتمي تحت سقفها، ويدخل معنا أبونا باخوم.. كنا سعداء.

أيامَ كنتُ في العاشرة من عمري، أو الحادية عشرة، أرسلتني أمي إلى الكنيسة بنصف دجاجةٍ مسلوقةٍ، ورغيفين. كان يومَ عيدٍ، ينتهي الصومُ فيه، وفيه أهلُ الكَفْر كلهم يطبخون ويخبزون، فرحين. تمنيتُ ألا أجد الكاهنَ شُنُوتَه في الكنيسة، كي أُعطي الطعام كلَّه إلى أبونا باخوم، وحده. لكنني لما اقتربتُ من باب الكنيسة، سمعتهما من ورائه يتجادلان. تسمَّعتُ ما كانا يقولان، فلم أفهم كلامهما ولكني حفظته، وقُلته لأمي في المساء، فلم تردّ عليه بشيء:

ـ يا أبونا باخوم، قلتُ لك لا يصحُّ هذا. أنت بذلك تشوِّش إيمان الناس.

ـ قد أكون مخطئًا، ولكن ما دخلُ الإيمان بالخشبة؟

ـ لا تقل خشبة، الربُّ صُلِب.. صُلِب.. يعني على صليب، صليب.

ـ اهدأ يا أبونا شُنُوتَه، اهدأ. لعلَّني مخطئ. ولكني قرأت في كتاب قديم، أن الرومان كانوا يصلبون على عمودٍ خشبي، ليس له شكل الصليب.

ـ اقرأ ما شئت، أو لا تقرأ فيكون أفضل. المهم ألا تذكر مثل هذا

الكلام للناس، وإلا سأبلغ عنك الأسقف مينا، وأنت تعرف ما سوف يفعله.

ـ بلغني أنك أبلغته.. لكن لا بأس.. وأظنُّ أن الأسقف يعرف هذا الأمر جيدًا.

ـ لكنه لا يقوله.. لا يقوله لأحد..

دخل أبو دميانة من بوابة الكَفْر، فجلستُ من فوري على عتبة باب الكنيسة. حيَّاني بلطفه المعتاد، ودقَّ بابَ الكنيسة وهو يفتحه. دخل فأعطى لهما بعضًا من العنب الذي كان يحمله، ثم خرج قاصدًا بيته. بابُ الكنيسة ظل مفتوحًا، وظللتُ جالسة بموضعي أنتظر خروج الكاهن شُنُوتَه، لأدخل بالطعام.. ساد الصمتُ بينهما، هُنيهةً، فأدركني الملل. قمتُ لأدخل إليهما بما أحمله، فسمعتُ الكاهن شنوته يقول بغيظٍ كظيم:

ـ *وهل بلغ الأسقف، أيضًا، أن بمخلاتك نسخةً من إنجيل يهوذا؟*

ـ *لحظة يا أبونا شُنُوتَه، أظنُّ أن أحدًا عند الباب..*

دخلتُ عليهما مضطربةً، فتوقَّف كلامهما، وظلا جالسيْنِ على طرفِي المصطبة. رحَّب بي أبونا باخوم وهو يُقبل نحوي مبتسمًا، ليأخذ مني ما أحمله. بينما أشاح الكاهن شُنُوتَه عني إلى ناحية المذبح، وأدار وجهه الغاضب. سأله أبونا باخوم وهو يضع الطعام

بقربه، أن يأكل معه، فانتفض واقفًا وغمغم وهو يخرج من الكنيسة منفعلًا، كعادته، بما معناه: *الأنسبُ لك بيتُك، بيتُك دَيْرُك*.. لم أكن أعرف أيامَها، ما هو الديرُ.

* * *

تأخَّر القسُّ والقُدَّاسُ، فاضطرب المنتظرون من أهل الكَفْر، وفشا القلقُ بين الرجال. أنا وأمي والنسوةُ، لم نهتم للتأخير، فقد شغلنا ثوبي الجديد، وحكاياتُ الآحاد الصباحية المعتادة، وكَتْمُ الضحكات.

الكاهنُ شُنُوتَه ظَلَّ يدور حولنا، قلقًا، حتى ظهر القسُّ والشمامسةُ وبطرسُ الجابي. لم يأتوا من ناحية الساحة. دخلوا إلى الدرب من الباب الخلفي للقصر، وأقبلوا علينا يتقدَّمهم القسُّ وبطرس الجابي، وقد انهمكا في همهماتٍ وهموم. دخل الرجالُ إلى الكنيسة خلف الكاهن شُنُوتَه، الغاضب، وبَقِيَتِ النسوةُ بقرب الباب كعادتهنَّ في القُدَّاسات.

النسوةُ يشاركن في الصلوات والأدعية واستماع العِظات، من بعيد، ولا يتقدَّمن إلى مذبح الكنيسة، ولو حتى لتنظيفه. كنيسةُ الكَفْر حجرةٌ واحدة، مساحتها مثل حَوْش بيتنا. وهي مسقوفةٌ بجريد النخل، مثل كل بيوت الكَفْر لا قبَّةَ لها، ولا بُرْجَ يعلوه ناقوس. ليس في نصفها الأول، غير مصاطب من طينٍ معجون بالقش، تمتد من عند الباب على الجانبين، حتى تصل إلى ناحية المذبح. حيث

الفاصل الخشبي الذي يقف وراءه الكاهنُ، ومن خلفه بلاطة كبيرة أخذوها قديمًا من البرابي، يسمونها المذبح. لم أشاهد شيئًا يُذبح عليها. على الحوائط صورٌ باهتة للستِّ السيدة مرتا مريم، العذراء، ولربنا يسوع المسيح ورجالٍ آخرين لا أعرفهم. السِّتُّ العذراءُ هي المرأةُ الوحيدة المرسومة في الكنيسة، والباقون رجال. على يمين الباب وعلى يساره، رسموا على الحائط مرتين، شيخًا أشيبَ يكتب في أوراقٍ، وبجواره يجلس أسدٌ. الأسدُ قِطٌّ ضخمٌ يعيش في نواحٍ بعيدة، وهو مفترسٌ.

كادتِ التصاويرُ تختفي وتزول، فما عاد أحدٌ يعيد رسمها، مثلما كان أبونا باخوم يفعل كلَّ عام. يأتي بالألوان في كيزان نحاسية، وبفُرشاتين صغيرةٍ وكبيرةٍ يمرُّ على كل لونٍ بلونه، حتى تنصع الصور من جديد. كنا نمرح حوله، وكنتُ أقول له إنني أتمنى حين أكبر، أن أرسم الجدران مثلَه. فيبتسم ولا يقول شيئًا.

بعد تلاوة الصلوات وإلقاء العِظات، وقف الكاهنُ شُنُوتَه والقسُّ عند حاجز المذبح، حسبَ المعتاد أيام الآحاد، والتفَّ حولهما الشمامسة. كان بينهم شماسٌ جديد يافعٌ، سِنُّه في مثل سِنِّي، لم يحوِّل عينيه عني. وضعوا على الطاولة العالية، نحيلة القوائم، هذين الرغيفين اللذين نسمِّيهما القُربان، وكوبَ الماء الممزوج بالنبيذ.

انتظمنا في طابور المناولة، تباعًا. أمام الكاهن نفتح أفواهنا، فيضع فيها بأصابعه ذات الأظافر الكبار، زرقاءِ الأطراف، لقمةَ

عيشٍ. ثم يمدُّ إلى أفواهنا ملعقةً، فيها مصَّةٌ من ذاك النبيذ المخفَّف.. أعاف التناول من يده لقبح أظافره، لكن أبونا باخوم قال لي قديما: إن لهذه المناولة سِرًّا خطيرًا لا تصحُّ بدونه الديانة. وكان يقول: إن هذا الخبزَ لحمُ المسيح، وذاك النبيذ دمه. كنتُ أصدِّق ما يقوله أبونا باخوم، ولكني لم أفهم يومًا هذا الكلام. أمي تقول إنها تفهمه.

الكاهنُ شُنُوتَه كان فيما سبق، يسمع اعترافات الرجال والنساء. يجلسون أمامه ويحكون خطاياهم، وهو يستمع إليهم بإنصاتٍ. ثم يتلو صلوات ويستغفر لهم، فيغفرُ الرَّبُّ خطيَّتهم. لما جاء الوباءُ قبل خمس سنين، وخطف امرأته وابنتيه، توحَّد. صار يحبس نفسه بالبيت معظمَ النهار، ويجلس طوال الليل وحدَه عند أطراف البرابي. ومع كرِّ الأيام، صار غريب الأحوال والنظرات، فصار الرجالُ وحدهم يعترفون أمامه وينظِّفون له الكنيسة، فالنسوة صرنَ يتحاشينَ الانفراد معه، ويتهرَّبْنَ من عينيه الجاحظتين المحدِّقتين دومًا إلى جهة النهود. نونا كانت تقول، وهي تغمز: إنه مسكينٌ لأن مصيبته في أهل بيته، عصفتْ بعقله.

لم أعترف للكاهن قطُّ، كنت في طفولتي أعترفُ لأمي كلَّ مساءٍ، وبعدما حبستني بالبيت لم يعد عندي ما أعترف به. قبل قرابة عامين، أوشكتُ في ليلةٍ هادئة أن أحكي لأمي، ما جرى مع الرجل الغريب. وكنتُ سأعترفُ لها بأنني أراه في أحلامي، وأحسُّ بأنفاسه حين يتولاَّني الأرقُ.. لكنني في آخر لحظةٍ أحجمتُ، وحسنًا فعلتُ.

جلستُ بين النسوة عند بوابة الكنيسة، نسمع العظة المعتادة. نظرةُ القسِّ قلقةٌ، وكلامه قليل. من دون أن يفيض، ذَكَرَ ما يقوله لنا عادةً أيامَ الآحاد، عن المصير المهول الذي ينتظر الخُطاة يوم الدينونة، وعذابهم الطويل في الآخرة. والنعيم الذي ينتظرنا نحن المؤمنين، ساكني السماء بجوار الربِّ، وحدَنا، ما دمنا الطائعين لأوامر الربِّ وأحكام رجال الدين. أما الكُفَّار أتباع الملك، يقصد سكان البلدة البيضاء، فالجحيمُ ينتظرهم في الآخرة.

رجالُ الكنيسة يكرهون أهل البلدة البيضاء، ويؤكِّدون لنا أننا أصحابُ الدين القويم والسلوك المستقيم، لأننا الفقراء البائسون، خرافُ الربِّ. أما الأغنياء ذوو الوجوه الناعمة كوجوه الخطاة، فهم أصحاب الدنيا الفانية، وأتباع خلقيدونية.. لا أعرف معنى هذه الكلمة، لكنه بالتأكيد شنيعٌ.

البلدةُ البيضاء

حين حبستني أمي بالبيت، بقيتُ أيامًا أبكي بحجرةِ الحبوب. وكلَّما هدَّدتني بالضرب، أو ضربتني كي أكفَّ، ينقلبُ بكائي نشيجًا لا أملكُ له دفعًا. أبونا باخوم زارنا أيامَها، وتوسَّط عند أمي لتُطلقني في اليوم ساعةً واحدة، لكنها اعتذرت منه بأنها تريد تزويجي، والبناتُ الطليقاتُ لا يتزوَّجن. خرج من عندنا، حزينًا. لكني بقيتُ أراه في الآحاد، حتى كانت المرة الأخيرة، التي لم أعلم يومها أنها الأخيرة. جاء نحوي بعد قدَّاس الأحد، وأعطاني صفحاتٍ قديمة من ورق البردي، مكتوبًا فيها صلواتٌ وأجبية، وطلب مني تلاوتها كاملةً كلَّ يوم. ورَحَلَ، فارتَحَلَ معه حُلْمٌ طفوليٌّ مريح، وصرتُ أصعد عصرًا على جذع النخلة المائل، وأبقى إلى قبيل الغروب على سطح البيت، وبيدي الأوراق. لم أكن أقرأ فيها كثيرًا، لأن فيها الكثير مما لا أفهمه. عرفتُ مع الأيام، أن أمي لا تعارض بقائي على سطح حجرتنا، فاعتدتُ ارتقاءَ جدار البرابي والجلوسَ هناك ساكنةً لساعات، بحيث تراني من الحوش وتناديني وقتما أرادتْ. جدارُ

البرابي ضَخمٌ، قد يصلُ عرْضُهُ إلى أربع أذرع، وفيه شقوقٌ تسهِّل التسلُّق إلى سطحه المرتفع عن سطح بيتنا، بمقدار قامةِ رجل.

البرابي واسعةٌ جدًّا، أكبر من ساحة السوق ومن البلدة البيضاء. هي ثلاث براباٍ مليئة بالآثار القديمة، وبالأعمدة الكبار، وبالأحجار. البربا الأولى هي الأقربُ إلى الجدار الذي نبت منه بيتنا، وفيها أعمدةٌ ضخام بقيتْ واقفةً على حالها الأول، لكن منبتها مدفونٌ في تراب الأرض. رءوسُ الأعمدة مرتفعةٌ جدًّا، ومليئةٌ برسومٍ ملوَّنةٍ متكررةٍ، بعضها لطيورٍ ساكنة مضمومة الأجنحة، وبعضها لامرأةٍ جميلة، ذراعاها جناحان مبسوطان، وعلى رأسها ريشة. وبعضها لرجل يسجد فيلامس بجبهته الأرض، أمام نخلة فيها بلحٌ أحمر، أو دوم.. حَوْل هذا الساجدِ نقوشٌ كثيرة.

رسومُ الأعمدة ملوَّنةٌ، وملونةٌ أيضًا رسومُ رءوسها البديعة، البعيدة. في البربا الأولى كثيرٌ من الأعمدة المتكسِّرة، وفوق رءوس الأعمدة الواقفة، بقايا الأحجار الكبار التي كانت تسقفها. كيف رفعوها إلى هناك؟ كنتُ أقول في صغري: إن الملائكة هي التي صنعت هذه البربا، فكانت دميانة تعارضني بأنها من صُنع الشياطين. قبل خطبتها بشهرين، كُنا جالستين ظُهرًا على البلاطة المحاطة بقطع الأحجار الكبار، حيث مكاننا السِّرِّي المحبَّب.. سكنتْ دميانةُ وعلاها الوجوم، ولما سألتها عن سبب سكونها، قالت إنها تريد أن تتزوج. لأن صدرها صار كبيرًا ورخوًا، ولم يعد جميلًا كما كان.

هكذا قالت. سألتني أن أكشف لها عن صدري، فرفضتُ، فبكتْ. كشفتُ لها وكشفتْ، فكان صدرُها الأسمرُ الكبير ينام على بطنها. لم يكن ناهدًا ولا جميلًا كنهديَّ. سألتني أن نخلع السراويل، حتى أريها مكمني وتريني مكمنها، فلبستُ جلبابي بسرعة وجريت هاربةً منها إلى ساحة السوق. لم أغضب من دميانة، لكني لم أعد إلى الجلوس معها هناك. لم أكن أفهمها أحيانًا، مع أنني كنتُ أحبها، وما زلتُ. أتراها تتذكَّرني الآن، أم أن ابنتيها تشغلانها عن ذكرياتنا البعيدة.

البربا الثانية هي الأبعدُ عنَّا، وهي منخفضةٌ قليلًا عن الأولى الأقربَ. وفيها غرفٌ كبارٌ، متخلخلةُ الأحجار، كثيرٌ منها متهدمٌ. أمي تقول: إن رجفةً وقعت من ألوف السنين، فتخلَّعتْ جدرانُ هذه الغرف، وتساقطتْ سقُوفُها. وهذه البربا أقل ارتفاعًا من الأولى، ولا أعمدة فيها، وفيها على جدران الغرفِ صورُ رجال يحصدون الشعير، ونسوة يرقصن ويضربن أوتار قوسٍ كبيرٍ، يشبه النول الذي كانت أمي تغزل عليه في طفولتي البعيدة. كيف كانوا يستخرجون الأصوات من خيوط النول الشبيه بالأقواس، فيرقصون عليها؟ في طفولتي كنت أحدِّق طويلًا إلى تلك الصور، فأكاد بعد حينٍ أسمع أصوات العازفات. وكنتُ أبقى مع دميانة هناك لساعاتٍ، في النهار، لأننا في الليل نخشى لسع العقارب ولدغ الحيَّات. بقينا نتردَّد بين البرابي سنين، حتى منعونا من الجلوس هناك، لأن الكاهن شُنُوتَه

ظلَّ يردِّد في الكَفْر أن البقاء في البرابي يُظلم القلوب، ويقود العقول إلى الضلال المبين.

البربا الثالثة هي الأبعدُ والأوسع، ولا جدار حولها. وهي تمتدُّ شرقًا حتى منحدر التلة، ومن هناك كُنا ندخل إلى البرابي قاصدين الكَفْر، من ناحية عروشِ العنب الممتدة حتى آخر النظر. آخر العالم. عند أطراف هذه البربا، يختلط الرملُ بالطين الذي يرفعه الفيضانُ، في بعض الأعوام، إلى حوافِّ التلة. وفي وسطها بناياتٌ مدفونة، عليها رسوماتٌ حائلة، ونقوش باهتة لا لون لها.. هذه البربا الأخيرة مثلي، لا جدار لها ولا أعمدة فيها، ومعظمها مدفون.

الجلوسُ على جدار البرابي، أنساني مع الأيام حبسي. كنتُ أصرف عني الأسى، بمراقبة الطيور التي تحطُّ فوق الأسوار وأسطح البيوت. لا أُحبُّ من طيور السماء الغراب، لأنه مُزعج الصوت قبيح المشية، وكبيرُ الحجم، وهو يخطف من أحواش البيوت كلَّ ما يستطيع حمله بمنقاره. العصافيرُ الصغارُ ألطف وأحبُّ إليَّ منه، فأما الطائرُ الأجملُ الأرقُّ، فهو الهدهد الأنيقُ البديع.. منذ وعيتُ، وجدتني أهيمُ بالهداهد.

بقيتُ، زمنًا طويلًا، أرتقي الجدار كل يومٍ وأظلُّ ساكنةً هناك لساعاتٍ، بلا حراك، ظهري إلى قصر الجابي ووجهي إلى ساحة السوق، وأمام ناظريَّ سورُ البلدة البيضاء. عن يميني تعلو الأعمدة، وعن يساري تنخفض بيوتُ الكَفْر فأرى من فوقها، الجانبَ الأبعدَ من النهر المارِّ بكفرنا.

كأن جدار البرابي، الممتدَّ من قصر الجابي إلى كنيسة الكَفْر، خطٌّ يُشير إلى البلدة البيضاء. يأخذ عيني نحو سورها العالي، الملتفِّ حول بيوتها المرتفعة بطابقين أو ثلاثة. في وسط البلدة قُبَّةُ كنيستها، الأعلى من كل البيوت. فوق القبة تمثالٌ أبيضُ للعذراء، وفوق برج الكنيسة ناقوسٌ كبيرٌ، تتردَّد دقَّاته ما بين السماء والأرض، أيامَ الآحاد والأعياد. أعيادُهم غير أعيادنا. كيف رفعوا الناقوس النحاسيَّ الكبير، إلى قمة البرج المرتفع؟ دميانةُ كانت تقول: إن البلدةَ البيضاء ابتدأ الملائكةُ بناءها، لكنهم تركوها قبل إتمامها لأن الربَّ كلَّفهم بأعمال أخرى، فظلَّتْ مهجورة إلى حين استكملها الشياطين وجاءوا بالكفار ليسكنوا فيها، وجعلوها كلَّها بيضاء، لينخدع بها الناسُ. حتى السورُ الذي يلف بيوتها، بارتفاع ثلاث قامات، أبيض باهرُ البياض في النهار، ومع الغروب يكسو بياضه احمرارٌ شفيف. ويظلُّ أشهبَ حين تمتدُّ ظلالُ المساء، ويعمُّ ظلامُ الليل، ويزداد بياضه في الأمسيات القمراء.

تمنيتُ أن أزور البلدة البيضاء، وأرى بيوتها الكبيرة. أمُّ نونا، ونونا، كانتا تصفانِ لنا عجائب البلدة وبيوتها العالية. تقولانِ: إن البيوت هناك تطلُّ على ميدانٍ واسع، أرضه يفرشها نجيلٌ، وفيها أشجارٌ ظليلة. أطفالهم يلعبون في هذا الميدان طيلة النهار، وملابسهم نظيفة طيلة الأسبوع.. نونا تقول: إن نساء البلدة البيضاء يُعطِّرنَ أجسامهن، فيبقين دومًا عطراتٍ. وأمها تقول: إنهن لا يلبسن

إلا الحرير. كيف؟ الحريرُ يشفُّ الأجسام.. سألتها عن ذلك مرةً، فأخذها اهتزازُ الضحكِ حتى دمعتْ عيناها.

أمُّ نونا تحكي دومًا عن أحوال البلدة البيضاء، وتحدِّثنا بأخبار أهلها. هم يملكون مزارع العنب الواسعة الممتدة حولنا، وعندهم أيضًا أرضٌ غيرها، فدادين كثيرة، ومواشٍ ترعى في مزارعهم، ومراكبُ تسير في هذا النهر وفي النهر الكبير. هم يدفعون للفرس مكوسًا كثيرة وضرائبَ. أمُّ نونا تعمل منذ سنوات في بيوت البلدة البيضاء، وتأكل من طعامهم. ولذلك لا يكلِّمها الكاهنُ ولا يناولها أيام الآحاد بعد القُدَّاس. لكنها لا تهتم بذلك، ولا تكترث له، لأنها غنيةٌ. عندها بقرة.

قبل حَبْسي بشهور، دُرْتُ مع دميانة حول سور البلدة البيضاء، حتى وصلنا قربَ بوابتها الكبيرة المفتوحة على جهة الشمال.. لما اقتربنا من البوابة، كالثعالب، رآنا الحراسُ وأشار أحدهم إلينا بعصاه، فأطلقنا مع الريح ساقينا، وعُدنا إلى ساحة السوق. كان الحراسُ من ورائنا ينظرون إلينا، ويضحكون.

السوقُ تُقام بالساحة يومي الإثنين والجمعة من كل أسبوع، لكنها لا تخلو من الناس في أيِّ يوم. ففي أيِّ يومٍ، نرى بعض العرب يفترشون الأرض تحت خيامهم، وأمامهم ما يبيعونه لأهل الكفور المحيطة ولخدَّام البلدة البيضاء. العربُ يختفون مع بضائعهم وجمالهم والدواب، عند غروب الشمس، ويعودون معها في

اليوم التالي ومعهم كل ما يحتاجه الناس: الملح، الأقمشة، أنواع الحبوب، توابل الطعام، ثمار الأشجار، الدواجن والغنم.

صباحَ يوميِ السوق يزدحم المكان، ويجلس بطرس الجابي مع أعوانه، عند مدخل الساحة من جهة الغيطان، في الموضع الذي نسمِّيه ماكسو، ويسميه العربُ المكْس، فيحصِّل من الناس الضرائب والمكوس. مَنْ يدخل السوق ببضاعةٍ يدفع، ومَنْ يخرج منه وقد اشترى يدفع، والدلاَّلُ يدفع، والجمَّال الذي يوصل البضائع يدفع، والذي يبيع الطعام للناس يدفع.. الأطفالُ لا يدفعون.

حين يغيب بطرسُ الجابي في رحلاته إلى الصعيد، يجلس بسنتي مكانه فيفرح الناس بذلك، لأنهم يتهرَّبون من الدفع له. لأنه تافه، وهم لا يخشونه مثلما يخشون خاله. الذين يزرعون، يدفعون لبطرس الجابي الضرائب عند جني المحاصيل. والذين عندهم بقرٌ أو خرافٌ، يدفعون حين تلدُ وحين يبيعون، والذين يصطادون السمكَ من النهر بالمراكب، يدفعون. الجميعُ يدفع. ومن يتهرَّب يُحبس في غرفة الفئران التي بقصر الجابي، حتى يأتيه حراسٌ يأخذونه مقيدًا إلى جُند الفرس. فيعذبونه في قصرٍ كبيرٍ لهم عند وادي الكاهيرا الفسيح، اسمه حِصْن بابيلون.. البابيلون في كلامنا تعني الفرس أصحاب الأفيال، الذين انتزعوا البلاد من يد هرقل قبل سنوات. وحصنهم، بلدةٌ كبيرة واسعة، يسميها العرب: باب إليون.

الفرسُ يأخذون من الناس ضرائب كثيرة، لكن أمي لا تدفع الضرائب لأننا فقراء. ولم يكن عَمِّي بشاي يدفع، لأنه كان ينظف بيت بطرس الجابي ويعتني بأشجاره. وكان ينقل على ظهره الأجولة، ويجلس مع أعوان الجابي يومي السوق.

في الصباح الذي صاح فيه هيدرا السقَّا، بأن عَمِّي بشاي قُتِل في ترعة الثعبان، علا العويلُ والصراخُ، وخرجتْ أمي وبعض النسوة إلى حافة النهر، وأخذن يرفعن الطين فوق رءوسهن. فزعتُ مما رأيتُ. ولم أجد حِضن أمي، فجريتُ وحدي حتى جزتُ الساحة، وأسرعتُ تحت عروش العنب نحو الجهة التي تأتي منها الشمس، وكأنني سأجد عَمِّي بشاي ينتظرني هناك. كنتُ في حدود السابعة أو الثامنة من عمري، وكنت أحبُّ عَمِّي بشاي كأنه أبي، وكان يحبني جدًّا. صيحةُ السقَّا أفزعتْ عقلي الصغير، وأذهبته. جريتُ يومها حتى تخطيتُ عروش العنب كلها، ووصلت إلى أرضٍ واسعةٍ مزروعةٍ شعيرًا، فيها بيوتٌ متباعدة. لم أقف. رحتُ أجرى حتى ارتفعت بي الأرض، فوصلتُ إلى موضعٍ رمليٍّ عند تلَّةٍ مرتفعة، مليئةٍ بسيقان الحلفا. وقفتُ فجأةً، وقد صدمني اتساعُ الصحراء الفسيحة التي امتدت فجأةً أمامي. لا شيء فيها، إلا رملٌ يحيطه رملٌ. ظننتُ لحظتها أنني وصلتُ إلى آخر العالم، فوقفتُ مبهوتةً حَيْرى.

في غمرة دهشتي أمعنتُ النظر، فلاحتْ لي في قلب الصحراء

خيامٌ بعيدةٌ، بدت لي مثل بقايا الأحلام. كانتِ الشمس واقفة فوقي، وضوءُ الرمل في الصحراء باهر، وأنا صغيرةٌ. سقطتُ على الأرض، وحين أفقتُ وجدتُني على سرير أمي. قيل لي بعدها إن ناسًا من الكفور الشرقية، كانوا قد رأوني أجرى مذهولةً، فتبعوني بنظرهم حتى بلغت حافة الصحراء. فلما سقطتُ بين سيقان الحلفا، أشفقوا عليَّ من نهش الثعابين، فحملوني من هناك.. قيل لي بعدها، إنني بقيتُ يومًا غائبةً عن وعيي، وأيامًا غائبةً عما يجرى حولي من أحوال العزاء.

كان عَمِّي بشاي يحملني على كتفه، فأقف عليه لألتقط من النخلة بلحات، أو أسحب من فوق السطح أعوادًا يابسة لإيقاد الفرن. وكان يأتيني دومًا بفواكه حلوة، ويصطاد معنا السمك من حوافِّ النهر أيامَ الفيضان، ويضاحكنا. عَمِّي بشاي أحبَّ الأطفال، فأحبوه. كان يعمل بالمعصرة الكبيرة التي بالبلدة البيضاء، وأحيانًا يحضر لي من هناك حلوى. أحب الحلوى أكثر من أيِّ شيء. نونا تقول: إن الناس في البلدة البيضاء يأكلون الحلوى كلَّ يوم، ولا يأكلون في المساء ما يأكلونه في الصباح، وعندهم فواكه لا نعرفها، ونساؤهم يلبسن الحلي الذهبية طيلة النهار.

قبل مقتل عَمِّي بشاي، بشهور، جاء جندٌ يركبون الخيل ويسوقون أمامهم جماعةً بائسةً من الفلاحين. أمروهم فكنسوا الساحة كلها، حتى أخلوها من كل بقايا السوق، ورشوها بالماء مرتين حتى سكن

ترابها. في صباح اليوم التالي رشوها بالماء ثانيةً، ووضعوا فيها كراسي كثيرة، مذهَّبة، أمامها دِكَّاتٌ طوال. ساعة العصر امتلأتِ الساحةُ بأهل البلدة البيضاء، وبأهل بلدات أخرى بيضاء. جاءوا جميعًا إلى ساحة السوق، لأن رئيس كنيستهم جاء يزور نواحينا، ويقيم قُدَّاسًا يبارك به الناسَ ويطلب لهم من الربِّ الرحمة. كان اسم رئيسهم، حَنَّا الرَّحُوم.

رنَّموا يومَها بكلام غير معهود لنا، وبأنغامٍ هادئة بديعة. ثم وزَّعوا على أهل الكفور أجولةَ قمحٍ وزكائبَ شعير، وحلوى متنوعة الطعوم والأشكال. أخذتُ من حلواهم أنا ودميانة، وأكلناها في البرابي. أحسُّ حلاوتها أحيانًا في فمي، إلى اليوم. بعد القُدَّاس، اقتربتُ وسط الناس إلى ناحية حَنَّا الرَّحُوم، حتى وقفتُ أمامه مشدوهةً، فابتسم لي وهزَّ الصليب الرقيق الذي بيده. كان أبيضَ الوجه والثوب كالملائكة، فظننته يومَها ربَّنا يسوع المسيح. قلتُ ذلك ليلتَها لأمي، فضحكتْ، وأفهمتني أن لأهل البلدة البيضاء دينًا، ونحن لنا دين. ولهم رئيسٌ للدين اسمه البابا، ولنا بابا غيره.. لم أفهم كلامها، فسألتها: البابا هنا والبابا هناك.. آباءٌ كثيرون، فأين الأمهات؟ ضحكتْ من كلامي وهي تقول: *كفاكِ أسئلةً يا مارية.*

كنتُ في تلك الأيام صغيرة. لكنني أذكرُ جيدًا هذا القُدَّاسَ وتلك الترانيم، وأذكرُ جند هرقل الذين أحاطوا الساحة، وأذكرُ موائد الطعام العامرة ساعة العصر، والشموعَ والبخور والتراتيلَ التي تردَّدَ صداها

في الأجواء ساعة المساء. وأذكرُ أن الكاهن شُنُوتَه كان غاضبًا، فلم يخرج يومَها من بوابة الدرب. جلس عند باب كنيستنا يطرد الأطفال إلى بيوتهم، وينهاهم عن الخروج إلى الساحة. وكان يحذِّر الكبار من حضور القُدَّاس، ويخوِّفهم بعباراتٍ من الإنجيل كيلا يحضروا عيد الكُفَّار، وكيلا يأكلوا من طعامهم. كان يقول: إنها أيامُ صوم، وإن زيارتهم والأكل معهم، خطيةٌ لن يغفرها ربُّنا يسوع المسيح.

البعضُ من أهل الكَفْر أطاع الكاهن، والبعض الآخر خرج إلى الساحة غيرَ عابئ، وأكلَ، وأخذ من الكُفَّار الهدايا التي كانوا يوزِّعون. عند خروجنا ردَّنا الكاهنُ شُنُوتَه عن البوابة، أنا ودميانة، فعدنا إلى حوش بيتنا وتسلَّقنا النخلة المائلة إلى سطح حجرتنا وارتقينا جدار البرابي، ثم نزلنا من الجهة الأخرى، وخرجنا إلى ساحة السوق من ناحية البرابي. كان الباب الذي بآخر حوش بيتنا موصدًا. رأينا بالساحة كثيرًا من أطفال الكَفْرِ، ومن الكبار.. لم يعد بعدها حنَّا الرحوم إلى نواحينا، وعادت ساحة السوق إلى ما كانت عليه قبل زيارته الوحيدة. بعد شهور، سألتُ زوجة الكاهن شُنُوتَه إن كان البابا الرَّحوم سيأتي ثانيةً؟ فسألتْ زوجها، فلم يُجب. بعد أيامٍ سألتُه مرتين، فلم يُجب. ولما ألححتُ عليه في السؤال، لحبي في الحلوى، زعق في وجهي: *اسكتي، لن يأتي حَنَّا أبدًا، فقد مات وانتهى*.. ما لي أذكرُ الآن، هذه الأيامَ البعيدة؟

* * *

انشغل الناسُ بالقدَّاسِ والمناولة، عن ثوبي الجديد وعني. كنتُ أولَ مَنْ خرج من الكنيسة إلى الدرب، وبعدي خرجتِ النسوةُ وخلفهنَّ الأطفالُ، ثم خرج الكاهنُ والقسُّ والشمامسةُ خلف بطرس الجابي إلى الساحة، قاصدين موضعًا لا نعرفه، ودخل رجال الكَفْر إلى الدرب قاصدين بيوتهم التي نعرفها.

دعانا أبو دميانة إلى بيته للغداء عنده، فتمنَّعتْ أمي، فأصرَّ وأكَّد أن امرأته تنتظرنا. هو لا يدعوها هَزَّة، ولا يقول لها يا أمَّ دميانة، بل يناديها بأمِّ بشاتي. لأنه ابنهما الكبير. تمنيتُ لو ترفض أمي دعوته، ففي بيته قططٌ ثلاث، وأنا أخاف من القطط وأفزعُ إذا رأيتها، وأنتفضُ. أمي تقول: إن قطةً بريةً دخلت بيتنا من ناحية البرابي، وعمري آنذاك عامان، وكادت تلتهمني لولا انتبه عمي بشاي، وضربَ رأسَها بحجر كبير، فصرخت كالنمور وهربت. أنا لا أذكر ذلك لكني أصدقه، ولا أستطيع دفع فزعي من القطط.. أمي وافقتْ على الدعوة، بعد تردُّدٍ، فدخلنا بيت دميانة الذي بمنتصف الدرب، واستقبلتنا هزَّةُ هناك مهلِّلةً لقدومنا ومرحِّبة.. وأنا أتلفَّتُ كيلا تفاجئني القططُ.

جلسنا قبل الغداء ساعةً نحكي الكلام المعاد، ونتضاحك بأقل من المعتاد. لأن كلامهم كان يدور حول الفرس والروم وحربهما التي لا تنتهي، والغلاء الذي عَمَّ البلاد حتى صار رطل اللحم بربع دراخمة. هكذا قالوا. لا يشتري الناسُ اللحم إلا نادرًا، ففي كل البيوت طيورٌ تُذبح أيامَ الأعياد، فيأكلها الناس مستمتعين. لا آكُلُ الطيور التي

نربيِّها، مهما أكون جائعة، ولا أحتمل رؤية ذبحها. قد آكلُ في الأعياد أطرافَ الدواجن التي لم أعرفها، ولم أرها تكبر أمامي.

انهمكوا كلُّهم في الكلام، فشردتُ عنهم بخاطري، كعادتي حين يعلو حولي الصخبُ. ولما اصطفَّتْ على الأرض الأطباقُ، نسي الجميعُ الفرسَ والروم، وانهالت أذرعتهم على قطع الباذنجان المطيَّب بالخلِّ والثوم والتوابل، وعلى أطباق الفول المجروش الطافية فوقها صفحةٌ من زيت الزيتون.. جذبت رائحةُ الطعام القطط، فانتفضتُ واقفةً فوق الدِّكَّة، وهم يضحكون مني. طردوا القطتين، فعادت معهما الثالثة، فبقيتُ فوق الدكة، وأكلتُ فوقها خائفةً.

بيتُ دميانة فيه حَوْشٌ صغيرٌ كأنه حجرةٌ واسعةٌ غير مسقوفة، تفتح عليه أربعُ حجراتٍ ينام فيها أهلُ البيت الكثيرون: أبو دميانة وأمها، وأبناؤهما الثلاثة وزوجاتهم، وابنتهم السمينة الحزينة دومًا، لأنها سوداء وأرملةٌ. لن تتزوَّج أبدًا، لأنها أمُّ أطفالٍ كثيرين. هي بكريةُ أمها، وسمينةٌ مثلها. عُنقها طويلٌ مثل أبيها، وأنفها كبيرٌ مفتوح مثل منخر فرس النهر، وبشرتها مطفأةُ اللون. إخوتها الذكور أجمل منها، لكنها طيبةٌ أكثر منهم. كانت دميانةُ أجملهم جميعًا، وأظنها ما زالتْ إلى اليوم جميلة.. أبو دميانة يعمل أحيانًا نجارًا، وأحيانًا في مزارع العنب، وأحيانًا في المطحنة، وأحيانًا يبقى مع أولاده الثلاثة بلا عمل.

بطرسُ الجابي

مضت عشرةُ أيام على خطبتي، عادت بعدها الساعاتُ رتيبةً مُملَّةً. أهل الكَفْر هنَّأوني ساعتين، واحتفلوا بي ليلةً ثم نسوني. شغلتهم عني الشواغلُ. فأوانُ فيضان النهر قد حان، ولا بُدَّ لهم من حماية أطراف كفرنا بزكائب الرمال. فلا أَحَدَ يعرف، الحدَّ الذي سيرتفع إليه الماء. السنة الماضية لم يرتفع الماءُ كثيرًا، فحدث غلاء، لكن ارتفاع النهر يختلف من عامٍ إلى آخر.

النهرُ المارُّ بحواف الكَفْر، يمدُّه من خلفه نهرٌ آخر. نَهْرنا فرعٌ منه، وهو فرعٌ من النهر الكبير، الذي يأتي من بلاد الصعيد. اسمه يارو، وأهلُ البلدة البيضاء يسمونه نيلوس، ويسميه العربُ النيل. للنهر الكبير ثلاثةُ أسماء، مثل كل شيءٍ كبير. يحكون كثيرًا عن فيضانه الغامر، الذي يُغرق بلاد الصعيد في بعض السنين. لم أشاهد ما يجرى هناك، ولن أُشاهد فيضان نهرنا هذه السنة. سأكون قد رحلتُ مع زوجي، الذي لم أعرفه.

عرفتُ أيام الفيضان أشياءَ كثيرة.. أيامَ كنتُ في حدود الحادية عشرة، ارتفع الماءُ حتى بلغ حوافَّ ساحة السوق، وغمر الطُّرق ومزارع العنب الممتدة من خلف البرابي. كان الناس طيلة الصيف، يأتون إلى الكَفْر ويذهبون منه، من ناحية البلدة البيضاء. كان ذلك في السنة التي فيها تنيـَّح حنَّا الكرَّام، أي استراح من الحياة وذهب عند ربنا. في ذاك العام ظَلَّ قاعُ النهر ينـزُّ الماء كلَّ مساء، فنراه في الصباح وقد ازداد علوُّه وامتداده. حتى خشي أهلُ الكَفْر، الغرقَ التام وانهدامَ بيوتِ الكَفْر. قصرُ الجابي والبرابي والبلدةُ البيضاء، أكثرُ من كَفْرنا ارتفاعًا ولا يمكن أن يصل إليها الماءُ، مهما زاد فيضان النهر وعلا.

كنتُ أيامَها أخرج مع الأطفال لنصيد الزقازيق، وأسماكًا أخرى سوداء تُشبه الثعابين، اسمها القراميط. وفي صبيحةٍ مبكرة، كنتُ جالسة وظهري إلى بيوت الكَفْر، أنظر إلى الأشجار الراسخة في الأرض الوطيئة المسمَّاة طَرْح النهر، وهبة النهر، وقد غمرت المياه أصولها ومبتداها. شعرتُ فجأةً بأنني أبولُ بغير إرادةٍ، فمددتُ بيدِ الخوفِ أطرافَ أصابعي اليمنى، ودستُها داخل سروالي. لم يكن حولي أحدٌ. بارتجافٍ مسستُ بأناملي مكمني، فوجدتُ معدني مبتلًا. خفق قلبي بشدة وسحبتُ يدي، فرأيتُ بعينيَّ المفزوعتين دمًا.

جريتُ مرعوبةً إلى حضن أمي، وأخبرتها بأن شيئًا عضَّني

في مكمني، فأَدْماني من دون أن أحسَّ به. عقدتْ أمي حاجبيها، وأخذتني من يدي فنـزعتْ عني في غرفة الحبوب سروالي، فكان ملطخًا بدمٍ غريب. باضطرابٍ وقلقٍ ووجهٍ قد شحب، نظرتْ أُمي في معدني وأنا جالسةٌ على زكيبةٍ كبيرة، وهي على الأرض. رفعتْ نحوي وجهها المصفرَّ، وسألتني أين كنتُ، وهل كان أحدٌ معي؟ تنهَّدتْ بارتياحٍ حين أخبرتها بأنني كنتُ وحدي عند حافة النهر، أنتظرُ مجيء الأطفال لنصطاد الأسماك بسلال الخوص الكبيرة.

أعطتني أمي خرقًا ناعمة لأضعها في مكمني، تحت السروال، حتى ينقطع نَزُّ الدم بعد أيام. هكذا قالت. وقد انقطع فعلًا بعد أسبوعٍ عانيتُ فيه الرعبَ وهلاوسَ الأحلام وآلامَ الظهر. بقيتُ بعدها بشهرين، أعتقدُ بأن باطني سوف يفيضُ دمًا كلَّ عام، مع فيضان النهر. لكن الماء انحسر ثانيةً إلى باطن النهر، وفاض مكمني بالدم من جديد. فعرفتُ أن نهرنا يفيضُ كُلَّ سنةٍ، وباطني فيضانُهُ كُلَّ شهر.

مضتْ على ذلك سنواتٌ بعيدة، واعتدتُ الأمر، حتى كدتُ أنسى المرة الأولى. سوف يبتلُّ معدني بدمي الشهريِّ، بعد أسبوعٍ أو أقلَّ. آلامُ ظهري وحسابُ الأيام يُخبران بذلك. حسنًا، سينقطعُ الدم قبل زواجي بأيامٍ قليلة، فتكون رحلتي مع زوجي إلى بلدته، آمنةً. لن أحتاج في الطريق إلى حشو سروالي بخِرَقِ القماش، ولن أعاني الألم الشهريَّ فيضيق بي زوجي.. زوجي أحولُ، وكبيرٌ

بسنواته الثلاثين، ولكن لا بأس، فأنا لم أعد صغيرةً ولستُ قصيرةً مثل نونا. لو كنتُ قد ميَّزته من بين الخاطبين، أو سألتُ يومَها أيَّهم كان، لصرتُ الآن أعرفُ صورته وأتصوَّر طباعه، وأتخيَّل ما سوف يفعله معي.

أيامَ زواج دميانة، كانت أمها تقول لها ثم تُخبرني هي، إن مظهر الزوج ليس مُهمًّا، ولا هيئته. فالمهمُّ في الرجل، أن يكون غنيًّا وطيبًا ولا يضرب زوجته.. لكن ذلك لا يكفيني، فقد تمنيتُ دومًا أن يكون زوجي طويلًا، جميلًا واسع العينين مثل الرجل الغريب.

* * *

قبل يومين من حَبْسي بالبيت، التقيتُ صُدفةً بالرجل الغريب. كنتُ في الخامسة عشرة، وكان الصيفُ قد ترحَّل مع ماءِ الفيضان، وقَلَّ الناموسُ والذباب، وكثرتِ الأعمالُ في الغيطان وحركةُ الناس في ساحة السوق.

يومَها، كنتُ عائدةً من السوق إلى البيت عصرًا، من ناحية البرابي. لمحته من بعيدٍ عن يميني، جالسًا في البربا الوسطى على البلاطة الواسعة ذات النقوش، المحاطة من جوانبها بقطع الأحجار الكبار. لم أتبين في أول الأمر ملامحه، ولم أَخَفْ منه، لكني استغربتُ وجوده في هذا المكان وقد اقترب الغروب.

كان يجلس متربِّعًا، وغطاء رأسه ينسدل على جانبي وجهه،

فظننته من بعيدٍ امرأة. لما اقتربتُ وتبيَّن لي أنه رجلٌ، قلتُ: قد يكون واحدًا من سكان البلدة البيضاء. ولما اقتربت أكثر ورأيت ملابسه، قلتُ: لعله واحدٌ من التجار العرب، لم يجد موضعًا ليبيت فيه فآوى إلى هذا المكان ليقضي ليلته. العربُ لا يخافون النوم في العراء، ولا يكترثون مثلنا للثعالب ولا للذئاب، لأنهم دومًا يحملون سيوفًا وحرابًا يدفعون بها الأخطار عنهم.

كان لا بدَّ لي من المرور بقربه، كيلا أعود ثانيةً إلى ساحة السوق، فأدخل كفرنا من بوابة الدرب ثم أقطع الدرب حتى نهايته. هذا الطريق طويل. وبيتنا من البربا الوسطى قريبٌ، وليس ثمة ما يخيف أو يدعوني إلى الرجوع.. استكملتُ سيري غيرَ عابئةٍ بالغريب الجالس، وغيرَ ناظرةٍ نحوه. تباعدتُ عنه قَدْرَ ما استطعت، لكنني في المكان الأقرب منه، التفتُّ إليه بغير قصدٍ. كان سِتْرُ رأسه قد انسدل على كتفه، فبدا شعره الأسود اللامع، ولحيته الخفيفة. وبدت عيناه الواسعتان، وابتسامته.

ناداني إليه بإشارةٍ من يده، فظننته يريد سؤالي عن أيِّ أمر، أو أنه جاء للقاء بطرس الجابي أو أحد رجال الكَفْر. الجابي يشارك العربَ في التجارات، وله بهم معرفةٌ وصِلات، ورجالُ الكَفْر يخالطون العرب ويشترون منهم، ويتبادلون.

بتردُّدٍ، جئتُ إليه حتى وقفتُ أمامه بعينين تحدِّقان، وبشغفٍ بالاكتشاف. اتسعت ابتسامة شفتيه الدقيقتين، وغاصت نظرته

في قلب عينيَّ. أسنانه شديدةُ البياض مثل معظم العرب، ووجهه نحيلٌ مثلهم، تعلوه حمرةُ الصحراء التي تلفح في النهار الوجوه. لم يتحدَّث من فوره، فداخَلَني وَجَلٌ ورغبتانِ متعارضتان: أن أفرَّ من أمامه، وأن أقرَّ قليلًا لأعرف عنه المزيد.

سألته بكلامنا عما يريد، فسألني بكلامهم عن اسمي. أجبته، فجاوبني بالمزيد من التبسُّم والتحديق إلى باطني. عيناه سوداوان حالكتانِ، وجميلتان. كدتُ أبتسم له، لولا أنه دعاني للجلوس بلمسةٍ خفيفة من باطن يده اليمنى، على ظاهر كَفِّي. سَرَتْ في ذراعي رجفةٌ مفاجئة، ومَسَّ صدري الخدَرُ. جلستُ بجانبه صامتةً من دون أن أنظر إليه، وقد ارتبكتُ وفقدتُ القُدرةَ على الكلام، والهِمَّةَ إلى الانصراف. بيتُنا على كل حالٍ قريب، وسوف تسمعني أمي إذا صرختُ. إن دعاني داعٍ للصراخ.

ـ أنتِ جميلةٌ..

قال ذلك بكلام العرب، بصوتٍ خفيض، فابتسمتُ. نظرتُ في وجهه، وقد هممتُ بسؤاله ثانيةً عما يريد، لكن أطراف أصابعه مسَّتْ ظاهر يدي اليسرى، فسكتُّ. كانت أصداءُ أصواتِ الراحلين عن ساحة السوق، وزعيقُ الأطفال الصاخبين في درب الكَفْر؛ تأتيني من بعيد فتزيد من طَمْأنتي ورغبتي في البقاء، ولو قليلًا.

ـ عيناكِ جميلتان، كُلُّ ما فيكِ جميل.

قال ذلك بلسانه وعينيه وابتسامته. كلامه حلوٌ، وعيناه، وابتسامته رقيقة. نظرتُ نحوه، واحترتُ فيما أقول. لن أقول شيئًا، سأبقى لحظةً بقربه، ثم أُطلق ساقي فأصل آمنةً إلى بيتنا القريب.. وضع كَفَّه على كتفي اليمنى، كأنه يزيل عني خجل الطفولة، فسكنتُ. وجذبني برفقٍ نحو صدره حتى مسستُه، فارتجفتُ. ولما ألصقَ كتفي اليسرى بإبطه، تسَمَّرتْ ساقاي عن النهوض، وغاصتْ في باطني الرجفةُ. أبعدتني عنه الحيرةُ، وأخذني إليه الشغفُ. رحتُ أصدُّ، وراح يشدُّ.

ـ *تعالي إلى حِضني.*

لم أردّ، ولم أردَّ راحتَه التي هبطت من فوق كتفي، فمرَّتْ على ظهري، فأوقدتْ بجسمي الجمرات. تعاليتُ به، وعلوتُ، وأخذني الدوارُ. العربيُّ الغريبُ أدرك أني أُوشك على الغياب، فاحتضنني ومَرَّ ثانيةً على نيران ظهري براحته، فارتحتُ. أحببتُ رائحته، ورائحةَ الأحجار المحيطة.

مَدَّ أصابعه فأزاح عن شعري سِتْره، فانهمر. أغمضتُ عينيَّ حين لمس براحة كَفِّه اليسرى، خَدِّيَ الأيمن. وحين أخذ وجهي إليه، اشتعلتُ شوقًا وتحرُّقًا. لما مَسَّتْ شفته شفتي، غامتِ الأنحاءُ من حولي. أغمض عينيه، وراح بعمق يتنفَّس الهواءَ الذي كان بصدري، فغمرتني موجاتُ دفءٍ غريب. لما أمالني للخلف، ملتُ ومالتِ النخلاتُ وترنَّحتِ الأعمدةُ الضخام. ولما اعتلاني علوتُ عن

البرابي، وطوَّفتُ هائمةً في أنحاء غامضةٍ بعيدة. لا أدري كيف تعرَّى وعرَّاني، غير أنني خامرتُ ما يشبه الإغماء، حين لفحتْ أنفاسُه الحرَّى نهديَّ. أخذني الدوارُ، وغبتُ عني، فتركتُ نفسي له. كان أوان فيضاني. مدَّدَني على البلاطة وفَرَدَ بذراعيه ذراعيَّ، ثم امتد فوقي كأنه الأُفق المحيط. ملكني فانسلبتُ، وأحاطني فما احتطتُ. نفذتْ فيَّ رائحةُ الأحجار، ورائحته، ونفذ بمكمني غيرَ عابئ بدم معدني. بين ارتجافاتي في حضنه فتحتُ عينيَّ المسبلتين، فرأيتُ عينيه تغوصان فيَّ، من فوقي، ومن خلفه بدت أطرافُ النخلات ورءوس الأعمدة، بعيدةً جدًّا. كان وحده القريب، اللصيق. لن يمرَّ الآن أحدٌ من هنا. مَرَّ ذلك بخاطري، فغمرتني رغبةٌ تدعوني للذوبان التام والتوحُّد معه، ومع الأحجار المحيطة، ومع حدود الكون.. وأدركتُ أن ما يفعله بي، لي، لا له.

* * *

مضى على لقائي بالرجل الغريب، ثلاثُ سنواتٍ مرَّت كأنها ثلاثون. لم أعرف اسمه ولا سألته عنه، ويا ليتني فعلتُ. ما زلتُ إلى اليوم أحلُم به كثيرًا، وكثيرًا ما أستحضره إلى حضني حينما أحكُّ بإصبعي معدني، كيلا يصدأ. أفعلُ ذلك في معظم الليالي، من تحت غطائي، بعدما تنام أمي وينتظم صوتُ أنفاسها. أُولي وجهي لجدار البرابي، وأمتلئ برائحة الأحجار القديمة، وبذكرى اللقاء الوحيد، وأستخرجه من داخلي إلى داخلي.. أتُراه عاد إلى البرابي

وانتظرني هناك، وأنا حبيسةٌ هنا؟ وهل سأل عني فعرف المزيد، أم تراه انتظر طويلًا، ثم انصرف وصرف عني خاطرَه ومسعاه، لَمَّا لم يجد ما يريد. أردتُ أيامها أن أستخبر عنه، علَّني أجد له ذِكْرًا أو أعرف اسمه، لكنني خِفتُ من السؤال ومن الكلام فيما جرى بيننا. الكلامُ هو المخيف. لو كان عُرس دميانةَ قد تأخر أيامًا معدودات، لحكيت لها ما جرى وسألتها أن تستجلب من ساحة السوق، خبرًا عنه. مضى الآن زمانٌ طويل. لعل اسمه مثل اسم زوجي، سلامة، ولعلهما شبيهان. لا بُدَّ أن تجمع بينهما الملامحُ، فالعربُ في ملامحهم يتشابهون، وهم دومًا يشتبهون عليَّ من بعيد. حتى ملابسُهم وأغطية رءوسهم، متشابهةٌ فيما بينهم إلى حَدٍّ بعيد.. إلى أيِّ حَدٍّ تبعد عن هنا بلدةُ زوجي سلامة، سلومة.. عرفتُ اسمه ولم أعرفه، وعرفتُ الرجل الغريب ولم أعرف له اسمًا.

* * *

انتهوا من غدائهم الصاخب، بعدما انتهيتُ من غدائي الخائف، وبقيتُ متحصِّنةً من القطط فوق الدِّكَّة. أشرتُ إلى أمي، فقامت من بينهم معتذرةً بأن أمامها الكثير لتفعله في البيت. طردوا من طريقي القطط، فخرجتُ أمام أمي إلى الدرب، كالهاربة. عدنا فعرَّشتْ أمي وسط الأقمشة على سريرها، وراحت بأناةٍ تحيك، حتى نمتُ في أول المساء وهي صاحية على ضوء الفتيل النحيل والإبرة الدقيقة. كيف كانت تُدخل الخيطَ فيها، أثناء نومي؟

صحوتُ مبكرةً صباح اليوم، الاثنين، فوجدتُ أمي قد أنهت حياكة ثوبين جديدين لا مثيل لجمالهما. هي صبورة حقًّا، وماهرة. الثوبان، يبدو الواحدُ منهما كأنه قطعتان، مع أنه قطعةٌ واحدة لها شكل العباءة. الثوب الأول قماشه ناعمٌ كالحرير، ولونه أصفر برَّاق كالدنانير الجديدة، ولون الآخر رُمَّانيٌّ دافئ. إذا وُضع ثوبٌ منهما على السرير، بدا كمُلاءةٍ مربعةٍ تحدُّها من أطرافها، أشرطةٌ ملونة عرضها بقَدْر إصبعين. وحين ألبسه، تتهدَّل أطرافه من تحت إبطيَّ، وتبدو إذا بسطتُ ذراعيَّ، مثل جناحين. كلا الثوبين واسعٌ من عند ساقي، ومن عند صدري ضيقٌ يمسك نهديَّ بإحكامٍ، ويمرُّ من تحتهما بشريطٍ ملونٍ، ثم ينساب من بطني إلى قدمي واسعًا، فيرفُّ ذيله وأطرافُ أكمامه إذا مشيتُ. في أسفل كل ثوب، بطول شبرين، خاطت أمي القماش الرُّماني اللون تحت الأصفر، والأصفر تحت الرُّمَّاني، فتدليا واسعين بكشكشةٍ تنـزل من تحت ركبتيَّ إلى قدميَّ، فيظهر القماش المبطن للعباءة، عند صدري، مثلما يظهر من الذيل. فكأنني ألبس ثوبًا آخر، تحت كل عباءة.

من قماش الوصلة التحتانية، بكل ثوب، أخذتْ أمي قطعةً خاطتها مُكشكشةً بإبرة التنجيد القوية، في حذاءٍ خشبيٍّ النعلِ جلديٍّ الوجه. فصار وجهُ النعل مغطى بالقماش المزَيَّن من وسطه، بالشريط الملون الذي يؤطِّر أطراف الثوب.

الثوبان يكشفان عن عنقي، وتكاد فتحة صدرهما تكشف

انضمامة نهديَّ، لولا أن تلك الأشرطة المؤطِّرة التي بعرض إصبعين، يغطي مثلثُها المقلوبُ أعالي نهديَّ.. عندي الآن أربعة أثواب جديدة، مفرحة، تصيِّر الفتاة امرأةً.

لكن الأثواب لا تجعل الفتاة امرأةً، الرجلُ هو الذي يفعل ذلك. وذلك اقترب وقته. سوف تكون بداخلي امرأتان تتقلَّبان، إحداهما مثل أمي وديعةٌ كالحمامة، وطيِّعةٌ. والأخرى مثلُ دميانة فوَّاحةٌ كالزهور، وفاتنة. كانت دميانة تحدِّق طويلًا إلى عينيَّ، ثم تبتسم وهي تقول إن عيني هذه غير تلك، ففي العين اليمنى طِيبةٌ وعفاف، وفي اليسرى ميوعةٌ واشتهاء. ذلك ما كانت تقول، فلا أجاوبها إلا بالضحكات.. بعد زواجها وتوحُّدي، حدَّقتُ مراتٍ إلى المرآة، فرأيتُ المرأتين المختبئتينِ بداخلي. ورأيتُ بينهما امرأةً صاخبةً كالأطفال، تودُّ لو تجرى تحت عناقيد العنب عاريةً، مرسلةَ الشَّعْر، بريئةً من كل الهموم.. بداخلي نساءٌ كثيرات.

* * *

أوانَ العصر دقَّتِ الحبشيةُ بابنا، ودخلتْ تحمل على رأسها قفصًا كبيرًا، فيه أربعُ دجاجات من الأمهات، وثلاثةُ أرانب، وإوزَّتانِ لاتكفَّانِ عن التصايح. تركت أمي القفص عند زاوية الزير، وأدخلت فيه عُشبًا وإناءين فيهما ماءٌ نظيفٌ، وحبوبُ قمحٍ وذرة. التهتِ الإوزَّتان عن الصياح بشُرب الماء، وراحتِ المعزاةُ تحدِّق إلى القفص، يمينًا ويسارًا، وهي تؤرجح أذنيها كأنها تسأل عن الخبر.

سألتُ أمي فأخبرتني بأنها ستكون في الغد بقصر الجابي، طيلة النهار، وبأن الكاهن شُنُوتَه سيأخذُ هذا القفص في الصباح، ويذهب به إلى الكنيسة الكبيرة ببلدة الزقازيق، ليهديه لهم ويستأذن منهم في تزويجي أيام الصوم، إذا ما تأخر العيدُ علينا وجاء العربُ قبله. نحن لا نعرف لانتهاء الصوم موعدًا، يقولون: إن رئيس القساوسة هو الذي يحسبه لنا كلَّ عام، ثم يخبرهم، فيخبرون الكاهن شُنُوتَه، فيُخبرنا، فنحتفل. نخبزُ الكعكَ، ونأكلُ لحوم الطير وما نشتهي من كلِّ مأكول.

أضافت أمي باسمةً، أن الكاهن شُنُوتَه سوف يستعير من الكنيسة الكبيرة إكليلًا فضيًّا لامعًا فيه فصوص. هززتُ لها رأسي مُجامِلةً، لأُظهر لها سعادتي فتسعد، لكني كنتُ شاردةً. بقيتُ لحظةً ناظرةً نحوها، وهي ناظرةٌ برضا إلى القفص الكبير. كان كلانا ينظر إلى أمرٍ، ويرى غيرَه. هي ترى يوم عُرسي القريب، وأنا أرى الصحراء البعيدة التي تنتظرني.

لا بُدَّ أن بطرس الجابي، هو الذي طلب من الكاهن شُنُوتَه الذهاب إلى الزقازيق، فهو الذي يرتِّب لنا الأمور كلَّها، لأنه غنيٌّ ونافذُ القول في الناس، والكُلُّ يخشاه وينشد رضاه وعطاياه، وصبرَه عليهم في جباية الضرائب.

أهلُ كَفْرنا، خاصةً النسوةَ، يحكون عن بطرس الجابي قصصًا عجيبة. يقولون: إن سِنَّ التمساح المعلَّقة دومًا بعنقه، هي الصغرى

من بين أسنان التمساح الكبير الذي صرعه بطرس الجابي أيام شبابه.. كان التمساح يهدِّد كفرنا والكفور القريبة، ويلقم بفمه الكبير الماشيةَ الصغيرة إذا اقتربت من حوافِّ النهر، ثم ينـزل بها إلى الماء ويلتهمها هناك دفعةً. وفي وقت الفيضان، اعتاد هذا التمساح الخروج إلى أطراف ساحة السوق، فكان الناس ينظرون إليه من بعيد وهو يمشي ببطء، من دون أن يأبه لهم أو يكترث، فيخشونه أكثر. وكان إذا اقترب من غنم أو ماعز، على غفلةٍ منها، هجم بسرعةٍ على فريسته وطوَّحها. ثم انقضَّ ثانيةً عليها، وأخذها إلى بطن النهر.

اشتد خوفُ الناس من التمساح، واشتكوا أمره، فجاء بطرسُ الجابي وترصَّد في الساحة بسكين كبير، حتى ظهر التمساح عند الظهيرة، فاندفع إليه وظل يداوره ويهرب من ضربات ذيله القاتلة. بعد حين، استدار التمساحُ وأراد الفرار إلى النهر، فمنعه الجابي بضرباتٍ قويةٍ على رأسه بالسكين، لكنه لم يقتله إلا بعدما أنهكه وتمكَّن من قَلْبه على ظهره، ثم غَرَزَ السكين في بطنه وهو واقفٌ فوقه، يصيح صيحاتٍ مفزعات.. بعدما مات التسماح، فتح بطرس الجابي فمه الكبير، وانتزع من جثته هذه السِّنَّ بسكِّينه.

ويقولون، بل هو نابُ ضبعٍ مخيف. كان يهدِّد الأنحاء وينشر الفزع، حتى افترس طفلةً، فبكتها أمُّها حتى ماتت من الحزن، فخرج إليه بطرس الجابي فجرًا، وقتله بيديه العاريتين. وقيل: بل برمحٍ

طويل من رماح العرب. ثم خلع منه هذا الناب المخيف، وعلَّقه من يومها على صدره.

أمُّ نونا تقول: إنها محضُ حكايات. وهي تهمس للنسوة بأن هذه السِّنَّ، هديةٌ من امرأةٍ ساحرةٍ في بلاد الصعيد، كانت تسكن هناك كهوفَ الجبال. ذهب إليها بطرس الجابي في شبابه، كي يتعلَّم منها فَكَّ الطلَّسمات واكتشاف الخبيء من الكنوز الدفينة في الصحراوات والبرابي. وقد عشقته المرأةُ الساحرة فعلَّمته الأسرار والخفايا، شريطةَ ألا يهجرها وإلا آذته، فأقام بكهفها حتى ماتت. ثم جاء إلى نواحينا وبنى بيته الكبير هذا، وجعله لصيقًا بالبرابي، لأن كنـزًا كان مدفونًا بها، فاستخرجه بالحفر والتعاويذ. وبالبربا الوسطى كنزٌ آخر لا يزال مدفونًا، سوف يستخرجه يومًا ما.

بطرس الجابي عنده مالٌ كثيرٌ، ومعصرةُ نبيذٍ، وأرضٌ واسعةٌ ببلدةٍ في الصعيد اسمها قفط، أكثر أهلها من العرب. وهو يتاجر معهم منذ زمن طويل، ويجبي للحاكمين. دميانةُ سمعتْ من أهل الكَفْر، وأخبرتني، أنه هو الذي أخذ أبي وعَمِّي بشاي، إلى الحرب التي جرت بين الروم، أتباع الملك هرقل، والفرس الغزاة أصحاب الأفيال. خدعهما بأن وَعَدهما بأموالٍ كثيرة، إذا انتصر جندُ هرقل، لكن عَمِّي بشاي هلك في ترعة الثعبان التي عند الإسكندرية، وعاد أبي جريحًا فلزم الفراش حتى تسلَّل إليه السُّلُّ، ومات بعد سنين الآلام.

كان بطرس فيما مضى يجبي الضرائب من الناس للروم، فصار

يجمعها الآن للفرس، وإذا عاد الرومُ فسوف يجبي لهم من جديد.. وكان حَنَّا الكرَّام يقول قبل موته: إن الجميع يخشون بطرس الجابي لأنهم يرهبونه، لكنهم لا يحبونه. سمعته يقول ذلك أيامَ كنتُ صغيرة، ولما حكيتُ كلامه لأمي في المساء، زعقتْ فيَّ غاضبةً: *اسكتي، ولا تحكي ذلك الكلام ثانيةً لأحدٍ.*

هززتُ لها رأسي ليلتها، كالمذعنةِ، لكني حكيته في الصباح لدميانة.

* * *

ساعةَ الغروب، جاء بنيامين يحمل على ظهره ملاءة قديمة متهرِّئة، فيها خمس بطيخات غير نضيجات. هذه تباشيرُ الصيف. الأفضلُ من البطيخ، سوف ينضج بعد شهرٍ في الناحية الشرقية، عند آخر العالم، لأن الأرض رمليةٌ تناسب زرع البطيخ، فيصحُّ هناك ويصير أحلى. بنيامين يحبُّ أن أكشطَ له طبقةً من قلب البطيخة، بعد أن أشقَّها لنصفين، فيأخذُ الطبقة الأحلى مبتسمًا ويلتهمها راضيًا. والإوزُّ يحب قشر البطيخ، ولا يصبِر حتى أخرِّط له القطع الكبار، فيخطفها من يدي ويجري بها بعيدًا، فأضحكُ.

دحرجتُ أربع بطيخات تحت سرير أمي، وشققتُ الخامسة بالسكين لبنيامين، ووضعت أمامه مع نصفها أرغفةً وطَبَقًا فيه قرعٌ مقليّ، فأكل ونام. أمي كانت مشغولةً في حجرتنا، تطوي أثوابي الجديدة، وتصفُّها مع أشياءَ كثيرةٍ في قفصٍ من البوص الخفيف، لآخذها معي حين أرحل مع زوجي.. كانت تغنِّي.

أحلام

أيقظتني صباحَ اليوم، الثلاثاء، دقَّاتُ الكاهن شُنُوتَه العالية، المبكِّرة. فتحتُ له بابنا الموارب دومًا بلا إحكام، فلمحتُ خلفه رجلًا بائسًا لا أعرفه. كان الكاهن متباهيًا في ثوبه الكنسيِّ، المخصَّص لقُدَّاس الآحاد، ومتعجِّلًا. سألني باقتضابٍ عن قفص الطيور، فأشرتُ إليه وأفسحتُ الطريق. الرجلُ البائسُ حمل القفص على رأسه، مثلما تحملُ النسوةُ الأقفاص، وانطلقا في الدرب متحمِّسَيْن. كانتِ المعزاة تنظر نحوي، كمن يريد أن يُفصح، أو يصرِّح بأمر. وضعتُ أمامها ماءً جديدًا، فمالت لتشرب وهي مستسلمةٌ لمرور أناملي على شَعْرِ ظهرها.

دفعتُ الباب بذراعي اليسرى، فانغلق ولم يُوصد. غمرتني فرحةٌ مفاجئةٌ لا أدري لها سببًا، فاحتضنتُ المعزاة وأرحتُ خدِّي على ظهرها برهةً، ثم قمتُ خفيفةَ الخطى فالتقطتُ المشط الخشبي من حافة النافذة الوسطى، وجلستُ مبتهجةً على عتبة باب

حجرتنا، لأُعيد تضفير ضفيرتي. لم تترك لي أمي شيئًا من أعمال البيت، كي أنجزه حين أصحو، حتى طعامي أعدَّتْه قبل خروجها. هي تريدني أن أرتاح، ليزداد قبل العرس وزني. لكنني ما زلتُ أقوم ببعض الأعمال. أحبُّ من أعمال البيت، إطعامَ بنيامين ونشرَ الغسيل ورعايةَ الدجاجات، وأكره الكَنْسَ وغسيلَ المواعين وخَرْطَ البصل.

ليست عندي رغبةٌ في الفطور الذي تركته أمي، بالماجور المغطَّى باللوح الخشبي. لا بُدَّ أنه خبزٌ ناشف، وفولٌ نابتٌ. مذاقُ الطعامِ مريعٌ أيامَ الصوم، وقليلًا ما يكون شهيًّا. سأبقى بالبيت وحدي طيلةَ هذا النهار، حتى يعود بنيامين محمَّلًا بحشائش خضراء للمعزاة، وتعود أمي حاملةً طعامًا. لا بُدَّ أنها تطبخ في بيت بطرس الجابي، لأن الطعامَ الذي تأتي به دومًا من هناك، يفوحُ بأنفاسها.

هل ستعطيني أمي هذه المعزاة، حين أذهب مع العرب إلى داري الجديدة؟ وما أدراني، ربما كانوا لا يحبون الماعز والضأن في بيوتهم، مثل أهل البلدة البيضاء. سوف أطلب اليوم من أمي، أن تطلب من أمِّ نونا، أن تأخذني غدًا لزيارة البلدة البيضاء. أريد أن أراها ولو لمرةٍ، قبل رحيلي عن هنا. تُرى، هل سأشتاق إلى جلستي ساعةَ العصر، على جدار البرابي؟ وهل سألتقي يومًا، بالرجل الغريب؟.. لا يجب أن يمرَّ هذا الأمر بخاطري، ولن أفكر فيه بعد اليوم. لا يصحُّ. فبعد أسبوعين سوف يصير لي زوجٌ، ولا يجوز لامرأةٍ أن

تفكِّر في غير زوجها. وإذا فكَّرَتْ رغمًا عنها، فعليها أن تدفع الفكرة بعيدًا عنها، بقدر ما تستطيع. ولا تُخبر بها أحدًا.

الهواءُ ساكنٌ، والنهارُ في الحوش حارٌّ. في مثل هذه الأيام من كل عام، يكثر الذباب، كأنه يزيدُ مع مياه النهر. الصيفُ أوانُ فيضانِ النهر، وفيضانِ الذباب نهارًا، والناموس ليلًا. وفيضانِ الملل. الأوقاتُ هنا صارت ثقيلةَ المرور، بطيئةً.. تابعتُ بعيني من غير اهتمامٍ، حركة الدجاجات المتحيِّرات، وتتابعت على رأسي الأسئلة المحيِّرات التي لا أجد إجابةً عنها. هل يجب أن أحبّ زوجي، مع أنه أحول، أم يجب عليَّ أن أخشاه؟ وإذا أغلقنا علينا الباب، هل أبقى معه عاريةً طيلة الوقت، حتى في أيام الشتاء؟ كم مرةً سوف ينالني في اليوم والليلة؟ لماذا ترك نساء العرب وجاء يطلبني للزواج، وهو لا يعرفني؟ كم طفلًا يجب أن أُنجب، وبماذا أُسمي أطفالي، بأسمائنا أم بأسماء العرب..

أخرجني من شرودي، انتباهي إلى بياضٍ أطلَّ بجوار الفرن، من فوق الرماد. أشرق كشمسِ شتاءٍ، من بين أوراق الشجر الجافة، والأغصان الدِّقَاق.. بيضةٌ.. نهضتُ مسبيةَ الشَّعْرِ إلى حيث تألَّق البياضُ الخجول، والتقطتُ بأطراف أصابعي اليمنى، البيضةَ المتوارية. لمرأى البيضِ فرحةٌ في القلوب، وبهجةٌ طفولية.

عدتُ إلى جلستي وأملت رأسي إلى الوراء قليلًا، ليقع عليه الظل. البيضةُ في حِضْن راحتي اليسرى، يتوهَّجُ بياضُها في بياض

يدي، في بياض نور الشمس المنهمر.. في طفولتي، كنتُ أُلاحق المتحيِّرات من الدجاجات، وأجرى وراءهنَّ أملًا في الحصول على البيض. أفهمتني أمي أن الدجاجة لن تبيض، إلا إن اطمأنت منفردةً، فصرتُ من بعدها أتابع بعيني من بعيد، كُلَّ دجاجةٍ حيرى. حتى تتوارى بموضعٍ وتضع بيضتها، فأنطلقُ مفتشةً عنها حتى يفجؤني بياضُها الكامن في المخبأ الآمن.. أيامَ كنتُ في الثامنة، لدغت عقربٌ إصبعي خلف الفرن، حين مددت يدي لألتقطَ بيضةً من هناك. صرختُ فأسرعتْ أُمي إليَّ، ومصَّتْ موضع اللدغة وهي تضغط على معصمي بقوة، وتتفل من فمها السُّمَّ. فعلتْ ذلك مرات، حتى بدا من موضع اللدغة دَمٌ أحمر، فتوقَّفتْ عن المصِّ والتَّفْلِ، واحتضنتني. كنتُ مرعوبةً جدًّا، وصرتُ بعدها حريصةً جدًّا.

ساعات النهار بطيئةٌ، وضوء الشمس ساطعٌ، ساخن. رحتُ أُحدِّق نحو راحتي، فتغمرني البيضةُ الملفوفةُ بضوء الشمس، بالبهجة الغامضة.. أنا بَيْضةٌ. تحوطني بإحكامٍ قشرةٌ هَشَّةٌ، وباطني سائلٌ. البيضاتُ تجمد في الماء الذي يغلي، والنارِ التي تشوي. هل ستشويني الصحراء فيجمد باطني، أم سترقد عليَّ السماءُ هناك، فأُنجبُ للعرب قافلةً من بناتٍ وبنين؟ العربُ مثلنا لا يحبون البنات، سوف أُنجب لهم أولادًا أكثر.

الشمسُ افترشتِ الحوش كلَّه. الحجرةُ هواؤها ألطفُ، فهل أدخل فأجلس فوق دكتي؟ لا، سوف يغلبني عليها النومُ.. أيامَ

كنتُ صغيرة، لم تكن دكَّتي بمكانها هذا، اللصيق بجدار البرابي. لم يكن بحجرتنا إلا سرير أمي، وكنت أنام عليه بجوارها ليلًا، ونهارًا ألعب. أصُفُّ عرائس الطين عند الحائط، وأتكلم معها. كنتُ أعطي لكل عروسٍ اسمًا. لما بلغ بنيامين السعي، كسَّر عرائسي وأنا خارج البيت، فبقيتُ أيامًا أبكيها. وصرتُ من بعد ذلك أخفيها بعدما تجفُّ، عند زاوية السرير.. في ظهيرةٍ قائظةٍ، جرى أمرٌ محيرٌ. كنتُ جالسةً على الأرض بحُجرتنا، ألعبُ مع عرائسي، وأكلِّمها. لا أعرف لماذا نظرت يومَها فجأة إلى طرف السرير، ثم قمت من فوري فرفعتُ طرف الفرش الذي فوقه، فوجدت تحته ثلاثَ بيضاتٍ صغيرة، في حجم بيض العصافير. دسستُ البيض في جيبي، وخرجت أبحث عن دميانة حتى وجدتها، وأريتها البيض. تعجَّبتْ منه، وذهبت به إلى أمها. ارتاعتْ هزَّةُ حين رأت البيض، وسألت دميانة أين وجدته، فكذبتْ وقالت: إننا وجدناه في البرابي.

ـ ارميه في النهر، هذا بيضُ ثعبان.

لم أكن أعرفُ يومَها أن الثعبان يبيض، وأستغرب ذلك إلى اليوم. لماذا تبيض الثعابين، وهي بلا أجنحة؟ أبونا باخوم كان يقول: إن الذي يطير يبيض، والذي يمشي يلد، والذي يعوم قد يبيض وقد يلد. ما الذي أتى ببيض الثعابين بين طيَّات سرير أمي؟ قلت لدميانة يومَها: إنني سوف أحتفظ بالبيضات الثلاث، حتى تفقس فنرى ما فيها، فوافقتني. كانت دميانة توافقني في كل شيء، وكنت أيضًا

أوافقها. لكن البيض تكسَّر في جيبي، لحظةَ وقعتُ ساعةَ العصر ونحن نلعب في الساحة. لم يكن بداخله عصافير، ولا ثعابين، ولا أيُّ شيء غير السائل الذي لطَّخ جيب جلبابي، فجريت نحو أمي فخلعته عني وغسلته. لو حافظتُ على البيض، ولم ينكسر، لفرَّخ بعد حينٍ وعرفتُ ما فيه.

ـ يا عروسَ الكَفْرِ، هل أدخلُ؟

أتاني من وراء باب البيت صوتُ بسنتي، مع دقَّاتٍ خفيفة من عصاه القصيرة. صحتُ له بأن البابَ مفتوحٌ، فدفعه بقدمه ودخل عليَّ يترجرج في جلبابٍ حائلٍ، لا لون له، وتحت إبطه كيسٌ من قماشٍ بطول ذراع. فيه حسبما قال، فريكُ قمحٍ جيِّدٍ، يأتون به من الصعيد.

سترتُ رأسي وبقيتُ على جلستي، فجاء مبتهجًا نحوي حتى وقف فوقي. ألقى الكيس عند قدمي وهو يخبرني بأن أمي عندهم، وبأن الفريك هديةٌ لي، بمناسبة عُرسي المرتقب. بدا كأنه يذكِّرني بالدينار الذي أهداه لي، قبل أسبوعين. أضاف بعد تنحنُحٍ، أنه كان قبل قليل يراقبني خفيةً من سطح القصر، وأنا مشغولةٌ بتمشيط شعري، وقد نظر إلى ظهري حين ملتُ لألتقطَ شيئًا من جانب الفرن، فجاء إليَّ من فوره. سألته وهو يجلس ببرودٍ على العتبة، إلى جواري:

ـ ولماذا تنظر إلى ظهري؟

ـ *كنت أنظر إلى خصلات شعركِ الناعم، المكشوف.*

ـ *وماذا تريد من شعري؟*

ـ *أن ألمسه بيدي.*

بسرعةٍ فوجئتُ بها، دَسَّ بسنتي يده اليسرى تحت سِتْر رأسي، وأحاطني بذراعه اليمنى. أزحته عنِّي بوكزةٍ من كوعي، لكنها لم تردعه. حاولتُ النهوض، فأقعدني بلفِّ ذراعه حول خصري، وهو يفوه لاهثًا: *اهدئي قليلا*.. دفعته عني فلم يندفع، وصدمتني رائحةُ عَرَقه فنفرتُ. زاد من نفوري، شعوري برخاوة جسمه. كدتُ أصرخُ، لكنه شَدَّني من شعري الذي انكشف، فأمالني إلى الخلف وباغتني بأن انقلب عليَّ. صار بجسمه الثقيل فوقي، فانتفض باطني فزعًا. أزحته عني بكلتا يديَّ، فغاصتا في لحمه الكثير. هو سمينٌ ثقيل، لكنه ليس قويًّا. راح يلهث فوقي، ويفحُّ مثل ذَكَرِ البَطِّ. ازداد تقزُّزي منه حين دفعته من تحته، فانغرزتْ أظافري في لحم صدره المترهِّل. لصدره أثداءٌ تتأرجح من فوقي، مبللةً بالعرق، أكبرُ وأرخى مما لديَّ.. لن أُمكِّنه مني، مهما كان.

بكل ما فيَّ من عنفوانٍ نهشتُ كتفه بأسناني، ودفعته بعنفٍ من فوقي. تأوَّه وانطرح على جنبه الأيسر، فصار مثل كومةٍ كبيرة. مثل زكيبة. انتفضتُ إلى وسط الحوش، وقد قوَّستُ ظهري كقطَّةٍ تتأهَّبُ. بعين فأرٍ محصور، نظر نحوي وهو يقول بأنفاسٍ متهدِّجة: سأعطيكِ دينارًا آخر، تعالى، ليس هناك وقت، لن تخسري شيئًا.

مددتُ ذراعي بطولها إلى جهة الباب، وقُلتُ بقوةٍ وغيظٍ مكتوم: *خُذ يا خنـزيرُ هذا الكيس، واخرجْ..* أبطأَ في القيام فرميتُ بقدمي اليسرى على وجهه، بعضًا من تراب الحوش المسبَّخ بزبل الطيور. استند إلى حَلْق الباب، وقام متثاقلًا وهو يقول مستسلمًا كأنه يموءُ: *يا مارية، لا تضيِّعي الفرصة.*

ناحيةَ الباب، كانتِ المعزاة تنظر نحونا بعينٍ تفهم. هدَّدتُه زاعقةً بأنني سوف أصرخُ، فتجتمع عليه نسوةُ الكَفْر ويضربنه بكرانيف النخل، ويفضحنَه.. وهو يأخذ من على الأرض كيس الفريك، غمغم متوسِّلًا البقاء. قال إنه، وحقِّ العذراء، يحبني. أثارني كلامه أكثر وأهاج حنقي، فأسرعتُ إلى الفرن وسحبتُ من جوفه البشكور الحديدي، ورفعته بكلتا يديَّ مهدِّدةً، فهرب إلى الباب. صحتُ فيه: قف. فوقف مُتسمِّر الساقين، وهو يلهثُ مثل كلبٍ مهانٍ، تناهشته الكلاب. رميتُ البشكور وجريتُ إلى دِكَّتي، فالتقطتُ من تحت مخدتي الدينار الذي أعطانيه، وقذفتُ به في وجهه.. التقطه من فوق الأرض، ومضى هاربًا يطرده الفزع. وَلَّى، فأسرعتُ إلى باب البيت، أوصدته بلسان المغلاق الخشبي، ثم مِلتُ بجانب رأسي إلى الحائط.

أخذني دوارٌ واهتاجتْ معدتي، ثم تقيَّأتُ حتى أقعدني القيء على عتبة الباب. تزحَّفتُ إلى الناحية الأخرى من العتبة، فاقتربتْ مني المعزاة وتمسَّحت بي، على غير عادة الماعز. لمستني كأنها

تواسيني. احتضنتُها فسَكَنَتْ بين ذراعيَّ، وبكيتُ معها حتى ابتلَّ بدمعي شعر عُنقها.. ما الذي أراده مني هذا التافه؟ هل رآني مسكينةً تمنح نفسها لمن يريد أن يعبث، لقاءَ دينار أو كيس فريك. لو كان أبي حيًّا، أو كان بنيامين كبيرًا، لما تجرأ عليَّ هذا الخنـزير السمين.. آه يا أمي المسكينة.

هدأتُ بعد حينٍ، قليلًا، فقلتُ في نفسي مواسيةً: إن بسنتي في نهاية الأمر تافهٌ، ومقزِّزٌ، وزكيبةُ تبن. كنا في الصغر نغيظه حين نراه في الساحة، فنصيحُ عليه: *يا زكيبةَ التبن*. ثم نجرى من أمامه فلا يلحق بنا، لأنه سمينٌ مترهِّلٌ.. هل أثارته حقًّا خصلاتُ شعري أو انحناءة ظهري، أم أنه أراد أن يثأر لنفسه مني، بعد مرور السنين الطوال؟

هل أحكي لأمي ما جرى؟ سوف ترتبك فتبكي، أو تكظم فتحزن. لا. لن أحكي لها، يكفيها ما بها من حزنها لفراقي القريب. وقد مَرَّ الأمرُ وانتهى، وكُلُّ ما يمرُّ وينتهي فكأنه لم يحدث أصلًا.. لم يحدث شيء.. لما ردَّدتُ ذلك على نفسي، هامسةً، تسلَّلتْ راحةٌ إلى صدري، وسكنتْ عن التقلُّص معدتي. تحاملتُ حتى قمتُ إلى ناحية الزير فحسوتُ شربةً منه، وغسلتُ ببعض الماء وجهي. بعد حينٍ هدأتْ نفسي، فغالبني إغفاءٌ كالإغماء. دربُ الكَفْر صامتٌ. لا تأتيني من وراء الباب زعقاتُ الأمهات، ولا عويلُ أطفالهن. وحدتي بالبيت تامةٌ، وسكونُ خارجِه مريب.

لم أستطع معاودة جلستي على عتبة حجرتنا، فقد صارت ملوثةً برائحة بسنتي. درتُ في الحوش مرات، بخطًى تضطربُ، ولمستُ المعزاة في دوراني، مرتين. احترتُ، حتى عبرتُ العتبة مسرعةً إلى بطن حجرتنا، وأوصدت خلفي بابها.. بابُ البيت أيضًا، موصدٌ، وصدري موصدٌ.

الأجواءُ في الحوش حارةٌ، وفي الحجرة رَطْبةٌ خانقة. ألصق العَرَقُ ثيابي بي، خنقتني، فطرحتُها كلَّها عني. ألقيتها فوق دِكَّتي، وألقيتُ نفسي على سرير أمي. تمدَّدتُ فوق بطني، وعاريةً بكيتُ حتى علا بالنشيج بكائي. مضى عليَّ على تلك الهيئة حينٌ، غلبني بعده نعاسٌ في غير الموعد.

رأيتُ أني أطيرُ. من غير أجنحةٍ أطيرُ، وأفرحُ. تؤرجحُني في الفراغ نسْماتٌ رحيمة، فأسبحُ في هواءٍ لا يشبه الهواء. تحملُني الأحَلامُ الحنونُ من فوق الكَفْر، إلى سماء البرابي المجاورة، وبرابٍ أُخرى ما رأيتها قبلًا..

طرتُ ولا قِبْلةَ لي في الجهات، ولا رغبةَ في مماتٍ أو حياة. حلَّقتُ فوق رءوسِ نخلات، وتيجانِ أعمدةٍ عالية، وحوافِّ أحجارٍ متكسِّرةٍ كبار.. وعلوتُ.. حتى إذا غُصْتُ في صُرَّةِ السماءِ، بَدَتْ لي الأرضُ من عين عصفورٍ ضعيف، شاهقِ التحليق. وبدا لي نهرُنا كُـلُّه، والنهرُ الذي يمدُّه من خَلْفه، والبَحرُ البعيد.

رآنــي من بعيدٍ، صقرٌ جارحُ النظرات. شرعَ نحوي أجنحتَه

والمخالب. خِفْتُ منقاره المعقوف، فانبجستْ فيَّ الرَّعْداتُ. وتيقَّنتُ أنَّ الآنَ آتٍ. اضطربَ جَفْناي ففُتحتْ عيناي، فسمعتُ من حولي ذُباباتٍ تَطِنُّ. أغلقتُ وجهي بيديَّ، فرأيتُ طيورًا خرساء إلى تغريدها تحنُّ.

عَمَّ الظلامُ من حولي، وتمَّ السكونُ. كأن الكونَ خلا من كل هسيس، وما عاد معي في الوجود أنيس؛ فلا الأرضيُّ يسعى، ولا عاد السماويُّ يطيرُ. الشموسُ واقفةٌ فوقي، وتحتي أقمارٌ يذوِّبها الهجيرُ.. بعد حينٍ من توحُّدي، تألمت، فتقلَّبتُ في طيراني. حتى جذبني أُفُقٌ بعيدٌ، وصلتني منه أصواتٌ كأصداء بعيدةٍ، تجلَّتْ لي بعدها ألوانٌ لا رسم لها.

تقلَّبتُ ثانيةً في طيراني، وشددتُ فوقي لحاف أمي، فرأيتُ تحته أُفقًا من حقولٍ. فيها أكوامٌ من عناقيد الكَرْمِ، تجرى بينها دميانةُ بمرحٍ قديم.. تصعَّدتُ حتى لمستُ السحاب، فألفيته دافئًا مثل حِضنِ الأمهات. وفي قلب السحابات رأيتُ عمي بشاي، يضحك. أبي أيضًا كان هناك، يضحك. وحَنَّا الكرَّام، وامرأةُ الكاهن، وحَنَّا الرَّحوم. كلُّ الموتي كانوا يضحكون، وهم محاطون بملائكةٍ ترفُّ أجنحتُها. وكان الكونُ يضحك.. أمي، وحدها، كانت تبكي فِراقي، في ناحيةٍ قاصيةٍ. أردتُ احتضانَها، فما استطعتُ..

بقيتُ مبهوتة. يلفُّني صمتٌ، وتحوطني حيرةٌ. حتى جاءني من

جوف خوفي هدهدٌ، دلَّني، حملني من تلك السماء إلى سماوات خضراء، صارت بعد برهةٍ بلون البرتقال.

خطف قلبي النصوعُ البرتقالي، وبَهَرَ نظري سطوعُ ضوءٍ بعيد. طرتُ إليه، فصرتُ عنده، فرأيته وجهًا من دُخَانٍ، يتبسَّم. دنا، فانْجَلى، فوجدته أبونا باخوم، يملأ الأنحاء من حولي، ويرنو نحوي بنظرته الرحيمة.. مددتُ إليه ذراعيَّ، وناظريَّ، فأحاطني بحنانٍ، وحملني إلى سماءٍ أعلى من تلك السماوات، وأرحب. جرفني إليه دفئُه، فسال دمعي بعدما سال قلبي. بكيتُ في حضنه، تهدَّجتُ، ثم أجهشتُ حتى تهرأتُ، فضمَّني. جمَّعني بعدما بلَّلتُ بدمعي، بياضَ لحيته الغامر، وخشونةَ مخدتي. توغَّلتُ في سحابة، حتى غبتُ عني، وغبتُ عنه، لحظةَ مسَّني الصليبُ المنيرُ المعلَّق على صدره. تشبَّثتُ به حتى اختفيتُ فيه، واختفتِ الأرضُ البعيدةُ. وتبدَّدتْ من حولي السماوات المحيطة.

من شدة خوفي، ارتجفتُ. جفَّ دمعي بعدما عَمَّ حولي ظلامٌ، من فوقه ظلامٌ، ومن تحته رهبةٌ. لا سبيلَ إلى الصراخ، ولا اقتدارَ على نداءٍ أو بكاء.. هذا أوانُ موتي.. سُلبتُ حواسي، فاستسلمتُ، وبقيتُ ساكنةً في قعر بئرٍ مظلمة.

مَرَّ دهرٌ، ساكنٌ، ثم شَعَّ فوق بئر الظلام نورٌ باهرٌ، هبط إليَّ من جوف العتمة ودار حولي. داخلني حتى تخلَّلني. خلتُ أنني صرتُ ضياءً، يتمدَّد في الكون حتى آخر الكونِ الأخير..

بعد حينٍ، انسلَّ مني النورُ بعدما غسلني بالوهجِ، وطهَّر الضوءُ باطني. وهو يفارقني، فتحتُ عينيَّ وحدَّقت إلى أعلاي، فرأيتُ البياضَ الذي كان فيَّ، يبتعدُ ويغوص في قلب الظلام، وقد صار وجهًا.. هه.. هو الوجه الذي أعرفه، وجه النور الذي ما بعده نور، وما معه ظلام.. هو نور البدءِ والختام، نور أُمِّ النور.

تجلّي العذراء

نجوتُ من الغَرَقِ في غفوتي، قُبيلَ الغروب.. أُحسُّ بأعضائي توجعني، كُلُّها، وبرأسي يؤرجحه الخدَرُ. فتحتُ مُوصَدَ الأبواب، ولما أطلَّتْ عيناي على الدرب، رأته خاليًا.. أين الناسُ وصَخَبُ المغارب؟.. من بعد طول ترقُّبٍ، جاءتْ أمي من بيت بطرس الجابي بوجهٍ مخطوف، وعينين زائغتين تتلفَّتانِ بوجلٍ. بنيامين جاء قبلها بقليل، مع حالٍ غريب، فأغلق وراءه باب البيت وانزوى في الركن المربوطة فيه المعزاة، وتكوَّم هناك حتى غابتِ الشمس. امتنع عن الطعام وهو ينظر إليه، ولا يراه. لم يتحرك، ولم يجب عن سؤالي المستفسِر عن غرابة حاله، إلا بسؤاله المتكرِّر: لماذا تأخرتْ أمي؟

حين دخلتْ علينا أُمُّنا وقد امتدت ظلال المساء، لم تتكلم بشيءٍ. تَبعناها إلى حجرتها صامتَيْنِ، غارقَيْنِ في أنهارٍ متباعدة.. السكونُ مطبقٌ.. يتراقصُ على الحوائط نورُ الفانوس الضعيف،

المعلَّق بجوار الباب. غرابةُ حال بنيامين تدلُّ على أنه يخفي أمرًا خطيرًا، واضطرابُ حال أُمي يؤكِّد أن خَطْبًا قد وقع. هل عرفا بما جرى صباحَ اليوم؟ وما الذي عرفاه تحديدًا؟ هل قال بسنتي شيئًا؟.. بسنتي تافهٌ، وقد يقول أيَّ شيء.

تكلَّمتْ أمي بعد صمت، فازداد مع كلامها اضطرابي. قالت إنها تأخرتْ، لأن بطرس الجابي كان يحزم متاعًا كثيرًا، ويجهِّز الدواب ويغلق البيت. وقد سافر الآن إلى الصعيد. أضافتْ بعدما ابتلعتْ ريقها، أن بسنتي سافر معه، والحبشية.. ازداد وجيبُ قلبي حين لفظتْ اسم بسنتي، لكنها لم تكن تنظر نحوي، ولا بنيامين كان ينظر. سَأَلَتْه أمي إن كان قد سمع شيئًا، فحدَّق إلينا بعينين مذهولتين، يحتقنُ فيهما دمعٌ كثير يريد أن ينهمر. لم أستطع مع صمتهما صبرًا، فقلتُ لأمي والحنقُ يهزُّ شفتي:

ـ ولماذا يسافر العمُّ بطرس بالليل؟ ماذا تخفيان عني؟

ـ قُلْ لها يا بنيامين..

بشفتين ترتعشان قال أخي كلامًا مضطربًا، فهمتُ منه أن أخبارًا مفزعةً وصلت إلى الناس ظهر اليوم، والكُـلُّ منها في وَجَلٍ مضطربون. فالبابيلون، الفرسُ، سيخرجون بجيوشهم وأفيالهم من البلاد. وسوف يخرِّبونها في طريق خروجهم، مثلما خرَّبوها حين دخلوا. ومن بعد خروجهم سيدخل الكُفَّارُ من جند هرقل، بجيشهم، فيحصد جنودُهم الأخضر ويدوسون اليابس. سُكَّانُ البلدة البيضاء

خرجوا صباح اليوم، وهم يحملون كل ما يملكون. قصدوا موضعًا آمنًا. سوف تحملهم إليه السفنُ، فيبقون حينًا بالإسكندرية، حتى تستقر الأمور. سُكَّانُ الكَفْر قابعون مع الخوف في جوف بيوتهم، يترقَّبون ما سوف يحدث الليلة أو غدًا.. سألتُه:

ـ *وما الذي سوف يحدث يا بنيامين؟ الجنودُ لا يأتون إلى الكَفْر.. ولماذا يأتون؟ ليأخذوا منا الفقر.*

ـ *يا مارية، الجنودُ ينهبون كُلَّ شيء، حتى الفراخ والبيض. وقد يقتلون الأطفال، وينتهكون النسوة والصبايا.*

قلتُ لأمي متوسلةً بعضَ الطمأنة: إن الفرس دخلوا البلاد قبل عشر سنين، ولم يمروا من هنا. ولم نرهم قطُّ، طيلة الأعوام العشرة. فلماذا سيخرجون من هنا؟.. انبرى بنيامين وكأنه يعرف كل شيء، فقال: إن نواحينا تقع في طريق خروجهم، لأنهم سوف يبتعدون عن جهة الغرب، تحاشيًا للإسكندرية التي دخلها فَجْرَ اليوم جُنْدُ هرقل. أضاف وهو يرتجفُ، أن الفرس سوف يأتون لينهبوا البلدة البيضاء في طريقهم، والبلدات الأخرى البيضاء. وسوف يقطعون الأشجار لتأكل أفيالهم أوراقها. فالفيلةُ لا تكفُّ عن الأكل، ولا يكفُّ أصحابها عن النهب.. نظرتُ ناحية أمي لعلها تقول شيئًا، لكنها أكَّدت كلام بنيامين حين قالت: إن بطرس الجابي، قال لها مثل ذلك. سألتُها، مُغتاظةً:

ـ *فلماذا تركنا وراءه، وهرب؟*

ـ *ذهب إلى أهله بالصعيد.*

ـ *ألستِ يا أمي قريبةً له؟*

ـ *من بعيدٍ يا ابنتي.. من بعيد.*

ساد الوجومُ مع السكون، فجمدتُ بموضعي حتى دفعني من فوق دِكَّتي فزعٌ مفاجئ، وخواطر مخيفة، فلجأتُ إلى سرير أمي. ملتُ على كتفها برأسي، فسالت على الرغم مني دموعي، وحين احتضنتني عاودني البكاءُ والنشيج، وأهبطاني من بين ذراعيها إلى أرض الحجرة، فقعدتُ أنوحُ ورأسي بين كَفَّيَّ.

ـ *كفاكِ بكاءً يا ماريه، لن يُجدي الآن البكاء.*

ـ *أندبُ حظي في الحياة.*

ـ *انظري يا ابنتي، العربُ قد يأتون قبل موعدهم. الجابي قال ذلك. لا بُدَّ أن نستعد. أتسمعُني يا بنيامين؟*

يا أمي المسكينة، ويا بنيامين، لأيِّ شيءٍ نستعد؟ ولماذا سيأتي العربُ ثانيةً؟ هل خَلَتِ الدنيا من البنات، حتى يرجعوا من أجلي راكبين الأخطار؟..كيف كنتُ غائبةً عما حولي، طيلة النهار؟ وكيف يهرب بطرس الجابي، ويتركنا، وكيف سيصل إلى الصعيد؟ أما استطاع أن ينتظر إلى الغد، ويأخذنا معه؟ أليس هو القريبَ لأمي، ولو من بعيد، أم تراها كذبت علينا، لأننا صغار.. هل هي خادمةٌ في بيته، أم هو يُحسن إليها عوضًا عن تغريره القديم بزوجها

وأخيه.. لماذا كانت نونا تتغامز ونحن صغيرات، حين تسألني عن أمي، فأخبرها بأنها في بيت بطرس الجابي.

جيوشُ الفرس جاءتْ ومَلَكتِ النواحي، أيامَ كنتُ في الثامنة من عمري، فلم أشعر بهم ولم أرَ يومًا أفيالهم. وقد لا يمرون من هنا، وهم خارجون.. وماذا إذا عبروا فوق الكَفْر، وما الذي قد تفعله الفيلةُ بالناس، هل تدوسُ الأطفال؟ وهل ينتهكني جنودُ الفرس الخارجون، وجنود الروم الداخلون. هل أقتل ساعتَها نفسي، لأهرب من مثل ذاك المصير؟ أين ذهبتِ أيتها الأم العذراء، هل نسيتِ المساكين؟ أم أنك تحرسين، فحسب، أَهْلَ البلدة البيضاء؟ أتراهم هم المؤمنون حقًّا، ونحن الكفَّار. يا ربنا يسوع المسيح، اهبط إلينا من السماء، فنحن في حاجةٍ إليك. لا تتركني للجند الكفار الذين لم يعرفوك. خلِّصني منهم، أرجوك..

أطفأ الهواءُ فتيلةَ الفانوس، أو جَفَّ الزيتُ، فأحاط بنا الظلامُ والخوفُ والأخطارُ. لم أنهضْ لإشعال الفتيلة، ولا نهضَ المسكينُ بنيامين. كنا نحتاج الأمن لا النور، فتحشَّرنا تحت جناحيْ أمي. جئنا في وقتٍ واحدٍ إلى سريرها، فأحاطتْ بنا بذراعينِ حانيتينِ ترتجفان. بقينا صامتَيْنِ، مشدوهينِ كأفراخٍ انتصبتْ أمامها في الليل أفعى.. نحن فراخُ الربِّ، لا خِرَافه التي يدَّعون.

بعد هنيهةٍ، انتبهنا إلى أصواتٍ تأتي من بيت الكاهن شُنُوتَه، من وراء الحائط المشترك. لا بُدَّ أنه عاد من الزقازيق، ومعه حقيقة النبأ

العظيم. قالت أمي: امكثا هنا، حتى آتيكم منه بخبرٍ يقين. همَّتْ بالخروج، فتعلَّقنا بها بأكُفِّ الخوف، حتى لم تستطع عنا حراكًا. أخذتنا معها، فخرجنا من ظلام الحجرة.. إلى ظلام الحوش.. إلى ظلام الدرب.

كأنها ليلةٌ، غيرُ قمراء، في أزمنة الوباء. الدربُ خالٍ، وأبوابُ البيوت المغلقة، تعطي الكَفْرَ شَكْلَ البرابي. طَرَقنا بابه، فزعقَ الكاهنُ فَزِعًا: مَنْ؟ تكلَّمتْ أمي ففتح الباب، ففاحتْ رائحةُ بيته الكريهة. وَارَبَ بابه، خشيةَ دخولنا لو فتحه، وقال وهو يتعجَّل ذهابنا عنه: إن أهل الكَفْر كلهم في الكنيسة. ولما لم نجاوبه، أضاف آمرًا:

ـ *اذهبوا إليهم وأغلقوا خلفكم باب الكنيسة، سألحق بكم بعد قليل، سوف نقيم قُدَّاسًا ونتلو الصلوات، اذهبوا الآن.*

ـ *ولكن..*

ـ *اذهبوا الآن.*

بدا الدربُ أمامنا طويلًا. مشيناه بخطى تضطرب، إلى آخره. بابُ الكنيسة مُوصدٌ، وداخلها ظلامٌ تأتي منه الهمهماتُ. نقيقُ الضفادع في الأجواءِ عالٍ، والساحةُ موحشة، والقمرُ في المحاق. دقَّت أمي الباب، ففتحه هيدرا السقَّا، وأغلقه فورَ دخولنا. الأطفالُ ناموا في الأركان حول أمهاتهم، والصبيةُ والنسوة ينتحبون من غير صوت، والرجالُ وقوفٌ. بهمسٍ، قالت لنا أمُّ نونا في الظلام: إن الفرس

تركوا صباحَ اليوم الحصنَ الكبير الذي عند أول طريق الصعيد، وهم يتجمَّعون الآن بوادي الكاهيرا. وسوف يزحفون غدًا كالحيَّات الكبار إلى جهة الشمال، ومعهم أفيالهم، فيسيرون في طوابير طويلة تجرفُ ما يعترضُ طريقها، وما لا يعترض. ولا بُدَّ لهم منْ المرور بأحد جانبي نهرنا الصغير هذا، فإن كان مرورهم من جانبنا هلكنا، وإن مروا من الجانب الغربي فسوف يروننا من بعيدٍ، وقد لا يعبرون إلينا.

سَأَلَتْها أمي: وماذا لو مَرُّوا من جانبِي النهر، معًا، واصطحبوا بينهم المراكب؟ فارتبكتْ أمُّ نونا وهي تقول بصوتٍ حانقٍ إنها لا تعرف، ولا أحد يعرف، ولا أحد في بيتها ليحرس البقرة. تزحَّف بنيامين بينهما، وكاد يتحدَّث بشيء، لكن أزيزَ بابِ الكنيسة منعه. دخل الكاهنُ يتبعه جماعةٌ من أهل الكَفْر، فسلك طريقه بين المتحشِّرين حتى وصل إلى الهيكل، وقدح هناك شراراتٍ لإشعال القنديل. تراقصتِ الظلالُ بين رءوس الحاضرين، وسكَنَتْ حركاتهم والنحيبُ.

انقطع صوتُ الناس كأن القيامة قد قامت، فقام هؤلاء من قبور موتهم يترنَّحون. بسط الكاهن ذراعيه، وراح يتلو بخفوتٍ واضطرابٍ: *بسم الآب والابن والروح القدس، آمون، نتلو من بشارات الإنجيل هذه الآيات الحافظات المباركات، المجد..*

قطع الصلاةَ أزيزُ الباب، فالتفتَ إليه الجميعُ فَزِعين. دخل

الكنيسةَ أبو دميانة وقد أمال الهمُّ عنقه الطويل إلى الأمام، وإلى الخلف منه جاء معه رجلٌ قصيرٌ لا أعرفه. سلكا بين الحاضرين حتى وصلا إلى حاجز المذبح الخشبي، وسط ذهول الناس وحنق الكاهن لانقطاع الصلاة. سأل أبو دميانة بصوتٍ عالٍ لا خوف فيه، عما إذا كان أهل الكَفْر جميعًا حاضرين، فلما أجابته همهماتٌ موكِّدةٌ، قال ما معناه: نشكرُ *الربَّ على كل حال، هذا يا أهلَ الكَفْرِ قريبي بسادة، أبو شيرين. هو من أهل بنها، وقد أخبرني الآن أن الفرس لم يتحرَّكوا بعدُ من حصنهم الكبير، لأنهم ينتظرون وصول بقيتهم من نواحي الفيوم وبلاد الصعيد، ولن يصل أولئك ولا هؤلاء إلا بعد أيام، مهما أسرعوا. فلا تفزعوا. وأبو شيرين يعرف كلام الفرس، وكثيرٌ منهم يعرفونه، لأنه زار بلادهم مرتين، وهو يعمل منذ سنين مع جنودهم. وسوف يبقى معنا هنا، حتى تنكشف عنا هذه الغمة، ويزول البلاء.*

كان الكاهنُ شُنُوتَه قد أشعل القنديلين اللذين على جانبي المذبح، فجاءنا الضوءُ من هناك حَيِيًّا. نفض رداءه واستدار ناحيتنا، وبصوتٍ غاضبٍ قطع كلام أبي دميانة ليقول: جنودُ *الفرس كفارٌ، لا يراعون حرمةً لأحدٍ لأنهم لا يعرفون الديانة، ولا يصلُّون ولا يصومون ولا يقدِّسون. لكن الربَّ يراقب أعمالهم من سماواته، ولن يدعهم هكذا بلا عقاب، فقد سلبوا الأواني المقدسة من الكنائس، وهم الذين..*

قاطعه أبو دميانة بحزمٍ: *مهلًا يا أبونا، ليس هذا وقت العظات والإدانات*.. ثم التفتَ نحونا وحَجَبَ وراءه الكاهن، وقال: إن هناك أمرًا مهما لا بُدَّ من القيام به، فبعضُ الكفور والبلدات خرج أهلها إلى الصحراء بما يملكون، ليختبئوا في خيام الأنباط. والبعضُ سيختبئ بمتاعه بين الغيطان وعروش العنب، فيرقُبون الفرس من بعيد، ويبتعدون عنهم حين يلوحون. لكن الخوف والخطر يأتيان مع طلائع جيشهم، فهؤلاء يأتون على الخيول فيدهمون النواحي ليلًا، وينهبون ويحرقون البيوت، كي يمرَّ الجيش في الصباح آمنا من كمائن جند هرقل.

أضاف أبو دميانة بصوتٍ أعلى، بعدما ابتلع ريقه: *يقولُ الناسُ إن هرقل هو الذي سمح لهم بالخروج من بلادنا، بما يحملون. وإن صَحَّ ذلك، فلن تقع بينهم حروب. وقريبي البنهاوي، أبو شيرين، يرى أن نجمع من الماشية وطيور البيوت ما نستطيع، فإن جاءوا ليلًا أو نهارًا، تحدَّث هو إليهم وأعطاهم ما جمعتم، فيتركونكم سالمين*.

سكت الناسُ من فرط الحيرة، وبعد حينٍ تنهَّد أبو دميانة بحرقةٍ، ورقَّ صوتُه وهو يقول: إن الفرس يعرفون أن هذا الكَفْر فقيرٌ، ولا شيء فيه. ولسوف يقنعون بما يأخذون، لأنهم متعجِّلون، وسوف يفضِّلون نهب البلدة البيضاء.

صاحت أمُّ نونا بأن البلدة البيضاء خلت من الناس والمتاع،

فقاطعها الكاهنُ بأنهم سينهبون كنيستها المليئة بالأواني الذهبية والصُّلبان، ويأخذون ما سوف يجدون في البيوت من سقط المتاع، وقد يهدمون قُبة البوابة لينتزعوا من فوقها الصليب الذهبي الكبير، لأن سكانها الكُفَّار لم يأخذوه معهم.. قاطعه أبو دميانة: *دعنا الآن من أواني الذهب وذهبيِّ الصُّلبان، ومن البلدة البيضاء وأهلها، ودعونا نجمع ما نفتدي به عيالَنا وأنفسنا، ولسوف أفتح في الصباح بيتَ حنَّا الكرَّام، لنضع فيه ما يقدر عليه كلُّ بيت، فإن جاءوا أعطيناهم. وإن مرّوا من بعيد، عاد إلينا ما جمعناه. ولسوف أضع بقرتي أولًا، وعلى كل بيتٍ أن يضع ما عنده، وتأتي أمُّ نونا ببقرتها.*

ـ لا، بقرتي عشارٌ، وقد تلد بعد أيام. سآخذها إلى مزارع العنب، وأختبئ بها هناك مع عيالي.

ـ سيدهمونكم هناك ليلًا، وأنتم نائمون.

ـ لن ننام، في الليل ولا في النهار.

اهتاجتِ الكنيسةُ بلغط الحاضرين واشتبك الكلامُ مع الكلام، فزعق الكاهنُ فيهم كي يسكتوا، فلم يسمعوه. صاح فيهم غاضبًا، وقد وقف فوق المصطبة: *اذهبوا إلى بيوتكم واصطخبوا هناك، سوف نقيم القُدَّاس في الصباح..* أطفأ الكاهنُ القناديل، فخرج الناسُ إلى الدرب يتلفَّتون. بعضهم دخل بيته، وبعضهم خرج إلى الساحة يستطلع في الظلام الظلامَ.

الصمتُ مطبقٌ. لا قمر في السماء، والنجومُ تحجبها غلالةٌ من غبار. حتى الضفادع توقَّف منها النقيقُ. لا بُدَّ أن تمساحًا يمر بحافة النهر. البلدة البيضاءُ مطفأة الضوءِ وسورُها حائل البياضِ، والحقول كاحلة الاسوداد.. وقفتُ مشدوهةً في ساحة السوق مع الواقفين، حتى شدَّني بنيامين من كُمِّي، ليدعوني للعودة إلى البيت.

عند بوابة الكَفْر، كانت أمي تستند بكتفها إلى حائط الكنيسة المغلقة، وتهمسُ لنفسها دامعةً، بأدعيةٍ وصلوات. أخذناها ودخلنا الدرب فمشينا فيه صامتين، وكان الكاهنُ شُنُوتَه يسري أمامنا، ولونُ ثوبه يزيد الظلام ظلامًا. دخل بيته، ونحن سائرون خلفه، بلا كلمةٍ يباركنا بها. لم يلتفت نحونا. أظنه لا يحبنا، أو لعلَّ مصابه في أهل بيته كما تقول نونا، أَذْهَبَ عقله.

* * *

ترك بنيامين حجرته وجاء إلينا، فتكوَّم فوق طرف سرير أمي، وبقيتْ هي على الأرض تهزُّ رأسها، وتتلو صلواتها المهموسة. مرَّتِ اللحظاتُ ثِقَالًا، حتى انتبهنا بعد حينٍ من الصمت، إلى أصواتٍ أتتْ من فوق السطح. انتفضنا. هذا صوتُ أقدامٍ تتكسَّرُ تحتها العيدان، فمَنِ الذين جاءونا من فوقنا؟ أتاني صوتُ أمي في الظلام مرتجفًا، وهي تهمسُ مطمئنةً بغير يقين: *لعلَّه ثعلبٌ أو كلبٌ ضال.*

الدواجنُ تبيتُ في حجرة الحبوب، ولن يأكل المعزاةَ ثعلبٌ ولا

كلبٌ ضال، فلا مدعاة للخوف. كـدتُ أطمئن نفسي بذلك، لكـنَّ الأغصانَ طقطقتْ ثانيةً، فارتجفتُ.. بصوتٍ أعلى قليلًا من همس أمي، قال بنيامين: *قد يكون ذئبًا جائعًا، هل أُوقد القنديل*؟ انتفضتْ أمي من فوق سريرها، وخرجتْ إلى الحوش متلفتةً. هي تخافُ على المعزاة من الذئب. خرج بنيامين وراءها يسعى، وردَّني عند باب الحجرة عن الخروج وراءه. هو خائفٌ عليَّ، وحائرٌ، ولكن ما نفعُ بقائي في حجرةٍ لن تحمي، بقَدْر ما تحصر؟ لو دخل داخلون، سأكون مثل دجاجةٍ مذعورةٍ، لا سبيل لها للنجاة من الأذرع الممدودة نحوها.

لن أبقى هنا.. ولكن، ماذا أفعل لو جاءوا؟.. التقطتُ من زاوية الحجرة سكينًا صغيرًا، حادًّا، وخرجتُ وراءهما. إذا دهمني أحدٌ ليأخذني، سأحُزُّ عنقي. لن أترك جسدي لعبث الجند، وهم على أيِّ حال سيقتلونني حالما ينتهون، وقد يقتلني الانتهاكُ. سأذبح بالسكين نفسي، قبل أن أقع بأيديهم، وأترك لهم بدني محزوزَ العنق.

الحوشُ مظلمٌ لانطفاء النجوم.. وقف بنيامين عند باب البيت يتسمَّع، وفي يده خشبةٌ لا تخيف إلا الثعالب، والكلاب الصغيرة، وبقيتْ أمي على مطلع الجذع المائل، تنظر بحذرٍ إلى سطح البيت. بعد لحظةٍ تجرَّأتْ على الصعود إلى السطح، فلحقتُ بها، ولحقني بنيامين وهو يشدني من طرف ثوبي لأنزل. قبل أن أرى السطح، سمعنا أمي تهامسُ شخصًا. عرفتُ من صوته الخفيض، أنه الأخُ

الأصغر لهيدرا السقَّا. نزلتْ أمي قبل أن نكمل صعودنا، وأخبرتنا بأن بعض أهل الكَفْر يترقَّبون من أسطح البيوت. وبعضهم سيقضي ليلته فوق الأسطح وجدار البرابي، لأن البقاء هناك أكثر أمنًا، وقد يتيح طُرق الهروب.

ألم يقل البنهاويُّ إنهم لن يأتوا، إلا بعد يومين؟ قلتُ ذلك لأمي، فقالت: إن أهل الكَفْر يخشون طلائع الفرس، أو جماعات جند هرقـل. فكلاهما غادرٌ فاتك، لا يرحم البيوت النائمة.

بهمةٍ مفاجئةٍ، أخذ بنيامين من حجرة الحبوب أجولةً فارغة، ليفترشها فوق السطح وينام هناك. وافقتْ أمي على ذلك بعد تردُّد، ووافقتني حين رجوتها أن نصعد معه. كان كثيرون من أهل الكَفْر، قد سبقونا إلى أسطح بيوتهم، والبيوت المقابلة لبيوتهم، ليبقوا بقرب جدار البرابي.. الكاهنُ شُنُوتَه ظَلَّ في بيته، ولم يصعد مع الذين يتحرَّكون في الصمت والظلام. أمُّ دميانة أيضًا، لم تستطع الصعود إلى السطح، فباتتِ الليلةَ في حوش بيتها، من غير أن يغمض لها جفن. هي التي قالت ذلك لأمي في الصباح.

نام بنيامين فوق جدار البرابي، وافترشتُ مع أمي سطح حجرتنا. ظلتْ جالسةً وظهرها إلى الجدار المشقَّق، وجلستُ بجوارها أُغالب النعاسَ حتى غلبني. كنتُ أتفزَّع في نومي كلَّما انفلتَ بكاءُ طفل، أو مَرَّ بي كابوسٌ.. قبل طلوع الشمس انتبهتُ، فوجدتُ بنيامين يشخِّر، وأمي جالسةً مثلما كانت. في غَبَشِ الفجر رأيتُ

الناس يتحركون ببطءٍ فوق الأسطح، ويتلفَّتون. الأطفال كانوا يَغُطُّون، ملتحفين بسماءٍ بعيدة، يغسل عنها سَوادَها ضوءُ الشفق.

الشمسُ حنونٌ حين تطلع، قاسيةٌ حين تسطع، حزينةٌ حين تغيب. نهضتْ أمي بوجهٍ شاحب، وراحتْ تنظر إلى أسطح البيوت بأسى، وقد جفَّت من عينها الدموعُ. قبل نزولها إلى حوش البيت، وأنا وراءها، هزَّتْ كتف بنيامين بعودٍ يابس، كي ينـزل فينام في حجرته. قام ونزل معنا، لكنه لم يدخل الحجرة لينام. ظل معنا عند باب البيت المفتوح، يتلفَّت ناحية بوابة الدرب كلَّ حين. قامت أمي كي تهشَّ طيورها من حجرة الحبوب، وبقيتُ على العتبة أحدِّق إلى عين المعزاة. تُرى ما الذي تودُّ أن تقوله بنظراتها؟ كلما أطلتُ النظر في عين المعزاة، تأكدتُ أن لديها ما تودُّ قوله.

لم يخرج الرجال في الصباح، كعادتهم. تجمعوا أمام الدرب في الساحة، وحول بوابة الكَفْر، وتجمعتِ النسوة حول أمِّ دميانة في آخر الدرب، عند باب بيتنا. وبقي الأطفالُ يتردَّدون بين الجمعين، وقلوبهم في غفلةٍ عن الهمِّ الذي انخلعتْ له القلوب الكبار.. النهار بطيء المرور، والذبابُ يتكاثر في الدرب ويعلو منه الطنينُ، والناسُ كُثرٌ لكنهم لا يتكلمون مثلما اعتادوا.. واجمين، يحتمون بنور النهار، ولكنهم يعلمون أن الليل آتٍ لا محالة.

* * *

مَرَّ النهارُ المؤنسُ، ثقيلًا، وأقبل علينا الليلُ الفادحُ.. قبيل الغروب،

خرجتْ أمُّ نونا ببقرتها وعيالها من الكَفْر، كي تبيت بهم بين عروش العنب مثلما فَعَلَتِ الليلةَ الماضية، فقد صعد الناس إلى أسطح بيوتهم، وخرجت هي ليلًا إلى الحقول، كيلا تصعد معهم بعيالها وتترك البقرة.. غابتْ شمسُ اليوم بسرعة، مع أن النهار كان بطيئًا. النجومُ ما زالت محجوبة بالغلالة المفروشة في السماء، والقمرُ لا يزال في مَحَاقه. بأرواحٍ سليبة وأعينٍ مطفأة، دخل الناسُ إلى بيوتهم وكأنها قبورهم.. وبعد حين، ارتقوا الأسطح وهم ينظرون.

هل يأتي لهؤلاء نومٌ، أم يأتيهم غيمٌ يحملهم إلى سماءٍ بعيدة آمنة؟ طيلةَ النهار لم نأكل إلا قَضْماتٍ من خبز، والجوعى لا ينامون. الخائفون أيضًا، لا ينامون. سأبقى جالسةً على السطح بجوار أمي، فإذا حدث حادثٌ من جهة البرابي، أجرى إلى النهر وأسبحُ إلى ضفته الأخرى، فأنجو. أنا أجيد العوم منذ صغري، وقد تغفل عني التماسيح. وإذا جاء الخطر من جهة الدرب، عبرتُ جدار البرابي وجُزتُ منها إلى الغيطان، ولسوف يخفيني عن العيون الظلامُ..

ـ أُمي، كلِّميني.

ـ *ماذا أقولُ يا مارية؟*

ـ أيَّ شيء.

أخذتني إلى حضنها، فأرحتُ على صدرها وجهي. أمي حنونٌ، لكنني أحتاجُ الأمنَ مع حنانها. الناموسُ كثيرٌ حولنا، ونقيقُ الضفادع

يأتينا قويًّا من ناحية النهر، ومن ناحية الغيطان يأتينا صفيرُ صراصير الزروع. صفيرها منتظمٌ وعالٍ. سألت أمي همسًا، عن سِرِّ صفير الصراصير في ليالي الصيف، فقالت بلا رغبة في الكلام: إنه صوتُ ذكورها تنادي الإناث.

ذكورُ الصراصير تنادي بالصَّفير ليلًا، وذكورُ الحمام تنادي بهديلها نهارًا، والقِمْريُّ يطلب أنثاه، بأن ينوح. أنا ما ناداني أحدٌ بأي صوت، ولما نُوديت، لم يهدأ الزمانُ شهرًا واحدًا لألُبي النداء. هل سيأتي العربُ حقًّا قبل موعدهم؟ ليتهم يأتون. والفُرسُ القُساة، ألا يسكب الربُّ في قلوبهم من أنهار رحمته، أو يرسل لهم ملائكة تحملهم على بساطٍ سماويٍّ إلى بلادهم، فلا يدوسوننا. يعودون سالمين، ونبقى سالمين. لو كان عَمِّي..

ـ *يا أمَّ النور.*

الصرخةُ دوَّتْ في الأجواء وشقَّتْ سكونَ الساحة، فتحركتِ الأشباحُ النائمة فوق أسطح البيوت، وأطلُّوا من عليائهم على الدرب مستطلعين. جاءت أمُّ نونا تجرى في العتمة، وهي تصيح بصوت مجانين: يا أمَّ النور.. يا أمَّ النور. حتى وصلت آخر الدرب، حيث ارتمت على المصطبة التي بجوار بابنا، وانفجر بكاؤها. نزل الناسُ إلى الدرب، فتجمَّعوا حولها. ومن بوابة الكَفْر دخلتِ البقرةُ وهي تخور، يحوطها عيالُ نونا، ونونا، بينما أمها تنتحبُ وسط الناس، ولا تجيب عن أسئلتهم.

جاءنا أبو دميانة يستطلع وفي يده فانوسٌ صغيرٌ، وخلفه قريبه البنهاوي. بشفةٍ لاهثةٍ ترتجف، قالت أمُّ نونا لاهثةً، بعدما هدأتْ قليلًا، إنها في ظُلمة الغيطان، شمَّت ما يشبه رائحة ذئب، أو كلب ضال، فخافتْ على بقرتها وعادت بها، وبعيالها، إلى الكَفْر. وعند طرف الساحة الشرقي، ناحية النخلات المجتمعة عند منحدر التلَّة، رأت نورًا يهبط من السماء وهو يحيط بالعذراء.. فتركت خلفها مَنْ معها، وجاءت مهرولةً، لتخبر الناس.

سَكَتَ المحيطون بها لحظةً، ثم تململ بعضُهم واجمًا، وصاح البعضُ الآخر بغير وجلٍ، بعبارات من مثل: هي صادقةٌ وحقِّ يسوع، فهذا أوان تجلِّي السيدة العذراء.. بركاتك يا أمَّ النور.. عنايتك يا عذراء.. رحماتك يا والدة الإله.

بعدما تعالتِ الأصواتُ، خرج الكاهنُ شُنُوتَه من بيته ببُرنس القدَّاس، وراح يزعق في الناس بأن الخلاصَ قد اقترب، سوف ينـزل المخلِّص ويحكم الدنيا، وظهور العذراء هو العلامة.. وبعدما أخذ الجميعَ البكاءُ والنشيجُ، واهتاجتِ النفوسُ، بسط الكاهنُ شُنُوتَه ذراعيه بطولهما، وخرج من الدرب إلى الساحة، كوطواط، وبعضُ أهل الكَفْر خلفه. ترك الناسَ وقَصَدَ الكنيسة، وقد أخذه الحماس فراح يصيح في الفراغ المحيط: أبشروا يا أبناء الرب.. أبشروا يا أبناء الرب.. أبشروا..

أهلُ الكَفْر داخَلَهم أملٌ عظيم، وتضاحك بعضهم متردِّدًا،

بينما تجهَّم الأكثرون.. بعد حينٍ، تصايحتْ أصواتٌ بأن الويلات تأتينا من خطايانا، لكنَّ ربَّنا رحيمٌ بنا، ولسوف ينـزل من السماء فينقذنا.

أسرف بعضهم في التمنِّي، مؤكِّدًا أن البشارة الكبرى قد اقتربت، وأن الربَّ سينـزل بعد ساعاتٍ من السماء.. على عتبة باب بيتنا، جلس أبو دميانة، مهمومًا، ورأسه بين كفَّيه. جئتُ لأجاوره، وأطمئن عليه، فطلب مني بعض الماء ليشرب. أتيتُ له بكوبٍ من ماء الزير البارد، وسألته بعدما شرب إن كانتِ العذراء قد ظهرت حقًّا لأمِّ نونا، فقال بأسًى: هي امرأةٌ مسكينةٌ.

بعد حينٍ، هدأ الجمعُ الذي تحصَّن بآخر الدرب، وتفرَّق الذين ذهبوا وراء الكاهن. تسرَّب بعضهم إلى بيوتهم، وظلَّ الآخرون يتردَّدون بين الدرب والساحة. قام أبو دميانةَ من جواري إلى بيته، فقمتُ إلى المتناثرين في الساحة وقرب بوابة الكَفْر، وجلستُ بينهم.

نام أهل الكَفْر في بيوتهم، إلا جماعة من العجائز والشباب، بينهم بنيامين.. أردتُ العودة إلى بيتنا، لأنام، لأن العذراء لم تظهر ثانيةً والنهار قد اقترب، لكن أمي رفضت وفضَّلتِ البقاء في الساحة حتى تطلع الشمس، أو تنـزل العذراء.. الأمهاتُ أكثر منا إيمانًا بالبشارات.

جي بِنْ يوت

عدنا إلى البيت بعدما اكتمل الشروقُ. أمي نامت على سريرها، قبلي، وبقيتُ أتقلَّب فوق دكَّتي حتى خطفني نومٌ صحوتُ منه، وقد سطعتْ شمسُ اليوم الجديد وعَلَتْ. أُقيم قُدَّاس الأحد، متأخِّرًا عن موعده المعتاد. لم يحضر القسُّ الزائر ولا الشمامسة، ولم ينتظرهم أحد. لحظةَ وصلتُ إلى الكنيسة خلف أمي، متأخِّرتينِ، رأيتُ أهل الكَفْر كلَّهم حاضرين، والكاهنُ شُنُوتَه يتلو عليهم بصوتٍ جهيرٍ وحاجبينِ ينعقدان، آياتٍ من الإنجيل. لما انتهى ناول الجميع، وتناولتُ معهم. هذا الخبزُ لحمُ المسيح، وهذا النبيذُ دمُه. لن يتركنا الربُّ لأنه فينا، والمناولةُ تذكِّرنا بالأمر في كُلِّ مرة. لا بُدَّ أن تُدرك الرحمةُ خِرَافَ الرَّبِّ.

انتهتْ مراسمُ القُدَّاس وظلَّ الناسُ متحصِّنين بالكنيسة، وبقيتِ النسوةُ جالساتٍ عند بابها، وحولهنَّ الأطفالُ يحمونهم ويحتمين بهم. كُلُّهم يتكلمون همسًا وصخبًا، إلا أمي الشاخصة بنظرها نحو

المدى المجهول.. ساعةَ الضحى، دخل الصبيةُ من بوابة الكَفْر متهلِّلين، ومعهم مزيد من البشارات والأخبار السارة: ظهرتِ العذراءُ الليلةَ الماضية في عدَّةِ نواحٍ، والنُّواحُ يعمُّ البلاد، والناسُ في كل مكان يرتِّلون ترنيمة العذراء، المستجدية.

اشتقنا لَكِ يا أمَّ النور، فاظهري

يا أمَّ كلِّ نور

رحمتك تزيح الهمَّ والظلام، فاظهري

يا أمَّ كلِّ نور

ما لليتامى والمساكين غيرُك، فاظهري

يا أمَّ كُلِّ نور

وما مرَّتْ إلا لحظاتٌ، حتى تجمعت أصواتُ أهلِ الكَفْر، وعلتْ جميعًا بالترنيمة المجيدة. وجدتُني أردِّد الكلمات، وأنتحبُ مع المنتحبات. بعد حينٍ صار نحيبُ الترنيم بكاءً، ثم صار بكاءُ المرتِّلين نشيجًا، ثم صار عويلًا يكسِّر قسوة القلوب ويسيِّلها، مثل سلال بيضٍ سقطتْ على الأرض. بقينا، حول الكنيسة، جالسين على التراب، ننتظر مَسَّ المواساة من السماء.

مَرَّ الكاهنُ بين الناس وهو يمدُّ ذراعيه في الهواء، فيرفُّ فوق رءوسنا رداؤه، وهو يصيح: *طُوبَى للودعاء فإنهم يرثـون الأرض،*

طُوبَى للودعاء فإنهم يرثون الأرض، طُوبَى للودعاء.. غاب الكاهنُ في الدرب، ولم ينقطع عنا صوته، حتى اقترب من باب بيته.

بعد حينٍ هدأ الناسُ وسَكَنَ الترتيلُ، إلا قليلًا. الأطفالُ ما عادوا يلعبون، معظمهم يلتصق بالأمهات، وبعضهم ينام حولهنَّ على الأرض. ما عاد أحد يفكر في شُربٍ ولا طعام، مع أن النهار حارٌّ.. أوانَ العصر، جاء أبو دميانة بأرغفةٍ قسَّمها بين أهل الكَفْر، فلم تكفِ الجميع. ذهبتُ مع بنيامين إلى بيتنا، فأحضرنا الأرغفة التسعة المصفوفة في الصندوق الخشبي الذي بحجرة الحبوب، وأحضر غيرُنا غيرَها.. أكل أهلُ الكَفْر على هونٍ، وبَلَّ بعضهم الريق، وخامر النُّعاس الجميع. الكُلُّ هجر البيوت وبقي على التراب، فاتسعت دائرة الجالسين تحت الشجيرات النحيلات، التي بقرب بوابة الكَفْر.

قبيل الغروب خرج الكاهنُ من بيته، إلى الدرب، وصوته يعلو كلَّما اقترب: *طُوبَى للحزانى فإنهم يُعزَّونَ، طُوبَى للحزانى فإنهم يُعزَّونَ، طُوبَى للحزانى*.. لما صار فوق رءوس الجالسين، صاح بأنه سيقيم قُدَّاسًا ساعةَ الغروب، وبعده نخرج جميعًا إلى الساحة، لننتظر ظهور العذراء. علا صياحه وهو يقول: *لن نعود إلى بيوتنا، آمنين، حتى تنـزل إلينا العذراء وترفع عنا الهوان، وينـزل بعدها الربُّ يسوع ويجعلنا ملوك الأرض، ويجعل لنا*..

سكت الكاهنُ عندما قاطعه أبو دميانة، رافضًا مبيت أهل الكَفْر

مكشوفين في عراء الساحة، خشيةَ أن تفجأهم الويلاتُ هناك، فلا يملكون منها فِكاكًا أو هربًا. هَزَّ بعضهم رأسه موافقًا، ونظر بعضهم إلى الكاهن مستطلعًا. أمي ظلت شاردةً، تحدِّقُ نحو التراب بعينٍ أزاغها هولُ الذهول. زَعَق الكاهن، وتقطَّع صوته وهو يقول: *أبشروا، أبشروا، فلا خطر علينا ولا خوف، ما دامتِ العذراء قد ظهرت. أبشروا، فقد اقترب نزول المسيح، أبشروا بقُرب الخلاص.. أبشروا.. أبشروا.*

اضطرب الجميعُ، ودَاخَلهم وَجَلٌ عظيم ترتجف منه الأبدان. كاد الكلامُ يستقيم للكاهن، وقياد الناس، لولا أبو دميانة الذي تخطَّى الرقاب حتى اقترب منه، ونازعه بقوله:

ـ *يا أبونا، الخطرُ آتٍ والخوفُ مقيم، فلا تأخذ أهلنا إلى هلاكهم.*

ـ *لا تأخذهم أنت إلى الضلال والخطيَّة، فلن ينقذهم إلا الإيمان.*

ـ *قد لا تظهر العذراء يا أبونا، ويظهر الجندُ أو اللصوص. فالنواحي مضطربةُ الأحوال، ولا نعلم ما يخبئه لنا الليل.*

ـ *ماذا تقول؟ ماذا تقول؟.. لن تظهر العذراء! هذه وحقِّ يسوع، هرطقةٌ وكُفْرٌ صريح..*

ـ *يا أبونا..*

ـلن أُضيِّع وقتي معك. سأقيم القدَّاس، ومَنْ كان يؤمن بالمسيح، فَلْيتبعْني.

الظلامُ تسلَّلَ حتى سكن جوفَ الدربِ، وتمدَّدَ حتى بسط على الساحة غُلالته السوداء. السماءُ العالية ظلت على غَبَشها الحاجب لضوء النجوم، وقمرُ الليلة لم يزل غائبًا في محاقه. قام البعضُ إلى داخل جدران الكنيسة، منجذبين كالهوام إلى ضوء القناديل التي أوقدها الكاهن. القناديلُ ارتمى ضوؤها على الدرب، ضعيفًا، ورسم على الأرض بابًا باهتًا، أمام باب الكنيسة. جذب البابان كثيرين من أهل الكَفْر، ووقف الباقون عند مدخله، مع أبي دميانة، وهو يدعوهم إلى تجهيز فديتهم للخلاص، إذا أتى جندُ أولئك أو هؤلاء.

لم تدخل نونا مع أمها إلى القُدَّاس، وبقيتْ متحيِّرةً بين بابيِ الكنيسة وبوابة الدرب، ولما قال أبو دميانة: لا تبخلوا بما عندكم، فتندموا. سألته بجرأة: *لمن نجمع الفدية، لجند هرقل أم لجيش الفُرس؟* قال: *للأوَّلين منهما وصولًا*.. قالت بالتياعٍ حزين: *وإذا أتى بعد الأوَّلين الآخرون، فماذا نعطيهم؟*

تدخَّل أبو شيرين، البنهاوي، مُقترحًا أن نجمع فديتين. لأولئك ولهؤلاء. فإذا جاء الفرس أولًا، تحدث إليهم وأعطاهم نصف الفدية، واستبقى نصفها الآخر تحسبًا لمجيء جند هرقل. أكَّد أبو دميانة كلام قريبه، ووصفه بأنه أفضل رأي، ثم أضاف: *وقد يرحمنا الربُّ، فلا يمر من هنا أيٌّ منهما، فتعود إلينا الفديتان.*

سكت الجميعُ فجأة، حين مَرَّ بينهم العمُّ قُلْته الصياد، يتقدَّم أسرته. لم يلتفت أحدٌ منهم إلى أحدٍ من الواقفين، وعبروا ببطءٍ إلى الساحة كأنهم موكب كآبة. أوقفهم أبو دميانة، بأن أمسك قُلته الصياد من كُمِّ جلبابه وسأله عن وجهته، فأجابه بأنهم لا يملكون ما يفتدون به أنفسَهم، ولا يثقون بكلام الكاهن، ولا يستطيعون البقاء فوق سطح بيتهم لهشاشته. ولذلك، فسوف يخرجون إلى النهر ويبيتون في القارب.. همس بنيامين في أذني، ساخرًا: *يهربون من سيوف الجند إلى أسنان التماسيح.*

أخذتنا أمي خلفها، ومضتْ في الظلام إلى نهاية الدرب. سرنا وراءها صامتَيْنِ، حتى افترشتْ عتبة بيتنا، وقالتِ امكثا هنا. قبل أن نسألها، همستْ لنا بأن الباب الخلفي لقصر الجابي، غير مُوصدٍ من الداخل، وإذا دفعناه فسوف يندفع. فإذا جاء من أول الدرب عدوٌّ، رأيناه من موضعنا وهربنا إلى القصر، وخرجنا من بوابته الكبيرة إلى ظلام الغيطان. وإذا جاءت أصوات من داخل القصر، خرجنا من الدرب إلى ظلام الساحة، وجرينا إلى عروش العنب متستِّرين بحلكتها.. وافقها بنيامينُ فيما قالت، لكنه دعاها إلى الجلوس فوق المصطبة، خشيةَ دبيب العقارب في الليل حول العتبة. قامت، وبقينا جالسيْنِ حولها حتى ضمتنا بذراعيها، فداعب عيونَنا الوسنُ وغالبتنا الوساوسُ.

لا صوتَ إلا صرير صراصير الزرع، وأصداءُ نقيق الضفادع. ذكورُ الكائنات لا تزال تدعو إليها الإناث، غير عابئةٍ بمجيء

الجنود.. في حضن أمي، تمنيتُ في لحظةٍ لو كنت ضفدعة. لكني لفظتُ أمنيتي، حين انتبهتُ إلى أن التماسيح الصغيرة والحيات الكبيرة والقراميط، تلقمُ الضفادع كلَّ ليلة بغير رحمة.. ثم تمنيتُ لو كنت تمساحًا، لكني أكره شكل التماسيح، وأهل الكفور يضعون لها الجير في جلود الخراف المذبوحة، فتأكلها من عند الضفاف وتموت وحدها في الماء.. ثم تمنيتُ لو مِتُّ أيام طفولتي، أو يومَ تزوَّجَتْ دميانة، ولكن أبونا باخوم قال لنا: *مَنْ يرجو الموت، فليس مؤمنًا ببشارة المسيح*.

هل يفكِّر بنيامين الآن فيما أفكر فيه، أم هو يتمنى لنفسه أشياءَ أخرى، مستحيلةً هي الأخرى؟ لا أعرف ما الذي يدور برأس بنيامين، لكني أعرف رأس أمي المسكينة، فهي لا تفكِّر إلا فينا.. بعدَ ساعة سكونٍ، كَبَسَ الأسى قلوبنا فأخذنا النومُ قسرًا، وظهورُنا إلى حائط بيتنا. في جوف الليل انتبهتُ، فكان رأس بنيامين على حِجْر أمي، ورأسي على صدرها. سألتها أن تهجع برهةً، فلم تردّ عليَّ. رفعتُ وجهي إليها، فوجدتها تبكي من غير صوت. لو أعرف أنها ستطاوعني، لأخذتها في حضني كي تنام. أنا ما عدتُ صغيرة، ويمكنني احتضان أمي، لكنها لن توافق. جلستُ بجوارها وظهري مثلها إلى الحائط، وسألتها بصوت خفيض: أين ذهب الناس؟ فقالت بلفظٍ عليل: إن بعضهم نام في الكنيسة، وبعضهم في طرف الساحة، وبعضهم عند النهر.

قبل شروق الشمس، جاءتْ جلبةٌ كبيرة من ناحية الساحة، وأصواتٌ كثيرة. ارتجف قلبي، وانتبه بنيامين، وانتفضتْ أمي فزعةً. مشيتُ وراءها وهي تمضي في الدرب مُستطلعةً، بحذر. الخدرُ يمسك ساقيَّ، والخوف يُبطئ خُطاي. في منتصف الدرب، رأينا جماعة من العرب يدخلون من البوابة، وحولهم جماعة من أهل الكَفْرِ يتقدَّمهم أبو دميانة. استدارتْ أمي نحوي، وقالت وهي تدفعني بكفَّيها، مترفِّقة بي بقَدْر المستطاع: عودي *إلى البيت، أسرعي.*

لم ألتفتْ ورائي، لكن جلبة الأصوات تلاحقني. بعض الصبية المسرعين نحوي، أدركوني في نهاية الدرب فالتفوا حولي ولفوُّني بالمضطرب والمتداخل من كلامهم: *العرب جاءوا.. جاء خطيبُك العربي.. في الساحة جمالٌ.. يا مارية..*

* * *

دخلتُ إلى الحوش مسرعةً، ورددت خلفي بابنا لأخلص من صخب الصبية والصبايا. حائرةً جلستُ على عتبة حجرة بنيامين، بين الباب والمعزاة، فرأيتها تنظر في عيني وتهزُّ أذنيها كأنها تعرف شيئًا.. لماذا جاء العربُ الآن؟ لإتمام الزيجة، أَمْ ليستردوا هداياهم ويسترجعوا الأَربون؟ هل تبدَّد أمرُ الزواج لاضطراب الأمن، أَمْ أنهم..

جاء من الدرب صوتُ الأقـدام مع جلبة القادمين، فازداد

اضطرابي، وتعلَّقتْ عيني بباب البيت. دخلتْ أمي وهي تشير إليَّ بأصابعها النحيلة كي أُسرع بدخول حجرتنا، فانتفضتُ إلى هناك. أمي دخلت إلى الحوش، وراءها جماعةٌ تدل أصواتهم على أنهم كثيرون. وقفتُ أتسمَّع من خلف باب حجرتنا، فوصلتني الأصواتُ متداخلةً. بعد لحظاتٍ دخلت عليَّ أمي، وعلى رأسها ماجورٌ فيه ماءٌ وبيدها اليمنى الصابونة والمشط. بصوتٍ متهدِّج همستْ لي بأن أستحمَّ بسرعة، وألبس ثوبًا جديدًا. أخبرتني من دون أن أسألها، أن بنيامين ذهب إلى أمِّ نونا، ليأتي من عندها بأرغفةٍ للفطور. تنهَّدتْ قائلةً، كأنها تحادث نفسها، بأنها سوف تضع أمامهم أطباقًا فيها فولٌ نابتٌ وبلحٌ وعسلٌ وطحينةُ سُمْسُم، ثم استدارت لتخرج إليهم بعدما أكَّدتْ عليَّ، أن أخرج عليهم في زينتي فور فراغهم من فطورهم. لم أردّ. عادتْ من عند الباب، فاستلَّت من قفصِ البوص الثوبَ الجديد الأصفر، الذي على هيئة العباءة، ووضعته على سريرها مبسوطًا ثم شدَّت وراءها باب حجرتنا.

كيف جاء خاطبي، والطُرُقُ خطرةٌ؟ ربما كان يعرف طرقًا أخرى مأمونة، كتلك التي سلك فيها بطرسُ الجابي إلى الصعيد. ولماذا جاء مع أقاربه الآن؟ الآن سأعرفُ، وسأعرفه.. على عجلٍ خلعتُ ثوبي، وغسلتُ بالماء شعري وجسمي. قبل ارتدائي الثوب جمعتُ خُصلات شعري المبلَّل، وضفَّرت أطرافه فقط، كي يبقى أعلاه مرسلًا محيطًا بوجهي من تحت طَرْحتي، فأكون أمام الناس أجمل.

دخلتْ أمي، وأنا أخطُّ بالكحل عينيَّ، تدعوني إلى الخروج من فوري.

نورُ الشمس يغطي حائط الحوش، بحمرةٍ خفيفة. بابنا مفتوح، والرجالُ جالسون قُرب زير الماء، على فُرُشٍ، وظهورهم إلى سور قصر الجابي. مضيتُ وراء أمي مُنكَّسَةَ الرأس خجلًا، حتى أجلستني قبالتهم على عتبة حجرة بنيامين. كدتُ أبتسمُ للمعزاة، حين نظرتْ نحوي بعينٍ تتعجَّبُ لاختلاف الحال، وتُعجبُ بلون الثوب.. كان أبو دميانة، بعدما رفعتْ أمي الأطباق، هو أول المتحدثين:

- *يا مارية، هذا خاطبُكِ جاء ليأخذكِ معه. جاء قبل الموعد بسبب الفوضى التي تعمُّ البلاد، وهو يريد أن ترحلا عصرَ اليوم، عقب إتمام الزيجة. فما رأيك؟*

- *اسألْ أمي.*

- *هي موافقةٌ، وأنا أيضًا، وبنيامين موافقٌ.*

- *ولكن..*

توقَّف الكلامُ عند طرف لساني، فنظرتُ في الوجوه بغير قصد. ملابسُ الرجال الثلاثة متشابهة، كلها خطوطٌ طوليةٌ وسيورٌ عِراض، كما هو معتادٌ في عباءات العرب. تكلَّم أكبرهم سنًّا، فشخصتُ إلى وجهه الصارم، وثبتتْ عيناي عند الشعرات البيضاء المبثوثة في لحيته الرقيقة، مدبَّبة الطرف. قال إنه أخو خاطبي الأكبر، وثالثهم هو أخوه الأصغر منه، الكاتب.

سَحَبْتُ ناظريَّ إلى وجه الكاتب، فعرفته من عينيه الواسعتين ونظرته الخفيضة. هو الذي لم يشرب كأسه يوم الخطبة. أنفه دقيقٌ ولحيته رقيقةٌ، وحاجباه، وانسدال غطاء رأسه على جانبي وجهه، رقيق. كُلُّ ما فيه رقيقٌ.. خاطبي يجلس مبتسمًا بين أخويه، الكبيرِ الذي يتكلم، والكاتبِ الصامت. هو نحيلٌ، له رأسٌ صغيرٌ وعنقٌ طويل، وفي عينيه كما قالت أمُّ نونا، حَوَلٌ طفيف. عيناه ضيقتانِ، وأنفه كبيرٌ لا يناسب فمه الصغير المتهدِّلة عليه خصلات شاربه. في لحيته شَعَثٌ مقبولٌ، وفي ملامحه طيبة. كان يبتسم لي، ولا يقول شيئًا.

سأعيشُ معه عمري كله، في الصحراء؟ وسأترك هنا أمي وبنيامين، وهذا الكَفْر الخائف الحزين.. ردَّني عن هيماني سؤالٌ قاله أبو دميانة وهو ينظر نحوي، ويهزُّ ركبتيه: *هل فهمتِ يا ماريه، ما قاله أخو زوجك؟* هززتُ رأسي وقلَّبت في الهواء كفي، بما معناه أنني لم أفهمه جيدًا. فقال أبو دميانة بكلامنا: إن العرب عندهم دومًا آخر الأخبار، لأنهم يتنقَّلون كثيرًا ويقتربون من كل النواحي، وأخو زوجك كان يقول: إن هرقل وجنوده اتفقوا مع ملك الفرس المسمى كسرى، على الخروج من بلادنا بسلامٍ وبلا تخريب، كي يضمن الروم لأنفسهم جباية الضرائب من بعدهم. والفرس سيحصلون مقابل خروجهم المسالم، ودخول جند هرقل آمنين، على قَدْرٍ من المال. ولسوف يخرجون بعد شهرين أو ثلاثة، ليس قبل ذلك.

ويسلكون عند خروجهم، الطرقَ الشرقيةَ التي عند حوافِّ الأرض الخضراء، المحاذية للصحراء، كي لا يدهسوا البلدات والكفور في طريقهم، فتخرُب النواحي.. قاطَعَه بنيامين:

ـ *فلماذا العجلة في إتمام الزيجة؟*

ـ *لأن العرب سيرجعون إلى بلادهم، ولن يعودوا قبل شهور، بعدما تهدأ الأحوال وتستقر البلاد بيد جند هرقل.*

فجأةً، قلتُ دون تدبُّر: إنني لن أترك أمي ورائي. ضحك أبو دميانة وهو يردُّ عليَّ مُطمئنًا، بأنها ستبقى آمنةً في بيتها، بين أهلها، وقد انكشفتِ الغمَّةُ وتبدَّدَ الخوفُ. نشكرُ الربّ. قال أبو دميانة ذلك، وهو يهزُّ رأسه من فوق عنقه الطويل، ثم التفتَ إلى بنيامين وطلب منه أن يذهب إلى الكاهن شُنُوتَه فيدعوه إلينا، حتى نُرتِّب مراسم الزيجة.

قام بنيامين من فوره، وقامت أمي لتضع إبريقَ ماءٍ وأكوابًا، أمام خاطبي وأخويه.. سنحتْ لي الفرصةُ للتفرُّس فيهم. ملابسهم نظيفةٌ، وفي وجوههم صرامة، ومعهم سيوف. كيف سأعيش بينهم؟ خاطبي يبدو مقبولًا. هو ليس كبير السِّنِّ حسبما ظننتُ، لكنه أكبر بكثيرٍ مني، أخوه الأصغر منه أجمل منه. لكنه ليس الخاطب، فلن أهتمَّ به. هو لا يعنيني. وقد جاء خاطبي ليأخذني، ولم يمنعه عني اضطرابُ الأحوال. هو رجل طيب، ولا بأس به، غير أنه ينظر ناحيتي بإمعان، فلا أعرف من حَوَلِه إن كان ينظر إليَّ، أَمْ للمعزاة.

ألا يمكنه أن يأخذ معي أمي وبنيامين، فنعيش جميعا هناك؟ هل أطلب منه ذلك، أَمْ أكلِّم أمي أولًا في الأمر؟.. قمتُ إلى حجرتنا، وأشرتُ إلى أمي خفيةً، فجاءتْ ورائي. وراء الباب قلتُ لها ما أتمناه وأودُّ طلبَه، فتبسَّمتْ للمرة الأولى منذ أيام، وقالتْ: *لا يا مارية، سأبقى هنا في بيتي، وسوف تأتين لزيارتي مع أطفالك. لا تقلقي عليَّ يا ابنتي. هيَّا، هذا صوتُ أبونا شُنُوتَه.*

خرجتُ خلفها، فألفيتُ الكاهنَ يسأل خاطبي، إن كانوا واثقين بما أذاعه الناسُ عنهم، من أخبار الاتفاق بين جند هرقل وجيش الفرس. فأكَّد أخوه الأكبر الكلام. أمسك الكاهنُ بيده اليمنى الصليب المعلَّق على صدره، وهزَّه مرتين قبل أن ينهض، وهو يقول ما معناه إننا في أيام صوم، ولا يجوز التزويج إلا بإذن الأُسقُف. سكت لحظةً ليرى القلق في عيوننا، ثم قال إنه استأذن في ذلك قبل أيام، من أسقُفِ بنها.. استغربتُ كلامه، فقد أخذ قفص الطيور إلى أسقف الزقازيق، لا بنها. لا فرق. لم أقاطعه، فاستكمل كلامه مؤكِّدًا أنه لا مانع من إتمام الزيجة عصر اليوم، في الكنيسة طبعًا، فالزواج لا يصحُّ إلا هناك. هكذا قال. ثم انتفض واقفًا بحماسٍ مفاجئ، مُعلنًا من دون أن يبتسم: *نلتقي عصرًا في الكنيسة، سأذهب الآن لتجهيز المكان.*

لحق به خاطبي عند باب البيت وأعطاه سرًّا، شيئًا، أظنه دراهم. افترقا مبتسمَيْنِ. مضى الكاهنُ في سبيله، ووقف عند الباب خاطبي،

سلامة، داعيًا أخويه إلى الانصراف، حتى يُفسحوا لنا المجال للاستعداد للعرس.. وابتسم لي وهو يقول: زواجنا مبارك بمشيئة الربِّ.

ما كادوا يخرجون من باب البيت، وراءهم أبو دميانة، حتى دخلتْ علينا أمُّ نونا متهلِّلةً، كأنها كانت تختبئ بآخر الدرب. قبَّلت أمي وقبَّلتني، ثم أطلقتْ زغرودةً لم أسمع أعلى منها، فجاوبتْها زغاريدُ أتت من وسط الدرب. أمي لا تعرف كيف تزغرد. خرجتْ أمُّ نونا بعدما قالت لي: *عُرْسٌ مُبارك يا مارية، أرأيتِ، جاء زوجكِ في الوقت المناسب. سأذهب لنستعد، نلتقي ساعةَ العصر.*

دارت أمي حول نفسها نصف دورةٍ، وقلَّبت كفيها، ثم غطتْ وجهها براحتيها وأجهشت. أسرعتُ إليها فأجلستها على عتبة حجرة الحبوب، وأسرع بنيامين إلى باب البيت فأغلقه، وجاء نحونا. أخذتُ أمي إلى حضني، لأول مرةٍ في حياتي، فطاوعتني وبكتْ على صدري. جثا بنيامين أمامنا واحتضننا معًا، فبكينا.. قامت أمي بعدما مسحت وجهها، فكأنها صارتِ امرأةً أخرى، غير تلك التي أسالت الدمع قبل لحظةٍ. قالت لنا: *هيا، لا وقت لدينا وأمامنا عمل كثير، أحضرْ لي يا بنيامين قفصين كبيرين من أيِّ بيت، واسألْ أمَّ نونا إن كان لديها كَعْكُ صيامي، واكنسِ الكنيسةَ ورشَّ أرضها وما حولها، وأنتِ يا مارية أوقدي الفرن، فلا بُدَّ للناس أن يأكلوا ولا خبز لدينا، سآتي بالعدس..*

دَقَّ أبو دميانة باب بيتنا المفتوح، وقال فور دخوله إنه سيتولى أمر الغداء، وكلُّ بيتٍ سيأتي بما عنده، فلا توقدوا الفرن الآن لأن الوقتَ ضيقٌ. انصرفَ فأسرعتْ أمي إلى قفص الأثواب الجديدة، وأخرجتها لتصُفَّها مطويةً فوق بعضها، في زكيبة جديدةٍ من كتانٍ كانت تخفيها تحت سريرها. أشارت إليَّ فخلعتُ الثوب الذي عليَّ، وناولتها إياه، فطوته مع البقية بعدما استبقتِ العباءة الأخرى، التي بلون السماء، لتكون ثوب عُرسي المفاجئ.

ساعةَ العصر رتَّلتِ النسوةُ والفتيات، بكلامنا، لحنَ الأعراس المعتاد: *شيري ني مارية*. أي السلامُ لكِ يا عذراء. خرجتُ إلى الكنيسة في العباءة الجديدة، وعلى رأسي سِتْرُ رأسٍ أسود، حريريٌّ، أعدَّته أمي على عجل، وخاطت حوافه بخيطٍ أبيض منفوش. الدرب مرشوشٌ، ضيقٌ من كثرة النسوة والعيال، والرجال بآخره عند الكنيسة. الكُلُّ متعجلٌ. لمحتُ أمام البوابة موائد سيأكل عليها الناس بعد العرس، ورأيت عند الكنيسة كثيرًا من رجال الكَفْر. كُلُّ أهل الكَفْرِ في الكَفْرِ، وسيشهدون زواجي من رجلٍ غريب لا يعرفونه، ولا أعرف عنه غير اسمه وملامحه.

مضيتُ في الدرب، وأخي بنيامين بجانبي في جلبابٍ جديد. شفتاه تبتسمانِ، وعيناه حزينتان. أمي خلفنا تحوطها النسوةُ، والزغاريدُ تأتي عاليةً كالصراخ، وقدماي تحت الثوب ترتجفان. في الكنيسة يقف سلامة، سلومة، وأخواه وآخرون من العرب. لا

نساء معهم. دخل أهلُ الكَفْر إلى الكنيسة ورائي، وكان الكاهنُ عند المذبح يصطنع الوقار، والناس من حولي يتكلّفون إظهار السرور. لم تكن بالكنيسة شموعٌ تُضاء، ولا دُقَّتْ لي النواقيس، ولا رتَّلَ الشمامسةُ اللحن المعتاد: *مُبارك الآتي باسم الرب*.

بعدما حَرَقَ البخور، بدأ الكاهنُ المراسم بموعظةٍ قصيرةٍ، أكَّد فيها ما نعرفه من أن الرجل رأس المرأة، لأن حواء هي التي غَوَتْ، وآدم ما غوى، لكنه اكتوى بنار الخطية. ولأن الرجل لم يُخلق من أجل المرأة، بل المرأة خُلقت من أجل الرجل. هكذا قال. ثم قرأ من الإنجيل: *ليخضعن لرجالهن كما للربِّ، لأن الرجل هو رأسُ المرأة، كما أن المسيح رأسُ الكنيسة*.

لم يقرأ الكاهن الأواشي المعتادة، فليس هناك شمامسةٌ يرتِّلون خلفه. تمنيتُ لو أنشدوا لي بالنغمات، ولو أُوشِيَّةً واحدة. لكنَّ الكاهن تلا علينا الكلام الطويل الذي يسميه قانون الإيمان، فتقدَّمتُ مع زوجي إلى ناحية الهيكل، وقدَّم لي هناك صليبًا ذهبيًّا دقيقًا.. حين أخذته من يده، تصايحتِ النسوة وابتهج الحاضرون، لأنها علامة قبولي الزواج ورضوخي له.

دَهَنَ الكاهنُ جبهتينا على عَجَلٍ، بالزيت المقدس. زيتِ الميرون الذي قُرئت عليه صلوات، فصار مقدسًا. بوجهٍ صارمٍ وحاجبين ينعقدانِ ويدين ترتعشان، وضع الكاهنُ على رأسينا إكليلين من المعدن، ثم أوصاني الوصايا المعتادة: *اسمعي يا ابنتي وانظري*

وميلي بسمعكِ، انسي شعبكِ وبيت أبيكِ، فإن الملك قد اشتهى حُسنكِ، وصار هو ربَّكِ.

امتلأتِ الكنيسةُ بالناس، وأتاني من خلفي صخبُ الأطفال محمولًا على رائحة العرق. الأجواءُ حارةٌ ساعةَ العصر، وأهل الكَفْر لم يستعدوا ولم يستحموا.. لما بلغ بي الاختناق مداه، أردتُ أن يُنهي الكاهن المراسم بسرعة. الكُلُّ أراد ذلك. ببطءٍ تلا الكاهن صلوات رفع الإكليل عن رأسينا، وأهل الكَفْر يردِّدون خلفه العبارات التي تبدأ بالكلمة ذاتها: جِي بِنْ يوت.. أي أبانا الذي في السماء.

* * *

خرجتُ من الكنيسة زوجةً للعربيِّ المسمَّى سلامة، ورأسي يدور كحجر الرحى، فيطحن أحلام العُرس الذي طالما تمنيته.. هَمَّ معظمُ الناس إلى الطعام، وبقيتُ أمام باب الكنيسة بين أمي وأخي والعرب. ارتجفتُ حين قال أحدهم، أظنه زوجي: هل نرحل الآن، قبل هبوط الليل؟

ـ أمي. دعيني معكِ الليلة، الليلة فقط.

ـ اسألي زوجكِ يا مارية، فالأمرُ الآن بيده.

ـ لا بأس يا أمَّ العروس، لا بأس. اقضيا الليلة معًا، ونرحل فجرًا. وسوف نأتي ببغلة للعروس، لتركبها.

بفرحةِ الناجين دخلتُ إلى آخر الدرب، وبصخبٍ عميم خرج العربُ إلى ساحة السوق، حيث خيمتُهم المنصوبة بين جمالهم والدواب. لحق بهم بعضُ رجال الكَفْر، ولحقتْ بنا بعض النسوة فصرفتهنَّ أمي، بأن دعتني إلى نومٍ مبكر. قالت: *هيَّا يا مارية، فالطريقُ إلى بلاد العرب طويلٌ*، مرهق.

احتضنني بنيامين مرتين، وبكى، ثم ابتلعه ظلام حجرته. في حجرتنا، دعتني أمي إلى سريرها، فتمدَّدتُ بجوارها واحتضنتُ ذراعها. استمعتُ لنصائحها المتقطعة بنوبات سعالها المهتاج. حتى سحبني من حضنها النومُ، وهي تقول كلامًا من مثل: سوف يحبُّك زوجكِ إذا أعطيته أولادًا، فالولدُ سِرُّ عِزَّتك وسببُ بقائك.. قد تكرهُكِ حماتُك فتصيِّر حياتكِ جحيمًا، فاحرصي على التقرُّب إليها وإرضائها، اتقاءً لشرِّها، وقولي لها: يا عمَّتي أو يا أمِّي.. سوف تغيظك أختُ زوجك، إن كان له أخت، فابتعدي عنها إلى حين.. حين تتمكَّني خبِّئي للزمان أموالًا، لأن ابنكِ سوف يحبُّكِ غنيةً.. لا تتأخَّري عن دعوة زوجك للفراش، فهو يحبُّكِ شهيةً.. لا تتكلمي هناك إلا قليلًا.. لا تعترفي لأحد ولا تبوحي، فالغفرانُ غيرُ مضمون.. تزيَّني كلَّ ليلة..

كالطَّيْفِ، مرَّتْ آخرُ ليلةٍ في حيوتي الخضراء. قبل شروق الشمس بساعةٍ، انتبهتُ لحركة أمي في الحجرة. أرادتْ أن تنبِّهني قبل موعدِ

الرحيل، بالجلبة الرحيمة الناعمة التي ملأتْ بها حجرتنا، وهي تُعِدُّ أغراضي.. فتحتُ عيني، فقبَّلتني وشدَّتني برفق من ذراعي:

ـ *الماءُ الدافئ وثوبُ سفرك، في حجرة الحبوب.*

ـ *الوقت مبكرٌ يا أمي، هذا نصفُ الليل.*

ـ *لا.. الفجرُ قد اقترب.*

خرجتُ من حجرة الحبوب في الثوب الجديد، اللامع، فوجدت أغراضي كلها بالحوش، عند عتبة الباب. بنيامين يجلس بجوارها، وبابُ البيت مفتوحٌ. مع إطلالة الشمس، جاءتْ من جهة الدرب جلبةٌ غير ناعمةٍ ولا رحيمة. خَفقَ قلبي بشدة واشتدَّ بصدري الوجيبُ، حتى تلاحقت أنفاسي وتحيَّرت عيناي.. لا مفرَّ الآن من الأمر، فقد آن وقتُ الفِرَاق.

رأيتُ في الدرب معظم أهل الكَفْر، ينتظرون أمام بيوتهم ليودِّعوني ويعطوني هداياهم الكثيرة: كيسَ حبوب، كعكًا صياميًّا، قطعةَ قماشٍ رخيص.. أُمُّ نونا أعطتني باسمةً، بعدما زغردت، إناءً محكم الإغلاق فيه زُبد. وأعطاني أبو دميانة، قِرْطًا فضيًّا يلمع، فيه فصٌّ أحمر. وعند بوابة الكَفْر أعطاني هيدرا السَّقَّا قِرْبةَ ماءٍ صغيرة، لطيفة، قال: إنها من جلد أرنبٍ بريّ.

لحظةَ رأيتُ ساحة السوق، غمرني الشعورُ بأنني أرنبٌ يريد الاختباء، ولا يجد إليه سبيلًا.. رأسي يدور مع عناق النسوة

المودِّعات، وعيناي زائغتان. بنيامين لم يعانقني أمام الناس، لأنه خجول. لما عانقتُ أمي، أجهشتُ من فرط فزعي، فقرَّبوا مني البغلة ورفعتني النسوةُ فوقها:

ـ أُمي..

ـ الرَّبُّ معكِ يا مارية.

* * *

... أتمنى النظر إلى الوراء، لأرى أمي ونسوة الكَفْر مرةً أخيرةً، لكنني أخشى الوقوع. مضتْ سنوات طوال لم أركب فيها حمارًا، وهي أول مرة أركبُ البغال. حولي صخبٌ يحول دون استماعي لأي شيء، أو رؤية أيِّ شيء.. كأنني الآن أحلم، أو أصحو من حلم، أو أنتقل من حلم إلى حلم. لحظةَ عبرنا الساحة، وجُزنا الطرق الضيقة الممتدة بين عروش العنب، أدركتُ أنني على كثرة المحيطين بي، وحدي.. وعرفتُ أنني خرجتُ من حيوتي الأولى، ولن أعود أبدًا إليها.

الحيــوةُ الثانيــة

صَدْمةُ الصَّحْرَاء

القافلـةُ طويلة. لا يمكنني أن أرى في غَبَشِ الفجر، أولَها. خلفي حماران محمَّلان بزكائب، وأمامي جملٌ يحجبُ ما أمامه. مع ارتفاع الشمس انتبهتُ إلى ابتعادي عن الكَفْر، حين رأيتُ كفورًا أخرى بعيدة، تصحو من نومها. لا أعرف تلك الكفور، لكنني أعرف هذا الطريق لأنني جريتُ فيه، فزِعةً، قبل سنوات. سوف نصل بعد قليل، إلى آخر العالم. أين زوجي؟ أظنه هو الجالسُ أمامي فوق الجمل، يهتزُّ برفقٍ للخلف والأمام ولا ينظر نحوي. لعله يخاف مثلي الالتفات إلى الوراء، وهو جالسٌ فوق هذا العلوّ.

أمسكتُ القِرْبة المهداة، ورحتُ أحسو الماء منها كُلَّ حينٍ، على مهلٍ. ماؤها طيبٌ، وجلدُها مطيَّبٌ ببخورٍ قويّ. قبيل الظهيرةِ اتسع الطريقُ، وصارتِ الشمس عن يسارنا. يتجهون جنوبًا. لم ترتفع الأرضُ، ولم نمرّ بالبقعة التي سميتها يومًا في سِرِّي، آخرَ العالم.. العالمُ لا آخر له، ولا آخر للطرق.

يجب أن تتوقَّف القافلة، أو يكلِّمني زوجي، أو أيٌّ واحدٍ منهم. لكنهم يمشون ويمشون، ويصمتون. عندما اتسع الطريق، اقتربتِ الدوابُّ من بعضها. صارت عروش العنب وراءنا، وخضرةُ الحقول تمتدُّ إلى آخر النظر.. بين الحقول بيوتٌ قليلة، وترعُ ماءٍ نحيلة، ونخيلٌ متناثر.

يجب أن نتوقَّف.. كلما اتسعت بنا الطريق، تناقصتْ من حولي الحقول، وقلَّ اخضرارها. هذه عروشُ البطيخ تفترشُ الأرض، وتحيطُ بثمارها أوراقُها الخشنةُ والفروعُ. وهذه شمسٌ لا أعرفها، حاميةٌ، ولا أعرف هذا الهواء الحامض.. يجب أن نتوقَّف، أريدُ أن أقضي حاجتي.

بعد ساعة عذابٍ أخرى، اقتربنا من أرضٍ فسيحة تشبه البرابي، فيها خيامٌ. توقفتِ القافلةُ عندها، وبقيتُ متألِّمة على ظهر بغلتي حتى جاءني صبيٌّ على حمارٍ. قال لي وهو يبتسمُ: *أنا عُميرو، عمِّي سلومة يُنيخ الإبل، استندي إلى كتفي وانزلي*.. نزلتُ، فسألني إن كنت أريد شيئًا، فأخبرته بما أريد، فدلَّني على موضع يسمونه بيتَ الخلاء، مستورٍ عن الناس بأعواد الحلفا الكثيفة. كان الصبيُّ عُميرو ينتظرني وراء الحلفا، ويتلفَّتُ نحو القافلة وهو يُجيل عينيه في الأنحاء.

* * *

أخذني عُميرو إلى ناحيةٍ فيها خيمةٌ مستطيلة كالسرادق، فيها

نسوةٌ يابساتُ العيون لابساتُ السواد، يجلسن متقاربات ولا يرحِّبن بالقادمين. أشار عميرو إليهن، وقال ضاحكًا وهنَّ يسمعن: *انظري، هذي نساءُ البدو الكئيبات، لن تجدي أكثر منهن شبهًا بالغِرْبان..* رمته امرأةٌ منهن بحصاة، وقالت: امشِ يا جرو.

جرى الصبيُّ وضحكاته تعلو، بعدما قال للمرأة: جرو، *فأنتِ الكلبةُ ذاتُ الأثداء..* لم أفهم من كلامهما معنى الجرو والأثداء، ولم أعرف ما يجب أن أفعل. أجلس هنا، أم أسير وراء الصبي إلى ظِلِّ الشجرات القريبات، حيث جلس الرجالُ ووقفتِ الدواب وقعدتْ الجِمال. قالت لي امرأةٌ منهن: اجلسي هنا، فجلستُ متوجِّسةً مما حولي. بعد حينٍ جاءني زوجي، وأعطاني رغيفًا فيه قطعةٌ من لحم مجفَّف. قلت: إنها أيامُ صومٍ، فقال: لا صيام في السفر. كانتِ المرة الأولى التي يكلِّمني فيها، فأكلتُ وهو جالسٌ بجانبي عند طرف الخيمة، وظهره إلى جهتي وجهة النساء. سألته إن كان يجب أن أجلس معهنَّ، وأُكلمهنّ. فالتفت ناحيتي، أو ناحية الشجيرات، وقال: *كما تشائين..* ناداه رجلٌ فقام من دون أن يقول لي شيئًا، فبقيتُ بموضعي جالسةً. رأسي يدورُ، وأعلى ساقيَّ يسكنه ألمٌ.

زاد الألمُ حين قمتُ، وما ارتحتُ بعدُ من سفرنا الطويل السابق. ما كنتُ قد عرفت، أن سفرنا لم يبدأ بعد. انضمَّت إلينا دوابُّ أخرى، وعربٌ آخرون كانوا ينتظرون في تلك الخيام، فصارتِ القافلةُ حين

سارت، أطول. فيها أكثر من عشرة جمال، وبغالٌ كثيرة، وحمير. حين رفعني زوجي من تحت إبطي، لأركب بغلتي، قال وهو يربت على فخذي اليمنى، فيرجفني: *سوف نسير الآن شرقًا، وبعد ساعتيْ سيرٍ، سندخلُ الصحراء ونترك بلادَكِ.*

أهذه البلادُ بلادي؟.. تحركتِ القافلةُ وقد استطالت وهي تسير في صَفَّين، فكان زوجي يسير بحذائي على الجمل الأخير، ومن ورائنا خطَّان من الحمير والبغال.. أهذه البلادُ بلادي؟..الشمسُ صارت في ظهري، وزوجي أعلى من أن أكلِّمه أو يكلِّمني. هو حتى لا ينظر نحوي، إلا لمامًا. الحقولُ الخضراءُ تباعدت عن بعضها، وازداد اصفرارها. ما عادتِ الترعُ تصادفنا، ولا الزروع الخضراء.. أهذه البلادُ بلادي؟ أنا لا أعرفها. لم أعرف غير كفرنا وسكَّانه، وما رأيتُ غيره إلا الكَفْرَ الكبير وأهلَه، وسورَ البلدة البيضاء الكبير، ونهرنا المارَّ على خَدِّ الكفور.

هذه البلادُ ليست بلادي. ولا الذي أراه منذ فجر اليوم، بلادي. ولا الأرضُ التي تصفرُّ تحت خُطانا، بلادي.. كان لي بلدٌ وحيدٌ، أخضرُ، هو حضن أمي. وقد تركته خلفي ومضيتُ مع رجالٍ لا أعرفهم، إلى حيث لا أعرف، ولا أعرف طريق الرجوع.

امتدتْ ظلالُنا أمامنا، رويدًا، مع اقتراب المغيب. الرمالُ تمتدُّ من حولنا، ويتناثُر في الأفقِ الفسيح نخيلٌ نحيلٌ، البيوتُ لا تمرُّ بنا، ولا عروشُ العنب، وما عادتْ أصواتٌ تأتينا من بعيد أو قريب.. كاد

المغيب يكتمل، فاستولى على السماء احمرارٌ شفيف، وصار الهواءُ أرقَّ وأزكى رائحة. متى نتوقف ثانيةً، ومتى نصل بلدتهم؟

بعدما عمَّتِ العتمةُ حولنا، وعند جدارٍ قديمٍ متهدِّمٍ من أعلاه، أناخوا الجمال على شكل دائرةٍ كبيرةٍ، أوقدوا في وسطها نارًا. استغربتُ أنهم يوقدون، والأيـامُ صيفٌ. جلست عند الجدار وحدي، وقد كلَّت عيناي عن النظر إلى ما يحوطني. كلُّهم رجال. لو كانت هنا نساءُ العرب اللواتي كنتُ أراهنَّ في ساحة السوق، لتكلَّمتُ معهنَّ وأنستُ.. حتى النسوة البدويات، الصامتات، غير موجودات هنا.

جاءني زوجي يدعوني إلى القيام من موضعي، لأن العقارب كما قال: *تسعى بحذاء الجدران..* أضاف: *عقاربُ الصحراء والحيَّاتُ، أقتلُ من مثلها في بلاد الريف..* لم أعرف معنى الريف، ولم أسأله. مضى أمامي إلى الجمل الذي كان يركبه، واستلَّ من فوق ظهره قطعةً من الصوفِ، ألقاها على الأرض بجوار بطن الجمل، وقال وهو ينظر نحوي، ولا ينظر: *الأفضلُ لكِ أن تنامي هنا.*

ـ أبعدني قليلًا عن الجمل، كيلا يعضَّني وأنا نائمة.

ـ هذه ناقةٌ. والنوقُ لا تعضُّ النائمين، ولا الجِمال.

ـ لكني خائفة.

أبعدَ زوجي عن الناقة فَرْشتي، فصارت أقربَ إلى جماعة الجالسين حول النار. جلس بجانبي، فسألته هامسةً عن سبب إيقاد النار والجوُّ حارٌّ، قال: إنهم يفعلون ذلك لإيناس الدواب وإخافة الذئاب، ولسوف تبرد الأجواء بعد قليل.. اقترب قليلًا مني وهو يهمسُ: يحسنُ *أن تُسدلي سِتْرَ رأسك على وجهك، ابتداءً من غدٍ، فلا يصح لغير إخوتي أن يروكِ*.. صدمتني رائحةُ فمه حين اقترب. رحتُ وكأنني أتأدَّب في جلستي، أُولي وجهي بعيدًا، لأُبعد أنفي عن رائحة البصل العَطِن الفوَّاحة من فمه. بعدما قال ما قاله، قام عني فأحضر كيسًا فيه أقمشةٌ، ووضعه على فَرْشتي ليكون مخدتي. وقبل أن يتركني ويجلس في دائرة الرجال، وضع أمامي زكيبةً كبيرة فيها سنابل قمح، كي تحولَ بيني وبين مجلسهم، فأنامَ في ظِلِّها وهي تحجب عني رؤيتهم، ووَهَجَ النار.

* * *

النجومُ صارت بعد حينٍ، أسطعَ ظهورًا، والبردُ ابتدأ نزوله. عَلَتْ ألسنةُ النار التي يُوقدون، وارتفعتْ همهماتهم فصارت كلامًا مسموعًا. تمددتُ في حِمى الزكيبة الكبيرة، فغابت عني صورتهم ووصلتني الأصواتُ. ساقاي تؤلماني ويعسر عليَّ ضمُّهما، ورأسي يطنُّ ويسخِّنه شعري الملتصق به. لكني سأنام على كل حال، فقد أنهكني السفرُ.

التعبُ يشدُّني إلى داخلي لأنام، وأصواتهم تصدُّني عن الإغفاء.

ما بين الشَّدِّ والصَّدِّ، بقيتُ حينًا أتسمَّع ما يقولون وأبكي خلف ستر رأسي، بلا صوت. لا أميِّزُ مما يصلني، إلا صوتَ زوجي ذا النبرات اللينة الخفيضة.. تكلَّموا بكلامٍ كثير، لم أفهم منه الكثير.

ـ كيف كانت رحلتكم إلى..

ـ أيُّ رحلةٍ، والحالُ كما تعلم. لقد عدنا من منتصف الطريق.. الأنحاءُ مضطربةٌ.

ـ هاتوا لنا شيئًا نشربه، وحفنةً من تمر.

ـ أهل قوص صاروا يقطعون الصحراء، ويركبون البحر من بلدة حُميثراء..

ـ البحرُ غادرٌ.

ـ حين تهدأ الأحوال، لا بُدَّ أن نقيم هنا سوقًا للأنباط، أو عدة أسواق.

ـ زواجك مبارك يا سلومة.

ـ وأنتَ، ماذا يؤخِّرُك، امرأتك هلكتْ منذ شهور.

ـ الشراب متغيِّـرٌ.. غيِّـره لنا..

ـ إياك والسُّكْرَ يا قصيو، سنرحل قبل الفجر.

ـ أسمِعونا شعرًا..

ـ *أنا جوعان.*

ـ *اسمعوا: لو كنتُ أبكي للحمولِ لَشَاقَني..*

* * *

من بعد طول تقلُّقٍ، نمتُ. رأيتُ أحلامًا وفيرةً، متقطعةً، لا معنى لها: رمالًا، حوافرَ حميرٍ، أكوامًا من سعف النخيل، قربةَ الماء، عقربًا يريد أن يلدغ، عصفورًا يطير وحيدًا، حدأةً، ألسنةَ لهب.

ـ قومي يا مارية، سنرحل.

أيقظني صوتُ زوجي وهزَّةٌ من يده، فانتبهتُ مذعورةً. كانوا من حولي يحزمون بهمةٍ، متاعَهم الليليَّ الفقير. هيئةُ النجومِ تقول: إن الفجر لن يأتي قبل ساعة. سوف يسافرون ليلًا. ساقاي تتألمان من أعلاهما، وعلى قلبي هَمٌّ ثقيل. أخذني زوجي في الظلام الأسود، وبيده شيء أسود، وذهب بي خلف الجدار العتيق المتآكل. قال لي بعيدًا عن أقاربه، إنه لا بُدَّ لي من تبديل الرداء، وارتداء هذا الثوب المريح، قبل دخول الصحراء صباحًا. أخبرته بأن قِربتي لم يعد فيها ماء، فقال إنه سيملؤها لي من الزِّقِّ، ثم أضاف وهو يوليني ظهره لأستبدل في العتمة ما ألبسه: لا *تشربي كثيرًا في الطريق، كما كنتِ تفعلين بالأمس، ويمكنك قضاء حاجتك هنا الآن، إذا أردتِ.*

خجلتُ منه حتى توارى مبتعدًا، ففعلتُ ما لا بُدَّ منه، ثم ارتديتُ

الجلباب الأسود الواسع ولا شيء تحته، فارتحتُ. العربُ لا يلبسون تحت الجلابيب سراويل. زوجي ينتظرني قُرب حافة الجدار، ويتغنَّى بكلامٍ غير مفهوم. مشى أمامي وكأنه يراني من خلفه، فيعرف ما أعانيه. فقد أخبرني من دون أن ينظر نحوي، بأن الذي يعوِّق خطوي، هو وجعٌ بمقعدتي لعدم اعتيادي ركوب البغال لساعات طوال، ولسوف يزول وجعي هذا بعد أيام.. قبل أن يساعدني لأركب البغلة، وضع قطعة الصوف التي نمتُ بالأمس عليها، على ظهرها، وفوقها قطعةً من كَتَّان. صار تحتي بَرْدعةٌ، مريحةٌ، إلى حين.

تحركت بي القافلةُ ولـمَّا يُشرق الفجرُ. سرنا في الظلام ساعة، ثم بدأ نورُ النهار يدخل في أطراف الليل. سوف تسطع الشمس بعد قليل من أمامنا، وليس أمامي أيُّ خُضرةٍ فوق الأرض. نسير، ولا شيء حولنا إلا الرمال، وفوقها سماءٌ كانت سوداء فصارت حمراء، ولسوف تصير بعد ساعةٍ بيضاء.

الهواءُ طيبُ الرائحة، لأنه لا رائحة له. هذه الصحراء ليست مخيفة، حسبما ظننتُ دومًا. فهي خاليةٌ تمامًا، إلا من الحصى والرمال. ليس فيها ما يخيف، إلا ما ذكره زوجي بالأمس عن العقارب والحيَّات، والذئاب التي تخاف من النار. لكنني لم أرَ شيئًا من ذلك. ربما أراد أن يخيفني، لألجأ إليه دومًا، وربما يقول الصِّدْق. لكنني لا أرى في الأفق جُدرانًا ذات شقوق، لتختبئ فيها

هذه المؤذيات.. لا بيوتَ تقوم على الأرض على مرمى البصر، ولا أشجار، ولا عصافير تطير.

لو يكلِّمني زوجي من فوق ناقته، ليهوِّن علينا الطريق.. لعله غضب مني، لأني لم أفرِّق بالأمس، بين الناقة والجمل. أنا أعرفُ الفرقَ، لكني ما انتبهتُ إليه. ما انتبهتُ إلى أيِّ شيءٍ منذ خرجتُ معهم، ولا شيء حولي الآن لأنتبه إليه.. الوجعُ يعاودُ الدبيب، ويؤلم موضع جلوسي.

القافلةُ تسير أمامي في صفٍّ طويل، بأسرع مما سارت عليه بالأمس. ضوءُ النهار صار مُبهرًا للعيون، ومُتعبًا لها، وأهلُ القافلة لا يتكلمون. الشمسُ فوق رءوسنا، بعيدةٌ، وقويةُ الحضور في الأنحاء. وزوجي قريبٌ، ولا أشعر بحضوره قُربي. ما تلك الرائحةُ الفائحةُ بالأمس من فمه، حين اقترب؟ أظنه أكل شيئًا عَطِنًا، فتعطَّنتْ أنفاسُه..

ـ *انظري عن يمينك.*

التفتُّ يمنةً حين نبَّهني الصبيُّ عُميرو، بعدما تأخَّر بحماره حتى حاذاني. حدَّقتُ، فرأيتُ على مبعدةٍ مني سربًا من جِمالٍ تسير وحدها في الصحراء الخالية. حجبتُ عن عيني ضوء الشمس، بكفِّي اليسرى، فرأيتها عشراتٍ من جمالٍ يسير خلفها رجلان لا يكادان يظهران. سألت الصبيَّ بصوتٍ خفيض، إن كانت قافلة سوف تنضمُّ إلينا، فقال: بل هي إبل ترعى العشب، وتسير إلى نواحي القلزم.

لم أرَ العُشب الذي ذكره، ولا أعرف ما القلزم. تأخَّر زوجي بناقته فحاذاني، وعرَّفني أن الصبيَّ هو ابنُ أخيه الأكبر، الهوديّ، ولسوف يسلِّيني في الطريق ويُسليني عن فراق الأهل، فقد صار اليوم من أهلي. هكذا قال. لم أفهم بعض كلامه، لكنني فرحتُ لأنه كلَّمني، وكنتُ سأفرح أكثر لو ناداني باسمي. قد لا يناديني باسمي، وإنما يدلِّلني بالكلام المحبَّب، فيقول لي بعدما نسكن دارنا: يا نور عيني، أو يا حبَّة القلب، أو يا حبيبتي.. هل يجب أن أناديه باسمه؟ لا، لا يصحّ. فالنسوة لا ينادين الرجال بأسمائهم، ولا يصحُّ أن ينادين أصلًا عليهم.. سلامة.. زوجي سلومة.. سيدي. هذه الأخيرة مهذَّبةٌ، ومناسبة:

ـ متى سنتوقف يا سيدي؟

ـ ماذا؟

ـ متى نتوقَّف؟

ـ عند دَيْرِ العسل.

أخرجتُ على مهلٍ قربة الماء وحسوتُ قليلًا منها، حين رأيتُ زوجي يشرب من القربة المعلَّقة على ظهر ناقته، تلك التي يسميها الزِّقَّ لأنها كبيرة.. الصبيُّ عميرو السائر عن يميني، نحيلُ الجسم بارزُ الأكتافِ، يعصبُ على رأسه الصغير عمامةً مجدولةَ الأطراف، ووجهه باسمٌ دومًا. السِّتْرُ المنسدلُ على وجهي، يضايقني ويضيِّق

أنفاسي، ويضطرني إلى الميل برأسي للأمام. أودُّ لو أنزعه عني، أو أضع بعض الماء عند مكمني والمقعدة، فقد اشتد الألم بأعلى ساقيَّ، مع طول احتكاكي بالبردعة.. لو أنزل عن ظهر البغلة قليلًا، لأرتاح قليلًا، ثم أسرعُ فألحق بهم.

لا شيء في الأنحاء من حولي. حتى سرب الإبل الذي بدا لنا من بعيد، اختفى عن ناظري من جديد. لكنني رأيتُ على الأرض بعد حين، العشب الذي كانت ترعاه. هو ليس أخضر كالعشب الذي نعرفه، وإنما كراتٌ غبراء اللون، قاحلة المنظر، تتدحرج على الأرض مع دفعات الهواء. لا شيء يمنع نزولي عن البغلة لوهلة، سأطلب من زوجي ذلك، لا أظنه سيرفض فهو يكلِّمني دومًا برفق. أو أُكلِّم الصبيَّ عُميرو، في الأمر، فيكلِّم عمَّه.. سأنتظر قليلًا وأحتمل ما بي، حتى لا أضايق زوجي. لو ضَاقَ بي، أو ضايقتُ أهله، سألقى ما يسوؤني.. بعَّدتُ بين أنفي وسِتْر وجهي، براحتي اليمنى، ومسحتُ بها عن وجهي العرق.

ـ أريحوا الدواب.

زعق رجلٌ بذلك، وقد خرج بناقته عن الصفِّ الطويل، ونـزل عنها إلى الأرض بمهارةِ المعتاد. بغلتي وقفت عندما وقف الجميع. لم أنزل عنها، حتى جاء زوجي لأستند إلى كتفه. حين لمست قدماي الأرض، صرختُ من شدة الألم، ولم أستطع الوقوف.. على صدى صرختي جاء أخو زوجي، الهوديُّ، يمشي خلفه رجلٌ آخر، ونهرني

بوجهٍ عابس: ما بالك يا امرأة تصرخين هكذا؟ فلم أردّ. وقال الرجلُ الآخر، قبل أن يبتعدا عنا: لا بأس يا سلومة على امرأتك.

تسنَّدتُ إلى ذراع زوجي حتى أجلسني على مقربةٍ من البغلة، وبقي بجانبي. كانوا يُجلسون الجِمال ويجعلون فوقها سقفًا من قماش، مرفوعًا على أوتادٍ بطول قامة. فعلوا مثل ذلك للحمير والبغال، بأوتادٍ أعلى، فاستظلَّتِ الدوابُّ كلُّها. كان عميرو يتنقل بهمَّةٍ بين الدواب والخيام، يفكُّ عن الإبل حمولها لترتاح، ويُنـزل عن ظهور البعير الأحمال الثقال، ويضع للدواب طعامها والماء.. بعدما انتهوا وهدأوا، جلسوا ليأكلوا، محتمين من الشمس بالأسقف التي تحمي الدواب.

لا أريد أن أجلس، ولا أستطيع. صنع زوجي خيمةً لنا، بأيسر مجهود، فقد غرس في الرمل أوتادًا ثلاثة، طوالًا، وألقى عليها ملاءةً من كتانٍ خفيفٍ، ثم أمسك إلى الأرض طرف الملاءة بأحجارٍ التقطها من الجوار. فصارت لنا خيمةٌ ظهرها إلى العرب والدواب، وقلبها مفتوح على الأرض والسماء. حجبني عن ناحية القافلة، ومن ناحيتها جاء لنا عُميرو برغيفين من خُبزٍ غريب، وجلس إلى جوارنا فأَكَلَ صامتًا. هذا الخبز يؤكل وحده، طيبٌ طعمه. مصنوعٌ من دقيق قمحٍ معجون بلبنٍ وبيض. العربُ لا يصومون، لأنهم يسافرون.

أكلت على مهل، وقد جلس زوجي على مقربةٍ وظهرُه إليَّ، وراح صامتًا يمضع رغيفه. لم يكلِّمني بأيِّ شيء، عُميرو هو الذي يسألني

كلَّ حين: هل تريدين شيئًا؟ أما زلتِ جائعة؟ هل أملأ لك هذه القربة؟ هل أتعبتْكِ البغلة؟.. بعد ساعة انفلت عميرو من جواري، لتجهيز الدواب للرحيل. ربط معهم ما فكُّوه، وأقام ما أقعدوه. للإبل هيئةٌ عجيبةٌ حين تقعد، كأنها تنهار إلى الأرض، وحين تقوم تنتفض فجأة كأنها تُلقي ما فوق ظهرها المقبَّب. قام زوجي من أمامي، وقال: قُومي، فما اقتدرتُ. توكأتُ عليه حتى بلغتُ البغلة، ورفعني إلى ظهرها فجلستُ على ألمي وأسدلتُ سِتْري.. سِرْتُ في ذيل القافلة الممتدة أمامي، كخيط رفيع، وقد صارتِ الشمس خلفنا، وابتعدتْ عنا، استعدادًا للمغيب.. في الأفق البعيد، رأيتُ عصفورًا يحلِّقُ، وحيدًا. لو صرتُ عصفورةً تطير، لرأيتُ القافلةَ مثل دودةٍ طويلةٍ تنسربُ على وجه الرمال، وتدوسُ ظِلَّها.

دَيْرُ العَسَلِ

سِيري.. سِـيري.. يا بعيري

كُـلُّ الخـيرِ فـي المســيرِ

تَــاقَ القــلبُ للصغـــيرِ

للحـبيبــةِ والســــريـــرِ

سِيري.. سِيري.. يا بعيري

طَـالَ شـــوقـي للبعيـــدِ

نَــاءَ قــلبــي بـالمـزيــدِ

فاطـــوِ الأرضَ للـــوحيـدِ

سِيري.. سِيري.. يـا بعيـري

كان رجلٌ شجيُّ الصوت يتغنَّى بتلك الكلمات، في أول القافلة، ويُعيد المفردات ويمدِّدسها على نحوٍ رتيب. انتبهتُ لغنائه أول

الأمر، فلما تكرَّر مراتٍ لم أعد أشعر به، على الرغم من شجوه. كُلُّ ما يتكرَّر لا نشعر به، مهما كان شجيًّا. وددتُ لو سألتُ زوجي عن سرِّ هذا الغناء، وعن سببه، لكنه كان يتقدَّمني. بعد ساعة سير، تأخر عُميرو بحماره حتى سار بجانبي. لم يلتفت زوجي، ولم يهتم بمجاورة ابن أخيه لي. لم أكن أنظر نحو الصبي، لكنه كان ينظر نحوي كثيرًا، ويبتسم، فسألته عن الرجل الذي يُرتِّل، فقال: هو الحادي، يغنِّي للدواب كيلا تملَّ الطريق.

قبيل الغروب، رأيتُ من بعيد خيامًا كثيرة، كتلك التي يسكنها العربُ في الصحراء. من أمامها أرضٌ مُعشبةٌ خضراء، فيها زهورٌ ملونة، ومن خلفها سورٌ كبيرٌ تطلُّ من داخله أطراف أشجار. سألتُ عُميرو بأن أشرت إلى الخضرة والخيام التي تقترب رويدًا، وإلى السور المربَّع، فقال: *هذا العشبُ بقايا الربيع، والخيامُ محطتنا القادمة، والسورُ دَيْرُ العسل. سوف نبيتُ هناك الليلة.*

عند تمام الغروب، وصلنا المحطة. تقدَّم عميرو، وتأخَّر زوجي وراح يسوق بغلتي من فوق ناقته، حتى أخذني إلى طرف خيامٍ كالسرادق، مقسَّمةٍ بالقماش العتيق. فكأنها غرفٌ مربعةٌ، من غير سقف، جدرانها من الصوف الملون. نزل زوجي بناقته ونزل عنها، وجاء لينـزلني من فوق البغلة. لحظةَ لمستُ بقدميَّ الأرض، أسقطني الألمُ الشديد المفاجئ. لم أصرخ. رفعني زوجي وقد خَدَّر ساقيَّ ألمٌ شديدٌ، أشدُّ مما كان بالأمس، فكدتُ أسقطُ ثانيةً.

لا أستطيع المشي، ولا الوقوف، استندتُ إلى ذراعه فدخل بي وأنا خَجْلَى، واحدةً من غرف القماش المفتوحة على السماء.. تجرأتُ من شدة ألمي، فكلَّمته:

ـ*لا تغضبْ مني.. لا أعرف ما بي.*

ـ*لا شيء، تقرَّح فخذاكِ من طول الركوب.*

ـ*لا أقدر على الوقوف.*

ـ*اجلسي.*

الجلوسُ يُوجعني والوقوفُ، والظلامُ يخفي ألوان جوانب الخيمة. على الأرض قطعٌ من صوفٍ قديم، ووسائد عطنة الرائحة. تركني زوجي وخرج، بعدما أسدل خلفه الفتحة التي دخلنا منها هذه الغرفة. غاب عني من غير أن يحدِّثني بأيِّ شيء، فاجتمع عليَّ الوجعُ والخوف. أصواتُ الناس والدواب تأتيني من وراء الستور، والخدرُ يصلِّب ساقيَّ، وعند التقائهما تلتهب نارٌ لا تحتمل. أريدُ أن أبكي، لكنني لا أستطيع.

جاء زوجي يحمل إناءً نحاسيًّا قديمًا فيه، حسبما قال، نقيعُ عُشْبٍ. ودخلتْ وراءه امرأةٌ عربية، عجوز، لم أميِّز في الظلام ملامحها.. ماذا سيفعلان بي في هذا المكان المخيف؟ منعني الرعبُ عن الكلام، فتكوَّمت في الزاوية أحدِّق نحوهما، ولا أرى من شدَّة الظلام إلا شبحين يتحركان. قدحتِ المرأةُ حجرين فوق

عُشبٍ جافٍ، فاتَّقد، ثم علا منه لهبٌ ضعيف. الآن أرى. خرج زوجي وعاد ببعض الحطب فأذكى به لهب النار، ثم خرج ثانيةً من غير أن يتكلَّم. المرأة ليست طاعنةً في السن، حسبما ظننتُ أولًا، وليست طويلة. هي أيضًا لا تكلِّمني؟ بين يديها شيءٌ تسحقه على الحجر في الزاوية، فتفوح منه رائحةٌ قوية، زكيةٌ.

التفتتِ المرأةُ نحوي، وهي بَعْدُ في الزاوية المقابلة، فارتجفتُ. لا أرى غير نصف وجهها الذي من جهة اللهب الخافت، ولا أعرف ما تريد.. تقدَّمتْ وقدَّمتْ ما سحقته لي، وتكلَّمتْ:

ـ استحمي أولًا، ورُشِّي بين فخذيكِ المسحوق.

أين سأستحم، وأين هو الماء؟ سألتُ المرأة فلم تفهم كلامي، ولما أعدته عليها قالت وهي تشير إلى الإناء النحاسي القديم: *هذا الماء القليلُ، كثيرٌ في الصحراء وكافٍ، بلِّلي منه خرقةً وامسحي جسمك بها، ولن يدخل عليك أحد هنا. سوف أعود إليك بعد قليل. لا تخافي.*

طلبتُ منها إطفاء النار كي أحتمي بالظلام لأستحمَّ، فَرَمَتِ الرمال بأصابع قدمها اليمنى على اللهب، وخرجتْ. فعلتُ كما قالتِ المرأةُ، فهدأتْ بالمسحوق السخونةُ التي كانت تُلهبني. تشمَّمتُ في الظلام يدي، فعرفتُ مما سحقته لي المرأة، النعنعَ والشبَّةَ وعشبًا كالريحان.. هذا دواؤهم هنا، وهنا شقائي المقيم.

عادتِ المرأةُ يتبعها عُميرو، يدعواني للخروج، فخرجتُ وراءهما. جلستُ بالقرب من الخيمة الأخرى الكبيرة، التي يجلس عندها الرجال. المرأةُ تعرف عميرو، وتناديه باسمه، ويفهمها جيدًا حين يتكلمان. أنا أفهمه جيدًا حين يكلِّمني، لأنه يزور نواحينا ويعرف كلامنا.. عرفتُ منه أنه في الرابعة عشرة من عمره، أو الخامسة عشرة. قال ذلك وهو يضحك. هو يصغرني بأعوامٍ قلائل، لكنه يبدو أصغرَ من سنِّه لأنه أسمرُ ونحيلٌ. أشعرُ، ويشعرُ، أنني كبيرة وهو صغير. ربما لأنني طويلةٌ وهو قصير. ولذلك يخاطبني، مثلما يخاطب الأولادُ الأمهات.

جلستُ بقرب البدويات عند طرف الخيمة، ومضى عميرو ليجلس مع الرجال المتحلِّقين أمامي حول دائرةِ نارٍ يشوون عليها شيئًا، أظنه معزاة. البدويات من خلفي قليلات، يجلسن ولا نارَ عندهن. أطلقتْ إحداهنَّ حين رأتني، زغرودةً غريبة، فتضاحك الرجال.

أتتْ من حولي فتياتٌ صغيرات نحيلات، وتقاطرت بعدهنَّ الكبيرات. هُنَّ أيضًا نحيلات. لا أميِّزُ الوجوه في هذا الظلام، ولا أحب جلوسي بين النسوة المتَّشِحات بالسواد، ولا أقدر على البقاء وحدي في الموضع الذي كنتُ فيه، ولا أعرف أين سأنام.

رائحةُ الشواءِ تشهِّي الطعام. بعد ساعةٍ وضعوا في يدي قطعةً كبيرة من اللحم، بلا طبقٍ، فأكلتها من شدة جوعي. طعمُ اللحم

طيب. سألتُ المرأة التي تجلس بقربي، إن كان لحم جديٍ أم معزاة؟ فقالت: *غزال*. سألتها عن موضع نومي الليلة، فقالت: *مكانك، فالرجال ينامون في السرادق، أو في العراء*.

* * *

صحوتُ مع الفجر، وبقيتُ في موضعي حتى رأيتُ زوجي قادمًا نحو خيمة الأطفال والنساء. أشار إليَّ فقمتُ إليه، فأخذني وراءه إلى حيث الموضع الذي تجتمع عنده الدواب، وتمتد أمامه الخضرةُ المودِّعة للربيع. أشار إلى جهة الغرب وهو يقول: *هُنا مُلتقى طرقٍ، وراء هذه المفازة بلادُك، والصحراءُ التي وراءنا بلادنا*.

سألته متردِّدةً، كيف كانوا يعرفون طريقهم في تلك الرمال، ولا شيء فيها يميِّزها؟ فقال: إنهم يستدلون بالشمس نهارًا، ويهتدون في الليل بالنجوم.. جلس قُرب الدواب فجلستُ من خلفه، وبقيتُ صامتةً حتى شجَّعت نفسي وتكلَّمتُ:

- *متى نصل إلى بيتك؟*

- *سنبقى هنا يومين، حتى يلحق بنا جماعةٌ من أقاربنا. وسوف نصل بعد أسبوعين أو ثلاثة، أو شهر، فالطريقُ طويل*.

أخذني بعد كلامه دوار.. شهرُ سفر.. رحماتك يا أمَّ النور. كيف سأبقى مسافرةً، ومعذَّبةً، طيلة هذه الأيام؟ سكت زوجي لحظةً، ثم قال من دون أن ينظر نحوي:

- *سأدخلُ عليكِ في مضاربنا.*

ماذا يقصد بالمضارب، وبالدخول؟ لن أسأله. ولن أخبره بما أفكر الآن فيه، وأتمنَّاه.. أتمنَّى أن نبني في هذه الأرض الخالية بيتًا نعيش فيه، فنكون في ملتقى الطرق. وهذه الأرض لا صاحب لها، فيما يبدو، فلنكن نحن أصحابها. وهواؤها على كل حال، لطيف.

- *يا عمِّي..*

- *تعال يا عميرو، اجلسْ.*

- *أبي يقول لك: حاطب سيصل بعد غدٍ.*

- *خير.. خير..*

جلس عميرو بجانبي، وسألني إن كان وجعي قد خَفَّ، فأجبته بالإيجاب، فاتسعت ابتسامته. أخرج من جيب جلبابه بلحًا كبيرًا، ومَدَّ لي ثلاثة منه. طعمه طيبٌ. قام زوجي فجأة، بعدما قال لابن أخيه إنه سيرسل لنا فطورًا، وعليه بعد الإفطار أن يضع العلق للدواب. نظر ناحيتي وهو واقفٌ، وقال: *سآخذكِ عصرًا إلى الدير.*

* * *

بعد الفطور، الخبز والجبن، عاد بي عميرو وأجلسني في خيمة النساء، ومضى إلى مربط الدواب. البدويات يطبخن شيئًا لا رائحة له. الناسُ هنا يضعون القدور على أحجار ثلاثة يسمونها الكانون، يوقدون تحتها عُشبًا جافًّا له أغصانٌ دقاق، اسمه الزُّوفا. طعم الجبن

هنا غريبٌ، لكنه مقبول. جلستُ في طرف الخيمة، أُجيلُ عينيَّ في المدى المفتوح من حولي، وأشعرُ بين الناس بالوحدة. البدويات لا يتكلمن كثيرًا، ولا يرحِّبن بالغريبات.

عند الظهيرة، اقتربتِ المرأةُ التي أعطتني بالأمس المسحوق، ونظرت نحوي وهي تجمع من حول الخيمة متناثرَ العشب. سألتها عن الدير، فأشارت إلى السور العالي القريب. وسألتني عن التهاب ساقيَّ، فقلتُ: إن حالي هذا الصباح أفضل.

ما عندي رغبةٌ في الطعام الذي وضعته أمامي امرأةٌ عابسة، عندي فقط رغبةٌ في النوم. بعدما مال الظِّلُّ، جاءني زوجي من عند الرجال وخلفه حمارٌ على ظهره زكيبتان. أشار إليَّ فمشيتُ بمشقةٍ خلفهما، نحو السور الكبير، واقتربنا ببطءٍ يناسب وجعي. السورُ مرتفع بقدر قامتين أو أكثر قليلًا، لا نافذةَ فيه ولا فتحات. بابه الخشبي السميك، المقوَّى بمسامير نحاسية عتيقة، يبدو كمثل فجوةٍ لا يدخل منها الناس، إلا بعد انحناءٍ.. قبل أن نصل قبالة الباب، نادى في الفراغ بصوتٍ جهير: *يا أمبا بشندي، أنا سلامة بن عمرو النبطي، جئتكم بالحبوب والملح.*

ترددتْ أصواتُ النداء من حولي في الأنحاء، وما من مجيب. ربط زوجي عند الباب حافريِ الحمار الأماميين، ودَقَّ على نحاس الباب بحجرٍ، وهو يصيحُ ثانيةً بما صاح به أولًا، ويضيف: *معي امرأتي المصرية، مارية.*

بعد هنيهةٍ، سمعنا صوتَ أقدامٍ تأتي من خلف الباب، ثم ارتفع مزلاجٌ فانكشفتْ من الباب القصير كُوَّةٌ، نظرت منها امرأةٌ لم أتبيَّن ملامحها، لكني سمعتها وهي تقول: *الأمبا الآن نائمٌ، عُدْ بعد ساعة، أو غدًا في الصباح*.. كانت تتكلم بكلامنا لا بكلام العرب، لكن لهجتها غريبة. احترتُ قليلًا حين قال زوجي إنه سيتركني عندها، ويعود بعد ساعة، وحين فتحتِ المرأةُ الباب تخوَّفتُ فقال زوجي ليهدِّئ خوفي: *هذا ديرُ نساءٍ*.

* * *

دخلتُ وراء الحمار منحنيةً، فوجدت المكان فسيحًا وفيه شجرٌ معظمه جافٌّ، يطير حوله نحلٌ كثير. في الأطراف غرفٌ صغيرة متراصَّة ببطن السور. بناؤها من قطع الأحجار الصغار، والرمل الخشن. في الجهة المقابلة لباب الدير، خلف الأشجار، حجرةٌ تقوم وحدها. هي التي خرج منها بعد حين، القسُّ المسمى أمبا بشندي.. على يسار الداخل من باب الدير، وحول الغرف، فتياتٌ يغزلن. ونساءٌ يجلسن حول فرنٍ يشبه الأفران التي أعرفها، مقبَّب.. قالت لي المرأةُ العجوز التي أدخلتني:

ـ *أنا الأُمُّ سارة، كبيرة الراهبات.. ما اسمكِ يا ابنتي؟*

ـ *مارية يا خالة.*

ـ *قولي للراهبات، ولي، يا أُمي.*

لو فعلتُ كما تقول، سيكون لي هنا أمهاتٌ كثيرات، بعضهنَّ في مثل سني أو أكبر بقليل. استغربتُ المكان مع أن الوجوه مألوفةٌ. منكسرةٌ، وطيِّبة. في عيون الراهبات صفاءٌ، وحيرةٌ طفولية، وحُزنٌ شفيف. أتت أربعةٌ منهنَّ، شابات، وحملن الزكيبتين إلى غرفةٍ على يمين الداخل، وعادت إحداهنَّ بالحمار فقيَّدته عند الباب.. النحلات تطنُّ من حولي، وحولهنَّ، من دون أن يأبهن لها.

عرفتُ من راهبةٍ جلستْ بجواري، وكانت تحب الكلام، أن هذا الدير قديم. بناه قبل مائة عامٍ، أو يزيد، رهبانٌ من أتباع الملك. يسمونهم هنا الملكانيين. وبعد سنواتٍ طوال من بنائه وسُكناه، هجر الرهبان هذا الدير، والتحقوا بإخوانهم في الدير الكبير الذي بوسط سيناء، عند تيه اليهود. هذه الصحراء الواسعة اسمها سيناء. ومنذ عشرين سنة، أو ثلاثين، تعيش الراهباتُ هنا، والتي تموت منهنَّ تُدفن هنا، وهذا النحل الكثير له بيتٌ كبير خلف حجرة رئيس الدير، يأخذون منه العسل فيبادلونه بالملح والحبوب، ويبادلون بما ينسجون ما يحتاجون. العربُ الذين يخيِّمون بالقرب من الدير، يحمونه، لأنهم من أهل ديانتنا وهم أتقياءُ وطيبون. هكذا قالت. الرجال لا يدخلون الدير، لأي سبب، والراهباتُ لا يخرجن.

ـ *الأَمبا قادمٌ نحونا.*

صاحت راهبةٌ بذلك، فقمنَ من جِواري كلُّهنَّ، منتفضات. سجدن للقسِّ القادم، حتى لامستِ الجباه التراب. احترتُ لحظةً:

هل يجب أن أسجد له، مثلهن، بدلًا من تحديقي إلى لحيته الكثيفة، أم أن ذلك السجود مخصوص بالراهبات؟.. هو رجلٌ قصير، نحيلُ الأكتاف، قويُّ النظرات. لحيتُه البيضاء تغطي صدره المتدلِّي عليه صليبٌ كبيرٌ، محلًّى بنقوش. يسير حافيًا، وفي يده عصا يتوكأ عليها، ويشير بها إلى الراهبات، وينقر بها الأرض وهو جالس على كرسيِّه. نظر إليَّ مليًّا، ثم التفت إلى كبيرة الراهبات، فأخبرته مَنْ أكون. أضافت وهي تعقد كفيها على بطنها: سيأتي زوجها بعد قليل، ليأخذ جِرار العسل العشرة.

أومأ القسُّ برأسه ومضى ببطءٍ نحو الباب، فأسرعتْ راهبةٌ وفتحته أمامه. راهبةٌ أخرى حملت كرسيًّا من سعف النخيل، ووضعته في ظلِّ السور، خارج الباب. أخذتني فجلستُ بجواره على الأرض، إلى اليمين من كرسيِّه، مكشوفةَ الوجه.

- *ما اسم بلدتك؟*

- *أنا يا سيدي من كَفْرٍ صغير، لا اسم له.*

- *لا شيء لا اسم له. مَنْ كاهنُ كنيستكم، ومَنِ القسُّ؟*

- *الكاهنُ شُنُوتَه. وكان عندنا قسٌّ طيبٌ اسمه أبونا باخوم، راهبٌ.*

حين ذكرتُ اسم أبونا باخوم، أحسستُ أن القسَّ قد اضطرب. سكتُّ، فسكتَ لحظةً ثم هَزَّ رأسه الصغير، وقال وهو ينكث بعصاه الرمل:

ـ عرفته. هذا كَفْرٌ من الكفور الصغيرة، عند الفرع الشرقي للنهر. اسمها كفور النملة.

ـ النملة! كَفْرُنا خلف البلدة البيضاء.

ـ نعم، بلدة ساجيوس. أعرفها.

ـ زارها مرةً، حَنَّا الرَّحوم.

التفتَ القسُّ نحوي فجأةً كالملسوع، وسألني: وهل رأيتِ حنا الرحوم؟ فأومأتُ بالإيجاب، ثم قلتُ: لكنني كنتُ صغيرة.. تمهَّل في كلامه، وعاد ينظر إلى الأفق البعيد وهو يخبرني بأن حَنَّا الرحوم كان بطرك الملكانيين. كان يحب الفقراء، وكان غنيًّا جدًّا. نظر نحوي ثانيةً، كأنه ينظر إلى نملةٍ تسعى بجوار كرسيِّه، وقال: *ولكن هؤلاء يا ابنتي، لهم دينٌ غير ديننا ولا يعترفون بعقيدتنا القويمة، بل يقتلوننا بسببها، ونحن لنا بطركٌ غير بطركهم، اسمه الأمبا أندرونيكي.*

ـ *لكن بلدتهم يا سيدي، فيها كنيسةٌ كبيرةٌ فوق بُرجها ناقوس.*

ـ *كنيسةُ الباطل.. ما فائدة الناقوس مع مخالفة الناموس. العقيدةُ أهمُّ من الكنيسة، ومن الأجراس والشموع. وهم لا يعتقدون الحق، ولا يعترفون معنا أن المسيح والله مِنْ طبيعةٍ واحدة، ويقولون بجهلٍ وتبجُّح إنهما عَنْ طبيعةٍ واحدة.*

مالتِ الشمسُ أمامنا نحو المغيب، وجاءتْ من الدير راهبةٌ تحمل طبقين، فيهما حبوبٌ مسلوقةٌ مطيَّبةٌ بالثوم والخلِّ، وفوق كل

طبقٍ رغيفٌ طريّ، طيبُ الطعم. وضعتْ طبقًا بين يديَّ، وجلستْ تحت قدميِ القسِّ تناوله من الطبق الآخر، لقمةً لقمة، وهو يمضع ويضرب بعصاه الرمل وهو يقول: باخوم.. باخوم.. هه، نال ما يستحقه.

لحظةَ أوشكتُ أن أسأله عن أبونا باخوم والمكان الذي يسكنه اليوم، سألني فجأةً: هل كان باخوم، حقًّا يحدِّثكم عن إنجيل يهوذا؟ فقلتُ متلعثمةً وقد تذكَّرت واقعةً قديمة: إنني سمعتُ شيئًا عن هذا الإنجيل.. استدار القسُّ نحوي بكتفه اليمنى، وأطلَّت من عينيه نظرةٌ قويةٌ، تُخيف وتُرهب، ثم قال: إذن، كان باخوم يردِّد على مسامع الجهلة، أن هذا الإنجيل صحيحٌ، وأن السيد هو الذي بعث يهوذا ليبلِّغ عنه، لتتم البشارة.. هه.. فكأن يهوذا ليس بخائنٍ..

قامتِ الراهبةُ إلى الدير مسرعةً، حين رأتْ من بعيدٍ قادمين يقتربون.. هذا زوجي وأخوه النبطي، وخلفهما عميرو، يقبلون علينا والشمسُ من خلفهما تستعد للغروب. سكتَ القسُّ، فنظرتُ معه نحو القادمين وأنا أشعر بدفقاتِ بهجةٍ تغمر باطني، ونسمات رحيمة تمسُّ خَدَّيَّ. جلسوا أمامنا. زوجي قبالتي على الأرض، وأخوه إلى جانبه على حجر. وجلس الصبيُّ على الرمال، قُرب قدميْ عمِّه النبطي. رحَّب القسُّ بهم وسألهم بكلام العرب عن أشياء أعرفها، وأخرى لا أعرفها، فكان زوجي هو الذي يُجيب عن كل سؤال:

هل سيخرج الفُرسُ حقًّا، بسلام؟ نعم، بعد شهرٍ أو نحو ذلك.. كيف حال أخيك المتهوِّد؟ بخير.. هل قابلتَ عِمران بن مالك القفطي؟ لا، لكني قابلتُ قافلةً له بأول طريق الصعيد.. متى ترحلون عن هنا؟ سنبقى يومين، حتى تصل قافلة حاطب بن أبي بلتعة القرشيِّ.. أهو قُرشيٌّ حقًّا؟ هو حليفُ قريش، لكن أصله من اليمن، وهو اليوم يعيش بين القُرشيين في يثرب، مع أتباع الدين الجديد ويعدُّ كواحدٍ منهم.. وما أخبار قلب الجزيرة؟ مضطربٌ، النبيُّ القرشيُّ يُحارب اليهود ويدفعهم عن يثرب، وسمعتُ هنا أنه عقد صلحًا مع أهل بكَّة، عند الحديبية، ثم عاد إلى يثرب التي هاجر إليها قبل سبع سنين.. وفيمَ الصلحُ إذن؟ لكي يسمحوا له العام القادم بزيارة كعبة بكَّة، لكنهم لم يعترفوا له بالنبوة.. لا تقل نبوة يا سلامة، ربُّك يقول في الإنجيل: سيأتي بعدي أنبياءٌ كَذَبة. ألا تعرف ذلك؟ أعرفه يا سيدنا أعرفه. ولكن هذا أخي، النبطيُّ، يزعم أيضًا أن وحيًا يأتيه..

أدار القسُّ وجهه، ببطءٍ، نحو النبطي. وسأله باستخفافٍ عمَّا تلقَّاه مؤخرًا من الوحي، فابتسم ولم يردّ. كان عُميرو مبتهجًا، ينظر إلى عمِّه كمن ينتظر شيئًا. قال القسُّ: *بماذا أُوحي إليك يا نبطي؟ ألن تخبرني بما تظنُّ أنه وحيٌ يأتيك من إلهك، إيل؟ أم سيبقى وَحْيُك مكتومًا؟ هيا.. قُلْ.. سأسمعك.*

أطرق النبطيُّ بوجهه الرقيق، وعقد كفَّيه بين ركبتيه كأن ألمًا يدبُّ بباطنه، فيوجع قلبي.. بعد بُرهةٍ رفع رأسه، فكان مُغمضَ العينين،

وراح يقولُ بصوتٍ أتانا من وراء الوراء: بالإِلَهِ الَواحِدِ ذِي الوجهين، وبالصِّدْقِ الأَزَلِيِّ، أَقُولُ الحَقَّ. مَا فِي الكَوْنِ غَيْرُ ابنٍ وأُمٍّ، منْهُمَا كُلُّ أُمٍّ وابن. للابنِ اشتياقٌ وللأُمِّ حِضْن. ولهمَا الاستيلادُ والميلاد. إيلُ مِنَ اللاَّتِ. جَوْهَرُ كُلِّ الكَائِنات، وأَصْلُ الصُّوَرِ السَّاعِيات. فالخاملُ في الرَّحِمِ آمِنٌ، وكُلُّ سَاكِنٍ كَامِنٌ. فَلاَ تَسْمَع لمنِ اسْتَهَانَ، واسْتَعْلَى ثُمَّ هَان. فيا بَنِي الإِنْسَانْ، أوانُ ظُهُورِي بالوجَهْينِ قَدْ حَانْ..

ـ يكفي أيها النبطي.. يكفي هذا.

قال القسُّ ذلك وهو يقوم من مجلسه منفعلًا، فتوكَّأ على عصاه ومضى نحو باب الدير. نهض بعده زوجي وهو يضحك من خلفه، من غير صوت، وصَمَتَ النبطيُّ وعاد لإطراقه، وابتهج عميرو. دَقَّ القسُّ الباب بعصاه، فانفتح، وخرج الحمار وظهره ينوء بحِمْل الجِرار المملوءة عسلًا. عند الباب، قال القسُّ لزوجي: إن بإمكاني المبيت بالدير، إذا أراد. فسألني، فلم أُجِبْ. تحيَّرتُ، فاختار لي زوجي أن أبيت آمنةً مع الراهبات، الأمهات، بدلًا من النوم في الخيمة المكشوفة. كنتُ أريد العودة معه، لكنني خجلتُ فقبلتُ ما اختاره لي.. وخيامهم على كُلِّ حالٍ، قريبةٌ.

حين انحنيتُ لأدخل من باب الدير، التفتُّ ورائي، فرأيتُ النبيَّ النبطيَّ لا يزال جالسًا في موضعه، يحدِّق إلى باطن الأرض بعينيه الواسعتين، وخلفه احمرارُ غيابِ الشمس.. لو كان القسُّ قد صبر، فأسمعُ المزيد مما كان يتلوه.

حَاطِب

دخلتُ الدير وقد غامتِ الأشياءُ أمامي، لمغيب الشمس. الراهباتُ لا يغزلن في الليل ولا يُوقدن القناديل. يتحرَّكن في العتمة صامتات، كالفراشات، فيخيِّمُ الصمتُ في حديقة الدير، وفي جوانبه. الراهباتُ يمشين فُرادَى. دخل القسُّ أمامي إلى ناحية حجرته، وجلستُ عند الباب القصير المغلق، صامتةً، حتى جاءت إحداهن فأخذتني إلى غرفةٍ ضيقة عند زاوية السور اليسرى. قالت: امكثي هنا حتى نفرغ من قُدَّاس المساء، وسوف أعود إليك. لم أتبيَّن في الظلام ملامحها، جيدًا، فسألتها: كيف تنظرن إلى ما حولكنَّ في هذه الحلكة؟ فردَّتْ من فورها: بنور يسوع.

على عتبة الغرفة الضيقة جلستُ، وقد ساد من حولي السكونُ مع الظلام. لا حُلكةَ أشدُّ من تلك التي تحوطني. تُرى، هل تسعى هنا عقاربُ أو حيَّات، أو تتسلَّل بين هذي الأشجار قطط؟ أم هو مكانٌ مباركٌ، لا تدبُّ فيه المؤذيات؟.. أما كان بإمكانهن إشعال فانوس أو قنديل، فأرى ما حولي وما تحت قدمي؟.. البردُ في الصحراء

يأتي مع الليل، حتى في الصيف، فماذا يفعلون هنا في الشتاء؟.. الراهباتُ الوحيداتُ لا يعرفن الرجال، ولا يلدن، والرهبانُ لا يتزوَّجون. لو صارتِ النساءُ كلهنَّ راهباتٍ، وكُلُّ الرجالِ رهبانًا، لانعدمتِ الحياةُ.. فالأطفالُ هم الحياةُ.

النجومُ هنا تُضيء الليلَ كلَّما توغَّل، وتكادُ تُظهر الأشياء إذا اعتادتْ عليها العينُ. نجومُ الصحراءِ هي نورُ يسوع. لكن هذه الأشجار مخيفةٌ في هذا الليل الصامت. بعد حينٍ، أطلَّ القمرُ باهتًا، وأتتْ أصواتُ الراهبات من وراء حجرة القسِّ. لا بُدَّ أن الكنيسة هناك. كن يترنَّمن بكلامنا، منغَّمًا، قائلاتٍ ما معناه:

يا يسوع احفظني فإني بك اعتصمتُ

وارحمْ ضعفي، فلا نصيرَ لي سواك

وبارك هذا الدير، فلا نلجأُ لسواك

واملأ قلوبنا مَسَرَّةً، لا يمنحها سواك

يا يسوع احفظني فإني بك اعتصمتُ

على الطريق القويم الذي رسمته، نسيرُ

وبسيرةِ القدِّيسات

والشهيدات نستنير

وبالموت نعودُ ترابًا، وإليك الروحُ تطيرُ

يا يسوع احفظني فإني بك اعتصمتُ

* * *

مثل الأحلام، والفرحات، جاءتِ الراهباتُ يحملن شموعًا. عَبَرنَ الحديقة، وتفرَّقنَ ليدخلن إلى الغرف الضيقة بعدما انفرط عِقد القُدَّاس. وقفتُ مترقِّبةً، حتى أَتَتِ التي أَتَتْ بي إلى هنا، وجلستْ بجواري برقَّةِ الفراشات. رفعتْ وجهها، فنظرتْ كالأطفال نظرةً طويلة في النجوم والقمر المنير، ثم أخبرتني أن هذه الغرفة غرفتها، وأنني سأبيتُ الليلةَ معها. سألتني إن كنتُ أُريد الآن أن أنام، فقلتُ: بعد قليل.

أسندتِ الراهبةُ رأسها إلى الخلف، حتى مَسَّ حَلْقَ الباب. نظرتْ إلى السماء، ثانيةً، وقد تسلَّلتْ إلى وجهها ابتسامةٌ صبوحٌ. هي في حدود الثلاثين من عمرها. وجهها رائقُ القسمات من غير سوء، وممتلئ من غير سمنة. جسمها بين الطول والقِصَر، وبشرتها متوسطةٌ بين البياض والسُّمرة. سألتها عن اسمها، بعدما أخبرتها باسمي، فقالت: إستير.

شكوتُ لها ما أعانيه من طول الركوب، فقامت لتأتي لي بدواء. كانتِ الراهبات يغلقن خلفهنَّ أبواب الغرف، ويسكنَّ بداخلها هادئاتٍ، كالأمسيات. صرتُ أرى ما حولي على ضوء القمر والنجوم، ونور يسوع. جاءتني كبيرةُ الراهبات تمشي على هَوْنٍ، فقمتُ احترامًا لها فسألتني عن الأم إستير، فأخبرتها بأنها تُحضر لي علاجًا، لأن ساقيَّ يلتهبُ أعلاهما. مُطمئنةً هزتْ رأسها، متمهِّلةً مضتْ بين الشجيرات، حتى غابتْ عن عيني بين الظلال والظلام..

_ *منذ أعوامٍ طوال.*

لا بُدَّ أن أسئلتي تضايقها، سأصمتُ حتى تكلِّمني هي.. هي هادئةُ الملامح، وعيناها تفيضان طيبة. بعد حينٍ، قالتِ امكثي هنا حتى آتيكِ بشيء، ثم قامت إلى خلف الغرف وعادت وفي يديها طبقٌ فيه بلح، وإناءٌ فيه ماءٌ باردٌ، معسلٌ، مطيَّبٌ بمسحوق الريحان وعصير الليمون. شكرتها، وأكلنا معًا من دون كلام، وشربنا من الإناء تباعًا.. بقيتُ صامتةً حتى سألتني عن وجهتي، فقلت: لا أعرفها لكنها بعيدة. قالت إنها ستعرف في الصباح، سوف تسأل كبيرة الراهبات عن قبيلة زوجي، فتعرف أين يعيش.. سألتها ما القبيلة؟ فقالتِ العائلة الكبيرة.

تشجعتُ فسألتها إن كانت لها قبيلة، فقالت إنها ليست عربية، ولا تعرف لنفسها أمًّا ولا أبًا. سالت من عينيَّ دموعٌ، فتبسَّمت ومسحتْها براحتها اليمنى وهي تقول: *أنتِ رقيقةٌ جدًّا، وجميلة.. تعالى إلى داخل الغرفة لننام، فقد صار الليل باردًا.*

* * *

بعدما افترشنا الأرض، بلا غطاء، بقيتُ محدِّقة إلى سماء الغرفة، من غير أن أرى شيئًا. تقلَّبتُ في فرشتي طويلًا، وأقلقني الظلامُ. وددتُ لو أقوم ثانية، فأفتح الباب وأجلسُ على الدكَّة حتى الصباح.. أحسَّتْ بسُهدي، فسألتني وهي تقترب:

ـ *ألن تنامي يا مارية، أليس أمامك في الغد سفرٌ طويل؟*

ـ *لن نرحل غدًا، زوجي ينتظر قافلةً ستأتي بعد يومين. هل يمكن أن نشعل هنا قنديلًا؟*

ـ *تخافين الظلام؟*

ـ *نعم..*

اقتربتْ حتى احتضنتني، فهدأتُ حين أحسستُ بأنفاسها تمسُّ مِفْرقَ شَعْري. استدفأتُ بها ونمتُ.. صحوتُ ونورُ الصبحِ يأتي للغرفة من شقوق الباب. أنا بالغرفة وحدي. خرجتُ منها، فوجدتُ راهباتِ الدير أكثر عددًا مما ظننتُ بالأمس. يزيدون على خمسين. بعضهنَّ أمام المغازل، والبعض منهنَّ يطبخنَ ويخبزنَ عند الفرن الذي بالناحية اليمنى من السور، ويملأن الماء من بئر بوسط الحديقة.

الدير كبيرٌ. من وراء حجرة القسِّ حديقةٌ أخرى، بآخرها كنيسةٌ صغيرة، وخلفها مناحلُ العسل. تجوَّلتُ في الدير بأقدامٍ خَجْلى، فلم تمنعني الراهبات. كُنَّ يبتسمن لي، خاصةً الصغيرات سنًّا المنهمكات. لا شيء يصرفهن عن العمل. لو كُنَّ يرتدين ثيابًا بيضاء، لا سوداء، لصرن مثل ملائكة. في طريق عودتي، رأيتُ الراهبة إستير تخرج من غرفة القسِّ. لم تكن هادئةً راضيةً، مثلما كانتِ الليلة الفائتة. لكنها لما رأتني ابتسمتْ لي، وأخذتني إلى

حيث تجلس الخابزاتُ، وجاءتْ بطبقٍ فيه إفطارٌ شهيٌّ. سويقُ حبوب الحِلبة، ممزوجٌ بعسلٍ، فيه كِسَرٌ من خبزٍ رقيق. يسمونه السَّخينة. سألتها بعدما أكلتُ، إن كان هناك ما يمكن أن أفعله، لأساعدهنَّ في أعمالهن؟ فقالت: ارتاحي أنتِ، فأنتِ هنا ضيفةٌ سترحل بعد يوم.

فجأةً، طفرتْ من عينيَّ دمعتان، فاندهشتْ عيناها. أخبرتها أنني تذكرت أمي، فابتسمتْ وقالت: *لا بأس، سآتي الآن إليك بماءٍ، فادخلي الغرفة واستحمي ثم امسحي وَجعك بالزيت، وسوف آتي إليك بعدما نفرغ من أعمالنا، بعد ساعة، فالظهيرةُ هنا ساكنةٌ مثل الليل.*

أومأتُ برأسي مُوافِقةً، مع أنني لم أفهم كيف يكون النهار، ساكنًا كالليل. أغلقتُ خلفي الباب، وفعلتُ كما قالت، وجلستُ أنتظرها.. طال انتظاري، ففتحتُ الباب ورأيت ظلَّ الأشجار يقبع تحتها. سخونةُ الهواء لافحةٌ، ولا راهبات في الأنحاء. عدتُ لجلستي، وأسندتُ رأسي إلى الجدار، وتفكَّرتُ فيما قاله النبطي بالأمس، فأزعج القسَّ.. دقَّتِ الراهبةُ الباب، ودخلتْ عليَّ باسمةً وبين يديها طبقٌ فيه طعام. جلستْ قبالتي، وأزاحتْ سِتْرَ رأسها، وبلَّلت شعرها ببعض الماء. قبل أن تدعوني إلى الأكل، سألتُها عن القسِّ الرئيس، وعن سِرِّ اضطرابها حين خرجتْ من عنده؟ فقاطعتني بقولها: لا شيء، لا شيء.

مالتْ بوجهها إلى الحائط، وسالتْ من عينيها دموعٌ. أشفقتُ

عليها، فقمتُ إليها وأخذتها إلى صدري، فأجهشتْ. بكيتُ معها، وبللتُ رأسها بدموعي، فاعتدلتْ ومسحت وجهها بباطن كفَّيها، وقالت: *لو أستطيعُ، لرحلتُ معكِ إلى حيث تذهبين، فأنتِ ذاهبةٌ إلى مضارب الأنباط التي بجوف الصحراء، وهم هناك يحترمون النساء.*

لم أفهم كلامها لكنني شعرتُ بعذابها، وأدركتُ أن بلدة زوجي أفضلُ من هذا الدَّير.. حكيتُ لها ما جرى بالأمس، ساعةَ الغروب، وأعدتُ عليها ما قاله النبطي. لم تهتم. قالت بلا اكتراث: إن العرب واليهود يحتفون بالوحي والنبوات، لأنهم ينتظرون إشارةً من السماء. كدتُ أستفهمُ منها، لولا الراهبةُ التي دقَّت باب الغرفة، وأخبرتنا أن زوجي جاء عند باب الدير، ليعود بي إلى الخيام.. صحبتني الراهبةُ إستير، وفتحتْ لي مغلاق الباب، واحتضنتني خلفه وهي تهمس في أذني: *سوف تعودين، وسوف أراكِ ثانيةً، قلبي يقول ذلك. اذهبي الآن بسلامٍ ومحبة.*

خارجَ الدير، كان زوجي ينتظرني مع عميرو، على حمارين. حين رآني الصبيُّ، نزل عن الحمار ورفعني زوجي فجلستُ عليه. سرنا رويدًا نحو الخيام، وعُميرو يمشي وراءنا. أشار إليه عمُّه، فقفز بمهارة فوق الحمار، وجلس خلف زوجي الذي التفت نحوي وهو يقول: *قافلةُ حاطب وصلتْ. معه فتاتان من بلادك، سوف تبيتين الليلة معهما في خيمة، ثم نرحل فَجْرَ غدٍ.*

* * *

خلف مربط الدواب انتصبتْ خيمتان جديدتان، صغيرةٌ وكبيرة، أستارهما من كَتَّانٍ خفيفٍ يقف من منتصفه، على أوتادٍ عالية.. وهو يمرُّ من أمام الخيمة الكبيرة صاح زوجي، يكلِّم شخصًا وراء الستور: *جئتُ بامرأتي من الدير يا حاطب، سوف نأكل مع إخوتي، ونأتيك بعد ساعة.. رَدَّ عليه المحتجبُ في الخيمة، بصوت جهيرٍ آمرٍ: لا تتأَخَّرْ يا أبخر.*

طوَّح عُميرو قبضته اليسرى في الهواء، غاضبًا، ومضى الحمارُ يحملهما أمامي، حتى وصلنا إلى السرادق الذي دخلتُه ليلةَ جئتُ إلى هنا. عند الغرفة الأخيرة، قفز زوجي من فوق حماره ودخل أمامنا، فسنحت لي الفرصةُ، فسألتُ عميرو عن الكلمة التي غاظته. قال بعد تردُّد: *أبخر.* هي شتيمةٌ، *تعني أن فمه كريه الرائحة.*

دخلتُ أتعثَّر في ردائي، ويتعسَّر نظري من خلف الحجاب. قال زوجي: *اكشفي وجهك، فليس هنا إلا أخواي..* كانا يجلسان متباعدين، وبينهما ماجورٌ كبير، فيه كِسَرُ خبزٍ وحساءٌ، فوقهما قطعٌ كبار من مسلوق لحم الضأن. طعامٌ يسمونه الثريد. تحلَّقوا حول الماجور، زوجي وأخوه الهوديُّ وابنه عميرو، وبقي النبطيُّ عند الزاوية. انهالوا على الطعام، يأكلون بملء أيديهم. عُفتُ الأكل معهم، ولم يأكل النبطي أيضًا. عرفتُ من عميرو في المساء، أن عمَّه صائمُ الدهر، لا يأكل اللحم مهما كان حيوانًا أو طيرًا أو أسماكًا، لأن الروح كانت فيه. هو يشرب فقط الحساء وسويق الحبوب، ويأكل الخبز والعسل والفواكه، ويُحبُّ أنواع البلح.

بعدما انتهوا من طعامهم، حمل زوجي الماجور ووضعه أمامي في الزاوية، وفيه بقيةٌ من ثريدٍ فوقه قطعةُ لحمٍ كبيرة. اعتذرتُ بأنني غير جائعة، وغطيتُ الماجور بقطعةِ قماش. لم يغسلوا أيديهم من أثر الطعام الفائحة رائحته في المكان، وتكلَّم زوجي وأخوه الأكبر:

ـ ماذا أخذتَ يا سلومة من حاطب.

ـ أقمشةً مطرَّزة، وأعطيته أجولةَ القمح التي كان يحملها الجملُ الأجرب، وسأعطيه نصف العسل.

ـ هل تداينتم بدينٍ، فيكتبه أخوك.

ـ ليس بعد، لكنه قد يعطيك في المساء مالًا، لتجارة الشام.

صمت الأخُ الأكبر برهةً، ثم قال بأسًى لا يخفى على السامعين:

ـ أيُّ شامٍ هذا العام. يقولون: إن هرقل سوف يزور إيلياء، أورشليم، ليُعيد قطعة الخشب التي تسمُّونها الصليب المقدس.

ـ أنا لا أسمِّي شيئًا يا أخي، ولا شأن لي بأيِّ شيء.

ـ اسمع يا سلومة، بلغني أن أساقفةَ هرقل ينوون الفتك باليهود، سيقولون: إنهم كانوا يساعدون الفرس.

ـ لا تقلق يا أخي. لا أظنُّ أنَّ شيئًا خطيرًا سيحدث، هرقل رجل

عاقل.. هو مخبولٌ فقط في سعيه للزواج من ابنة أخته، الفاتنة، مرتينة.

ـ تحشَّم يا سلومة، امرأتُك تسمع.

نظر زوجي نحوي مبتسمًا، وتزحَّف حتى جلس جواري، وقال لي: وأنتِ، لا تخافي على أهلك إن عاد الروم، فهم أصحاب مصر منذ زمنٍ طويل، وهم في نهاية الأمر مسيحيون.. لم أفهم، ولم أستوضح منه ما قال. لم يعطني الفرصة لأسأل، فهو يتكلم بسرعة كأنه لا يكلمني. أضاف: مع حاطب امرأتان منكم، خائفتان، وهو يريد أن يؤنسهما بكِ الليلة، أنا لم أرهما ولكن يبدو أنهما صغيرتان، أخذهما من الدوق الذي جاء ليحكم الناحية الشرقية من بلادك، بعد خروج الفرس، حاطب يقول: إنهما هدية للنبيِّ القرشي.. أردتُ أن أوقف سيل كلامه السريع، فسألتُ: وما حاجةُ النبيِّ بالنساء؟ فصمت. وهو يضحك، ردَّ عليَّ عميرو قائلا: أنبياءُ العرب يحبُّون النساء، وأنبياءُ اليهود أيضًا.

ضربه أبوه على كتفه بعودٍ يابس، فقام مبتسمًا وجلس بجوار عَمِّه النبطيِّ، الصامتِ دومًا. قال زوجي ساخرًا، لعميرو: فما بال عمِّك يزعم أنه نبيّ، وهو لا يحبُّ النساء، ولا حتى الغلمان.. قام النبطيُّ كنخلةٍ بيضاء، وخرج من الغرفة وتبعه أخوه الهوديّ. لحق زوجي بهما، بعدما طلب من عميرو أن يظلَّ معي، حتى يُرسل في طَلَبنا.

استفهمتُ من عميرو، فأفهمني أن أباه هوديٌّ. كان في شبابه

متحيِّرًا بين المذاهب والديانات، حتى اختار لنفسه اليهودية. غير أن اليهود لم يقبلوه بينهم تمامًا لأن أمه، أمَّ البنين، ليست يهودية. فبقي من يومها في منـزلة بين المنـزلتين، لا هو يهوديٌّ ولا أُمميٌّ، والذي مثله تسميه العربُ الهوديَّ.. سكت هنيهةً ثم أضاف: عَمِّي سلومة مسيحيٌّ على هون، لا يذهب إلى الكنيسة إلا لسبب. وعمي النبطيُّ، الكاتب، سيصير نبيًّا لأن الوحي يأتيه، لكنه لا يذيعه بين الناس.. ضحك عميرو وهو يقول بروح الصبيان: سوف تجدين عندنا كل الديانات. أما جدتي أُمُّ البنين، فلا تؤمن إلا بالربةِ اللات.

سألته كيف يعرف هذه الأشياء، كلها، فأجابني من دون أن يفكِّر، بأنه منذ سنوات يسافر في القوافل، والمسافرُ يعرف ما لا يعرفه المقيم. آنسني الكلامُ معه، فوددتُ لو نُطيل، لكن رجلًا نادى من وراء الخيمة فقام عميرو وقمتُ وراءه، ومشينا إلى ناحية الخيمتين اللتين مررنا بهما قبل ساعة. رأيتُ زوجي من خلف سِتْري، يجلس في الظِّلِّ بين الرجال، عند طرف الخيمة الكبيرة. عندما وصلتُ إليهم، أشار واحدٌ منهم إلى الأفق المفتوح غربًا، وقال بصوتٍ كالفحيح: يا حاطب، غزلان.

نهض من بينهم رجلٌ خفيفُ اللحية، مائلٌ إلى القِصَر، في حدود الأربعين من عمره. أنيقُ الملبس، وعلى رأسه عمامة كبيرة. تقدَّم خطوتين، بعدما التقط من خلفه قوسًا كبيرًا، وسهمًا بأوله رأسٌ نُحاسيٌّ حادٌّ، لامعٌ. شَدَّ السهم بجلدة القوس، ثم قال بصوت مسموع: بسم الله..

الغزلان بعيدةٌ، عددها يزيد عن عشرة، بعضها يرعى العشب الأخضر بحذر، وبعضها ينظرُ متوجسًا نحونا ويستعد للفرار. الغزلان كالماعز، لكنها أرقُّ سيقانًا، وأجمل وجهًا. تمنيتُ لو تهرب، فلا تموت بسهم هذا الرجل الذي يقف منتصبًا، ويشدُّ السهم إلى الوراء، فتصير له هيئة الرسوم التي بأعلى أعمدة البرابي.. كتم الرجال أنفاسهم، ومالوا بعيونهم إلى جهة الغزلان محدِّقين. من بعيد، رفعتِ الغزلانُ رءوسها نحونا، وتهيأتْ للهروب. انطلق السهم في الهواء، سريعًا، فوقع في عنق الأكبر حجمًا، وتقافز الغزلان الباقون بعيدًا عن الأرض المخضرَّة، وغابوا فزِعين في قلب الصحراء.

صخب الرجالُ وانتفضوا واقفين، واستدار الرامي مبتسمًا بعدما اطمأن إلى سقوط الغزال. كيف أصابه من هذا البُعد؟ هلَّل الرجالُ وهَرَجوا بالثناء: سلمتْ يمينُك يا حاطب.. ما كان للغزال غير سهم حاطب.. الليلة نُولِـم بصيدك يا حاطب.

عاد الرجل الذي اسمه حاطب، متمهِّلًا، إلى مجلس الرجال. بالقوس الذي بيده، ضرب في طريقه الرجلَ الأسود النحيل، الواقف عند باب الخيمة، وزعق فيه: *فيمَ تحملق يا عَبْدَ السُّوء، أسرعْ*.. جرى العبدُ المسكينُ إلى الغزال ليحضره، بعدما انخطف قلبي مرتين. الأولى للغزال المصروع بالسهم، والأخرى للعبد المصفوع بالقوس.

لحظة رآني واقفةً خلف عميرو، أتصبَّبُ عرقًا وأهتزُّ اضطرابًا، قال حاطب لمن حوله: *قوموا الآن إلى شئونكم، وتعالوا في المساء لوليمة العشاء*.. قام الرجالُ الأربعة، وظلَّ زوجي جالسًا يتبسَّم، وهو يدعوني للجلوس إلى جواره. جلستُ، وانصرف عنا عميرو بعدما نظر إلى حاطب بغير محبةٍ، فقذفه بحصاة وهو يقول: *اغربْ عن وجهي يا ابن الهوديِّ الضَّال*.

التفت حاطبٌ نحوي، وقال بلهجةٍ غريبة: *اسمعي يا امرأة سلومة، معي في الخيمة جاريتان*.. هززتُ رأسي ليعرف أنني لا أفهم ما يقول، فزعق فيَّ من غير سبب: *ما خطبُك يا امرأة، أقول جاريتان، أي صبيتان صغيرتان، ألا تفهمين ما أقول*.. فزعتُ من كلامه واضطربتُ من علوِّ صوته، فالتزمتُ الصمت. تدخَّل زوجي:

ـ *مهلًا يا حاطب، فامرأتي ليستْ عربية، ولسانها غير لساننا.*

ـ *وما أنت يا سلومة بعربيٍّ، فالأنباطُ ليسوا عربًا. ولا عجب أن تتزوج قبطيةً، فلا قِبَلَ لك بامرأةٍ عربية.*

كان الهوديُّ آتيًا نحونا من خلفي، وخلفه عميرو. وهو يهمُّ بالجلوس معنا قال له: *حنانَيك يا حاطب الليل، أنت تعرف أن أخي سلامة تزوَّج العربية، فكان منها الذي كان؛ ولئن لم نكن نحن الأنباط عربًا، لما صار للعرب أصلٌ ولا فصل*.. شعرتُ من خشونة الكلام والنبرات، أنهما سيتعاركان. ونظرتُ إلى

عميرو الجالس بين أبيه وعمِّه، فرأيته ينظر إلى حاطب، بغيظٍ مكتوم.

ازداد اضطرابي فأردتُ القيام من مجلسهم، ريثما يهدأون، لكنني فوجئتُ بحاطبٍ يضحك، ويقول: مهلًا *يا* هوديّ، *لعلكم العربُ البائدة، لكننا العربُ السائدة، ولنا اليوم السيادة. المهم الآن، اسمعي يا امرأة سلومة، معي في هذه الخيمة الصغيرة، صبيتان، وهما خائفتان. فقولي لهما قولًا هيِّنًا، ليِّنًا، كي تطمئنَّا. واقضي الليلةَ معهما في أمان، فعبيدي يحرسون المكان..*

كلامه غريبٌ عليَّ، وألفاظه غير معتادة. يتحدَّث إلى الناس كأنه يأمرهم، وإن ترقَّق في الخطاب. الهوديُّ كلَّمه كأنه يهدِّده، ولكن زوجي يتصاغر له ويسترضيه.. تحرَّجتُ من الجلسة، فسألتُ زوجي أن أدخل للفتاتين الخيمة، فقال إنهما جالستان عند بابها.

قمتُ، فوجدت الفتاتين تجلسان حسبما قال. نظرتا نحوي بخوفٍ أعرفه، فطلبتُ منهما أن ندخل الخيمة لنـزيح عن وجوهنا هذه الستور، فدخلتا أمامي. جلسنا برهة في الخيمة صامتات، ثم تكلَّمتُ برفق، وتكلَّمتِ الكبرى منهما بحذر.. هما أختان يتيمتان، الكبرى أصغر مني بأعوامٍ واسمها مثل اسمي. وجهها أبيضُ من غير سوء، وشعرها كثيفٌ جَعْدٌ، يميلُ لونُه البنيُّ الغامق إلى اصفرارٍ خفيف. أختها الصغرى في حدود العاشرة، اسمها شيرين لكنها لثغاء تنطقه سيرين، لا بُدَّ أنها وُلدت بعدما مَلَكَ الفرسُ نواحينا.

فهذا الاسمُ من أسماء بناتهم، ولا أعرف معناه. سألتها باسمةً عنه، فقالت بصوتٍ خفيض رقيق: سيرين يعني الصغيرة الحلوة. قلت لها: أنت حقًّا صغيرة، وحلوة.. فابتسمتْ خَجْلَى، ونظرتْ نحو أختها.

جلستُ معهما حتى عَمَّ الليلُ الأنحاء، وتألقتْ نجومُ الصحراء الناصعةُ. جاءنا بعد حينٍ عبدٌ بائسٌ، يدعونا إلى الجلوس خارج الخيمة، إذا أردنا، فالرجالُ سيبدأون الشواء.. لم أعرف العبيد قبل اليوم، لكنني سمعتُ عنهم. لن آكل من هذا الغزال، فقد رأيته يموت بالسهم من غير ذنب، مع أنني جائعة.

جلسنا خلف الرجال على مبعدةٍ، بحيث نراهم على ضوء النيران الشاوية، ولا يروننا جيدًا. بقينا ناظرات نحوهم، نتسمَّع كلامهم ولا نتكلـم. كانـوا خمسة رجال، زوجي وحاطبًا وثلاثةً من العرب لا أعرفهم، يجلس خلفهم من الجهة الأخرى، ثلاثةُ عبيدٍ. وفي وسطهم عبدٌ نحيل، يقلِّب أجزاء الغزال على أسياخٍ تتَّقدُ تحتها النارُ. العبيدُ سود. ليس على رءوسهم عمائم، وعلى وجوههم علامات الذِّلة والانكسار. زوجي وإخوته، ليس معهم عبيد. سوف أسأل عميرو غدًا، إن كان في بيوتهم عبيدٌ من هؤلاء؟ وليته يقول: لا.. انتبهتُ حين تحدَّث رجلٌ من الثلاثة المتحلِّقين حول النار:

ـ *يا حاطب، نريد شيئًا نشربه.*

ـ *الخمرُ حُرِّمت علينا، فاذهب حيث شئت واشربْ هناك، ولا تعد إلى هنا.*

ـ *إذن هو شواءٌ ولا سَمَر، وليلٌ ولا قمر.*

صمت حاطب حينًا، ثم نظر إلى زوجي وسأله عن أخيه، النبطي، إن كان لا يزال هائمًا في أوهامه الزاعمة أن خبر السماء يأتيه. فقال زوجي: لا عليك منه يا حاطب، فهو لا يحدِّث الناس بهذا الوحي.. فزعق حاطب: *لا تقلِ الوحي، فالوحيُ الحقُّ واحدٌ. نادِه فأُسْمِعَه القرآن، ليدرك أن الجنَّ تلعب برأسه.*

سألتُ الفتاتين، إن كانتا تعرفان ما هو الجنّ، فأشارتا إلى أنهما لا تعرفانه.. جاءت بعد حينٍ جلبةٌ من عند مربط الدواب، ثم اقترب رجالٌ، يتقدَّمهم رجلٌ نحيلٌ يتهلل صائحًا: يا حاطب، وصل الآن شدَّادُ بنُ وَهْب اللات الثقفي وعمرو بن العاص السهمي، ومعهما جماعة، فهل ندعوهم للوليمة؟ هَزَّ حاطب رأسه موافقًا، فجلس الرجالُ مع الرجالِ وجاء بعدهم رجالٌ آخرون.. اتَّسعتِ الدائرةُ، وارتفعت ألسنةُ النار ففاحتْ رائحةُ الشواء، وتداخل فيما بينهم الكلام. بعدما انتصف الليلُ، أطلَّ القمرُ على استحياءٍ، شاحبًا، من خلفنا. وداخلني النعاسُ، بينما الجالسون من الرجال يتحدَّثون، فيصلني شتاتٌ من أقوالهم:

ـ *أعطِ ضيوفنا لحمًا كثيرًا.*

ـ لن نشرب الليلـة خمرًا.

ـ انقضى الربيعُ وما ارْتَبَعنَا، وفاتنا النيروزُ وما تَوَرَّزْنَا.

ـ ما بالك تختفي يا ابن العاص، خِلْتُ أنك في الحبشة.

ـ جئتُ منها في تجارةٍ، وسأعود إليها.

ـ ألن تنـزل مكة..

ـ يا حاطب، مات رجالُ قريش الذين كنا نشتاق إليهم، فخَلَتِ الديارُ وخوتِ الأفئدةُ.

ـ إذا جئتَ إلينا مسلمًا يا عمرو، سيرحِّبُ بك النبيُّ.

سنرى ما يكون..

جَبَلُ إِيل

فتحتُ عينيَّ ساعةَ الفجر، فوجدتُ الفتاتين نائمتين في زاوية الخيمة، وماريةُ تحتضن أختها الصغيرة كي تطمئنها. المحضونُ والحاضنُ يطمئنان. مَنْ سيحوطني بحضنه حين تبتلعني هذه الصحراء، وقد صرتُ في ثياب العربيات.. آه يا أُمي.. سوف أظلُّ ساكنةً هنا، أتسمَّع جلبة الدوابِّ في الخارج، حتى يأتيني من وراء الخيمة خبرٌ. لو تأخروا، سأخرج لأرى عميرو، علَّني أجد عنده الأجوبة: لماذا لا يهرب العبيدُ من مُلاَّكهم؟ ولماذا يشوي العرب اللحم، ولا يطبخونه فيكون الطعام أكثر؟ وما معنى أن جدته، أمَّ البنين، تعبد اللات؟ ومَنْ هؤلاء الرجال الذين تحلَّقوا هنا بالأمس حول الشواء؟ ولماذا غاب أبوه عن المجلس، وعمه النبطي..

ـ هيا يا امرأتي، سنرحلُ الآن.

ناداني زوجي، فأزحتُ عني لحافي وقمتُ مضطربةَ البال، فأسدلتُ السِّتْرَ على وجهي. عند خروجي من فتحة الخيمة،

لسعني بَرْدُ الهواء. اللونُ الأحمرُ الشفَّافُ يكسو السماء، حَيِيًّا، من جهة الشرق. والنبطيُّ وأخواه وابنُ أخيه، أمام الدواب المحمَّلة بالزكائب المنتفخات.. ساعدني زوجي، فركبتُ البغلة وقد خَفَّ ألمُ افتراق ساقيَّ. ركب أمامي ناقته، والتحقنا بذيل القافلة وقد صارت أطول مما كانت، وأعرض، بعدما ضمَّت عشرات الدواب، ورجالًا كثيرين، وفتاةً وحيدة.. أنا ما عدتُ فتاةً، أنا الآن امرأةٌ.. امرأةُ سلومة.

مع طلوع الشمس من مخبئها، امتدَّ المدى من حولنا بالرمال الحمراء. لا شيء حولي إلا الرمالُ، وظَهْرُ زوجي القابع فوق ناقته، يهتزُّ على ظهرها للخلف والأمام وهي تمشي به بخطوٍ رتيب.. بعد حينٍ راح الحادي من بعيدٍ يغني بصوته الشجيِّ، ليطرب الدوابَّ، ويجلب إلى قلبي الأسى. تأخَّر زوجي بناقته، فصار إلى جانب بغلتي، وبصوتٍ خفيضٍ قال إن بإمكاني كشف وجهي، فلن يراني أحد ما دمتُ في ذيل القافلة.

الهواءُ روحُ الأحياء.. ملأتُ صدري بنسمات الصباح، وتملَّيتُ فيما حولي، فلم أجد الكثير. لا حياة في الصحراء. لا شجرَ ولا طيور على مرمى النظر، ما عاد في الأرض العشبُ المتكوِّرُ الذي كانت ترعاه الإبل السائبة قبل أيام، ولا القطعُ الخضراء التي قُتل بالأمس فيها الغزالُ.. لا أظنُّ أن زوجي غضب مني، لأني لم أعرف الفرق بين الناقة والجمل. هو يتلطَّفُ معي كأنني طفلةٌ، ولن يغضب

لو أخطأتُ. هو طيبٌ. ولكن إذا غَضِبَ يومًا، هل سيضربني؟ حتى الرجال الطيبون، يضربون نساءهم عند الغضب. رجالُ العرب أشداءُ خَشِنون، ويحملون رماحًا وسيوفًا طيلة الوقت، وقد يقتلون زوجاتهم عند الغضب، أو يجرحون. بعدما أستقرُّ ببيت زوجي، سوف أسأل النسوة عما يفعله رجالهم إذا غضبوا.. ما معنى الذي قاله الهوديُّ بالأمس، من أن زوجي تزوَّج من قبلُ عربيةً، فكان منها الذي كان؟.. سأسألُ عميرو.

صارت شمسُ الصباح الباكر تأتيني عن يساري، وعندما توقفنا ساعة الظهيرة سألتُ زوجي وهو يُنـزلني عن بغلتي، عن وِجْهتنا. قال: إننا سنلقى الليلة قافلةً عند غردقةٍ قرب البحر، ثم نعرِّج شرقًا. هكذا قال. ساعةَ الغداء، سألتُ عميرو همسًا عن معنى غردقة، فقال وهو يبتسم: اسألي عمي.. كان النبطيُّ يمر أمامنا لحظتها، كنسمةٍ حانية، فصاح عليه الصبي وأخجلني:

ـ *عمَّاه، هي تسألُ ما الغردقةُ.*

وقف النبطيُّ أمامنا، وأدار وجهه نحوي برفقٍ، وقال وهو يغضُّ طرفه: *الغردقةُ يا خالة، مجتمعُ النخل في وادٍ لا زرع فيه، فإن كان فيها بئرٌ أو آبار، فهي واحةٌ..* يُعجبني قوله: يا خالة، وأنا الأصغر منه سنًّا.

وهم يُنهضون الإبل لاستكمال المسير، سألتُ عميرو: أليستِ الجاريةُ هي زوجةَ العبد؟ فاستغرب سؤالي، ثم انتبه إلى أمرٍ فقال وهو يضحك: *تقصدين العبدة، لا، هذه تُسمى الأَمَة. والجماعة منهن*

إماء. أما الجارية، فهي كل بنت صغيرة، في العاشرة من عمرها أو الثانية عشرة، تريد أن تلعب مع أترابها وتجري بينهن، فهذه تسمَّى جارية، يعني الفتاة إذا راهقتِ البلوغ.. كان يتكلم بسرعة، فادركتُ ما قاله بعد هنيهةٍ من شرودٍ، ثم نظرتُ في الأفق البعيد وأخذني خاطرٌ غريب: مضى زمنٌ طويل منذ كنتُ جارية، فما أنا الآن: فتاةٌ، أم أَمَةٌ، أم امرأة؟

قبل أن يتركني عُميرو عند البغلة لزوجي، ليرفعني عليها، سألته إن كنا سنرى البحر قبل هبوط الليل، فقال: لن نراه. راجعته فأكَّد ما قاله، وأحزنني، فلطالما تمنيتُ أن أرى البحر. لما اقترب زوجي سألته هامسةً، فأجابني بأن لهذا البحر قرنين، ونحن على مسيرة يومٍ من القرن الأول الذي اسمه القلزم، والرمالُ عنده رخوةٌ لا تُناسب سير القوافل، والقافلةُ الآتية من الصعيد ستلقانا على مسافةٍ منه، من حيث لا نراه.. سَكَتَ لحظة كأنه يفكِّرُ، ثم قال: إننا سنرى القرن الآخر من البحر، بعد أيام، ونبيتُ هناك ليلةً أو ليلتين، في بلدة أَيْلَة.

قبل الغروب التقتِ القافلتانِ، واتخذتا على سطح الرمال الناعمة سبيلًا واحدًا. الشمسُ في ظهورنا، والهواء يبرد رويدًا. كيف يعرفُ العربُ هذه الطُّرق، وكيف يتواعدون في أرضٍ لا علامات فيها؟ لا شأن لي، ولن أسأل، كُلُّ ما أرجوه الآن هو أن تمرَّ الأيام سريعةً، فأسكن بعد الرحلة بيتي، وأُنجب فيه الأولاد.

القافلةُ خيَّمتْ بعد هبوط الليل، في موضع رطب الهواء. لم أر عميرو ولا غيره، أدخلني زوجي في زاوية خيمة محجوبة بأستارٍ، فغفوتُ. تحركنا فجر اليوم التالي، وقد صرنا كثيرين. القافلةُ أصبحت وكأنها بلدٌ كبيرٌ ينـزلق على الرمال. أمامي مئاتٌ من الدوابِّ المحمَّلة، والراكبون، يسيرون صامتين كالنائمين. الشمسُ في الوجوه فجرًا، وفي الظهور عصرًا.. النهارُ هنا أحرُّ، والليلُ أبردُ.. عربٌ معرِّشون في خيام، يلقوننا في الطريق كل حينٍ وحين. نمرُّ بهم أحيانًا، وأحيانًا نراهم من بعيد. وعميرو يسير بحماره بعيدًا عني، فلا أراه ولا يُجيبني عن شيء.

* * *

ما عدتُ أَعُدُّ الأيام. فما ثَمَّ إلا حِلٌّ وترحال، بعده حِلٌّ وترحال. صرتُ لا أكترثُ بما يحوطني من فضاء الرمال. لا أرى إلا انعكاسَ الشمسِ على وجه الرمال الصفراء في النهار، واسوداد الصحراء الصامت في المساء.. في عصر يومٍ قائظٍ، تغيَّر شكلُ الأرض. ما عادت مسطَّحةً مثلما كانت، وإنما نهدت أمامي وتقبَّبت، فرأيتها في المدى كمثل نساءٍ حوامل، على ظهورهن مستلقيات.

قبل الغروب لمحتُ في أقصى الشرق، أكوامًا سوداء بعيدة. اقترب عميرو بحماره مني، فأشرتُ إليه فحاذاني. سألته عما أراه في الأفق البعيد، فقال: إنها الجبال، جبال سيناء. وأخبرني من دون أن أسأله، بأنه حين نبلغها، سيتركنا ويذهب جنوبًا مع عمِّه النبطي، إلى جبل إيل.

أسكتني كلامه. سرتُ صامتةً، حتى لكز حماره بساقيه النحيلتين، وغاب بقلب القافلة.. قلتُ في نفسي، فليذهب النبطيُّ إلى حيث يشاء، أنا لا شأن لي. ستنتهي الرحلةُ بعد أيام، وأعيش في بيت زوجي المسمَّى سلومة. الأحول، الأبخر. فهو الرجلُ الذي تزوَّجني، من دون أن يعرفني. جاءني فوعدني بعد موعدي، ورحل، ثم وافاني قبل موعده. وهو يُعنى بي طيلةَ هذا السفر، ويسير بقربي، ويُنـزلني عن بغلتي ويرفعني إلى ظهرها.. قال لي مساء الأمس في الخيمة، ونحن نجلس ولا أحد حولنا، إنه لن يقرَبني إلا بعد الوصول، لأنه وَعَدَ بذلك أمَّ البنين. هو يسمِّي أُمَّه، أمَّ البنين.

ليقربني وقتما يشاء، هذا شأنه، أنا ما عاد لي شأنٌ بأيِّ شيء. ولكني سأعمل على نيل رضاه، وتحقيق راحته. وأحبُّه قَدْر المستطاع، وأكونُ وفيةً له كالكلب مع صاحبه. كانت أُمي تقول: إن الكلب وفيٌّ، لأنه لا يفكر في غير صاحبه، ولا يطيق الابتعاد عنه. سأبقى دومًا بقرب زوجي، ولن أفكِّر في سواه. هذا حقُّه عليَّ، وعليَّ أن أحفظ له ما يستحق.. أنا أبكي من خلف سِتري، من غير صوت.

* * *

ما جبلُ إيل؟ أنا ما رأيتُ من قبلُ الجبال، ولا أعرف معنى إيل، ولن أسأل.. لعلهم يتاجرون مع أناسٍ يسكنون هناك، أو لعل عميرو يعيش مع عمِّه هناك، ولا يقيم ببيت أبيه الهوديّ. عمه

يعيش وحيدًا، ربما، لأنه حسبما قال عنه زوجي: لا يحبّ النساء ولا الغلمان.. ما الغلمانُ؟ لعلهم نوعٌ من النساء، كبيرات السن مثلًا أو الصغيرات. أو السوداوات. في المساء سألتُ عميرو، فقال مستغربًا سؤالي: أنا غلام.

ألا يحبُّ النبطيُّ ابنَ أخيه، الغلام، وهو الذي يكلِّمه دومًا ويبتسم في وجهه. وعميرو متعلِّقٌ به، ولا يكاد يفارقه. يتبعه على الأرض كظلِّه، ويسير بحماره قربه. هو كالكلب الوفيِّ لعمِّه، فبأيِّ معنًى لا يحبه؟ ربما يحبُّ النبطيُّ امرأةً تسكن في جبل إيل، وزوجي لا يعرفُ هذا السِّرَّ، فقال ما قاله عن أخيه، وهو لا يعرف حقيقة حُبِّه المستتر هناك.

* * *

الجبالُ تقتربُ، كلما نشطتِ القافلة. والناسُ من حولي كثيرون، وغير موجودين. طلوعُ القمر يبكِّرُ كُلَّ ليلةٍ ساعةً، ويزدادُ نُورُه. قَمَرُ الصحراء قويٌّ كشمس القرى والكفور، في الأمسيات يفرش على الأرض نوره، ويجعل الرمال فضيةً لامعة، فأستطيع تمييز الوجوه بلا قنديل.. القافلة تسير في الأمسيات القمراء، حتى وقت متأخر من الليل، وتهجع دَوَابُّها والناسُ عند الظهيرة. صار المساءُ يُؤْنسني، والنهار يقلقني. قلتُ لعميرو ذلك، مستغربةً نفسي، فقال: *ليلُ الصحراء عميق، والقمر يزيده عُمقًا، ولذلك عَبَدَ القدماءُ القمر*.. استغربتُ كلامه، فسألته من أين يعرف كُلَّ

ذلك؟ فقال إن عمَّه النبطيَّ يخبره. أردتُ أن أسأله عن جبل إيل، لكنني خجلتُ.

العربُ يهتمون بالقمر، ويجعلون شهورهم والأيام موافقةً له. هم لا يعرفون شهور الذين يزرعون، ولا يقولون مثلهم توت وطوبة وأمشير. فإذا ما اختفى القمرُ تمامًا من السماء وصار في المحاق، فهذا عندهم آخِر الشهر. ويومًا بعد يوم، يطل القمر ليلا كالهلال في آخر الليل، ثم يبكِّر في الطلوع شيئًا فشيئًا، فيصير بعد أسبوع كنصف درهمٍ فضيٍّ جديد، فيسمونه آنذاك: التربيع الأول، وبعدها بأيامٍ يستديرُ أكثر فيسمونه الأحدب. في منتصف شهورهم، يكتمل القمر ويظهر لحظة غروب الشمس، وقد صار بدرًا كاملًا. ثم يتناقص دورانه، ويتأخَّر في الليل ظهوره يومًا بعد يوم، فيصير ثانيةً الأحدب، ثم التربيع، ثم الهلال، ثم يختفي في المحاق آخر الشهر، ويموت.. ويولد مرة أخرى مع بداية الشهر الجديد.

مع اختلاف ضوء القمر، وتوالي خُطى الـدواب. راحتِ الأرضُ من تحتي، ومن أمام ناظريَّ، يتغير شكلها. بطون الحوامل المستلقيات، ازداد ارتفاعها. وكلما اقتربنا من الجبال، خشُنتِ الرمالُ التي تمشي عليها القافلة، وصارتِ الأرض كالقباب الكبار، بعدما كانت كالأكوام. هذه القباب يسمونها التلال. أما الجبال، فهي جدرانٌ شاهقةُ الارتفاع، عابسةٌ، صخرُها قاسٍ. تشقِّقها دروبٌ ملتويةٌ، تنـزل من الأعالي، كأنها مسارات الثعابين بين الأشجار.

الجبالُ تُخيف. كلما دخلنا فيها، جثمت بثقلها على صدري، حتى تكاد تخنقُ أنفاسي. بين دروب الجبال، صار صوتُ الحادي أرقَّ وأخشعَ، وذا أصداءٍ مهيبة.

الخيامُ التي سوف ننام في حضنها الليلة، لأعرابٍ يسكنون سفح جبل، ويسكن معهم أطفالهم والنساء. هذه خيمة النساء. زوجي ينام مع أهله في الخيمة الأخرى، ومعهم رجالٌ كثيرون.. اليوم، قبل الغروب، رأيتُ في طريقي نخلةً مثلي، وحيدة، تقوم من بين الصخور في قلب الجبل. مَنِ الذي زرعها هناك، وهناك لا تراب لتُدفن فيه الفسائل والبذور. ومَنِ الذي يسقيها الماء حتى تعيش، ومَنْ يحمل عنها بَلَحَها لتستريح.. واليوم، بعد الغروب، شعرتُ بوجع ظهري المنذر ببدء فيضاني، وعرفتُ أن الوجع سيجتمع عليَّ، مع مشاقِّ الطريق الذي لا يريد أن ينتهي. وعَرَفتُ أن العالم واسعٌ، ولا آخر له.. واليوم، بعد طعام العشاء، جاء عُميرو وجلس بجانبي عند طرف الخيمة، في ضوء القمر، وقال إنه جاء يودِّعني لأنهما سيرحلان عند منتصف الليل، ويسلكان الدروب إلى جهة الجنوب.

ـ *وماذا تفعلان هناك؟*

قلتُ ذلك بصوتٍ خفيض، وكأن الأمر لا يهمُّني، فردَّ متباهيًا بصوتٍ صريحٍ، بأن جبالَ الجنوب أعلى من هذه الواقفة فوقنا، وأجدبُ. زارها مع عَمِّه مرتين من قبل، لهم أقارب يعيشون بينها.

بينها جبلٌ عالٍ اسمه جبل إيل، في سفحه ديرٌ كبير للرهبان، وفي أعلاه موضعٌ يبيتُ فيه الناسُ، ليروا في الفجر أول شعاع للشمس. عمُّه النبطيُّ يقول إن الإله، إيل، يُوحي إليه هناك بالحقائق، فجرًا.. إلى الجنوب من هذا الجبل، جبلٌ أقلُّ وعورةً اسمه جبل الربَّة، الربَّة يعني اللات. هكذا قال، وقال إن عمه يحب زيارة هذا الجبل الأخير، للتبرُّك ولإرضاء أمه أمِّ البنين. ويأتي لها بأعشابٍ من هناك، تشرب منقوعها لوجع الركبتين.

ـ ومتى تعودان؟

ـ سوف نعرِّج من عند جبل الرَّبَّةِ شرقًا، حتى نصل البحر ثم نركبه إلى نهايته، ونلقاكم في بلدة أيلة. بعد عشرة أيام.

عشرة أيام.. لو وافق زوجي لذهبتُ مرافقةً، فأرى جبل إيل هذا، وجبل الربة، والبحر. وأشرب هناك منقوع الأعشاب، فركبتاي تؤلمانني. رأسي أيضًا يؤلمني، وكتفاي وظهري.. سَكَنَ عميرو برهةً، وهو يعقد ذراعيه حول ركبتيه، ثم قام منتفضًا كعادته وهو يقول إنهما سيرحلان الآن، فالليلُ قد انتصف. لم أرهما يرحلان، ولن أراهما حتى تمر أيامٌ كثيرة، عسيرةُ السير بين دروب الجبال الموحشة.

* * *

أطلَّ الفجرُ مُمِلًّا حزينًا. لم أنمْ ليلتي، ولم أنتبه إلى حركة

الصاخبين حولي، نهارًا، استعدادًا للرحيل. ما عاد الأفقُ يمتد أمام ناظريَّ، لأن جدرانَ الجبالِ تقوم فوقنا، والدروبَ التي نسير فيها، تضيقُ وتتسعُ من دون أن تكشف للعين المدى. ما ثم إلا جبلٌ ينتهي هبوطًا، فيقوم الآخر قبل انتهائه، ويعلو.. صار الطريقُ أشدَّ قسوة، وآلامُ باطني. ضِقْتُ بفيضان معدني، وبسكون الهواء، وبالقمر الذي يتأخَّر طلوعه كل ليلةٍ عما قبلها، ويزداد شحوبه استعدادًا للمحاق.

ما عاد زوجي يكلِّمني، إلا نـادرًا. يسير أمامي بجوار أخيه الهودي، ويسير ورائي سربٌ من حميرٍ محملة بأشياء لا أعرفها، ولا أريد أن أعرفها، وبآخر السرب خادمان لا يتكلمان.. ما عاد الحادي يرنِّم الكلمات، فصارتِ الدوابُّ حزينةً مرهَقة، تتمنى الوصول إلى حيث لا يحوطها هولُ الجبالِ العالية، والدروب الخانقة، والمللُ المحيط. لا شيء بين الجبال إلا الجبالُ، والكتلُ الصخرية الكبار التي تريد أن تنهار، وأشجارٌ متفرقات.

بعد أيام، جلس زوجي بقربي صامتًا كعادته، ورأيتُ روحي معذَّبةً، فسألته بقصدِ كَسْرِ السكون: متى سنخرج من بين شقوق الجبال؟ فقال دون أن ينظر نحوي: *بعد غدٍ، نصل النويبع*.

أَيْلَة

الأيامَ الفائتة شعرتُ، شيئًا فشيئًا، بأن الأرض ترتفع بنا. معاناةُ الدواب في السير، وضيقُ أنفاسي، يخبراني بذلك. لكننا لم نصل قطُّ، لقمم الجبال. فمهما ارتفعنا، ارتفعت، وأطلَّتْ علينا رءوسها العالية، وصارتِ الدروب أضيق.

ضقتُ بالطريق، وبوحدتي بين المرتحلين. ما عدت أسألُ عن شيء، حتى يكلِّمني فيه زوجي. الجبالُ فيها جلالٌ، تشيع في النفوس الهيبة والرهبة. أهل القافلة صاروا على كثرتهم، صامتين في الحِلِّ والترحال. كأنهم مثلي، ينتظرون الخروج من هذا التيه الكريه.

صباح اليوم، تغيَّرت رائحةُ الهواء على نحوٍ غريب، لا أعرفُ كيف أعبِّر عنه. لكنها تغيَّرت. وفي الظهيرة، رأيت أمامي منحدرات كثيرة، ودروبًا تهبط بالقافلة من العلو الوعر، إلى وهادٍ بين الجبال. تأكَّدتُ من أننا كنا نسير على أرضٍ عالية، وأننا الآن سائرون إلى

أرض سهلة.. وفي المساء، عرفتُ من زوجي أننا سوف نصل مساءَ غدٍ، إلى ساحل البحر.

البحرُ ماءٌ كثيرٌ، أزرق مثل سماء الظهيرة، وأكبر من النهر بكثير. تحوطه الجبالُ من كل جانب، كأنها تحتضنُ المياه وتشرف عليها من الأعالي. بين ماء البحر وجدران الجبال، سواحلُ رمليةٌ نحيلةٌ تمتد يمينًا إلى جهة الجنوب، ويسارًا إلى الجهة المقابلة. في ساحلٍ منها، أوسع مما عداه، تنتصب خيامٌ كثيرةٌ قُرب الماء الطافية فيه مراكبُ كبيرة، يسمونها هنا السفن. ويسمُّون هذا المكان النويبع، لأن فيه نبعًا صغيرًا ماؤه عذبٌ وباردٌ، حتى في حَرِّ النهار.

أبهجني الوصولُ إلى النويبع، والدوابُّ ابتهجتْ، وأهلُ القافلة. مشهدُ البحر لم يكن عند وصولنا، ليلًا، جميلًا مثلما هو هذا الصباح. النخيلُ المتناثر بين الأنحاء، وحركةُ الناس، يدُلاَّن على الحياة.. وددتُ لو أغطسُ في الماء مثلما يفعل الرجال، وزوجي، لكنه ما دعاني إلى ذلك. دخل في الماء على مبعدةٍ من الرجال، حتى غطَّى به صدره وراح يلوِّح لي كل حين، ويضحك، وأنا متكوِّمة تحت الأردية السوداء، وستور الرأس والوجه. حَظُّ الرجال من الحياة، أوفرُ من حظِّ النساء.

نادى رجلٌ من مكانٍ قريبٍ، بصوتٍ غريبٍ أجشَّ: *السفينةُ سوف تُبحر إلى أَيْلة بعد ساعة، فاستعدوا*.. خرج زوجي من الماء مُبلَّلَ الجلباب، والرجال خرجوا يتضاحكون ويصخبون بكلامٍ كثير.

كان الهوديُّ في الخيمة، وحده، تجلِّله سحابةٌ من أسى. هو دومًا حزينٌ، غائم النظرات. لكنه بين الناس، مختلفُ الحال عما يكون عليه إذا انفرد. لعله يُخفي بنظراته الحادة إليهم، وبكلامه الأحدّ، حُزنَه. ولا بُدَّ أنه يأسو الآن لفراق ابنه عُميرو، ويحنُّ إليه ويشتاقُ، ويقلقُ عليه من السير بين دروب تلك الجبال القاحلة الموحشة.. لكنه سيراه على كل حالٍ، بعد يومين، ويفرح بُلقياه في أيلة.

ركبنا السفينة كلنا، الناسُ والدوابُّ، وعامت بنا على سطح المياه. يدفعها قماشٌ قويٌّ منصوبٌ فوقها، منتفخُ البطن بالهواء، يسمونه الشراع. لو يسمح لي زوجي، فأرفع عن وجهي نقابي، وأملأ صدري من هذا الهواء.. في السفينة نساءٌ أخريات، مثلي منقَّبات الوجوه بالستور السود، ولا يشتكين. عليَّ أن أستكين، إلى حين وصولي إلى بيتي، فأتحرَّر هناك وأرتاح.

كان الهوديُّ يجلس في زاوية السفينة، وحوله رجالٌ يحدِّثهم بصوتٍ لا يصلني واضحًا، عن أصول القبائل وجذور العرب الأنباط.. أبحرنا لساعات، ثم وصلتِ السفينةُ ساعةَ الغروبِ، إلى بلدة كبيرة تؤطِّرها الجبالُ. أشار إليها زوجي عندما لاحت لنا، وقال لي كأنني سألته: *هذه أيلة، عندها تلتقي جزيرةُ العرب والشامُ. وإلى الشرق منها تمتد مضاربُ الأنباط القديمة*، حتى *تصل إلى أرض العراق*.. هكذا قال، وكأنني أكترث للعراق والشام. لو سألني لأخبرته بأن كل ما يشغلني الآن، هو عيون العرق الفوَّار تحت

ملابسي، ورغبتي في مَسِّ المياه الجارية على خدِّ المركب الكبير، بكفِّي.

تفرَّق الناسُ وتوزَّعتِ الدواب، عندما رستِ السفينةُ ولامستْ طرفَ لسانٍ طويل، يمتدُّ في البحر. سار الهوديُّ أمامنا ومعه رجلان لا أعرفهما، خلفهم عشرةُ جمالٍ تنوء بحملها، خلفها ناقة زوجي ثم بغلتي، وخلفنا الحمير المحمَّلة.. هذه البلدة كبيرةٌ جدًّا، فيها نخيلٌ كثيرٌ وبيوتٌ ذات جدرانٍ وأبواب، وخيامٌ منصوبة فوق الساحل الرملي الواسع. خلف البيوت، كنيسةٌ كبيرة يحرسها من خلفها الجبل القريب، وتمتد أمامها بيوتٌ وبناياتٌ بلا أسقفٍ يسمونها الأحواش، موزَّعةٌ على غير نظام حول بئر كبيرة جدًّا، يبيعون منها الماء. الماءُ هنا له ثمن. لأهل زوجي حوشٌ واسعٌ، بين الأحواش الكبار المتقاربة، المسماة أحواش الأنباط. لكل حوشٍ منها بوابة.

الناسُ هنا يغلِّفون البلح بقماش خفيف، وهو فوق النخلات المثمرات، كيلا يقع على الأرض أو تُسقطه الطيور، قبل اكتمال نضجه. سكَّانُ هذه البلدة مهرةٌ، حاذقون. في الأنحاء شجرٌ قليل، عالٍ، وفي الهواء رائحة ما يطبخون.. دخلنا الحوش الكبير، فأناخوا الجمال تحت سقيفةٍ وسقوا هناك الدوابَّ، ثم انصرف الرجلان. في أطراف الحوش، خمس حجرات مسقوفةٌ بالجريد. مبنيةٌ من قطع الأحجار الصغار، مثل سور الحوش.. أخذني زوجي إلى حجرةٍ صغيرة لها باب، أغلقه عليَّ وغاب. جلستُ على دكَّةٍ من

جريد النخل، كان يعلو فرشها ترابٌ كثيرٌ أصفر. نمت عليها بعد حينٍ، كالثَّكْلَى، مبلَّلةَ الخدَّين.

أتاني زوجي في الصباح بطعامٍ لا طعم له، وقال كأنه يبشِّرني بأمر مفرح، إنه سيأخذني عصرًا إلى الكنيسة كي يبارك الأسقفُ يوحنا بن رؤبة، زواجنا.. لا أريد الخروج، لا عصرًا ولا فجرًا، ولو أستطيع لجلستُ في هذه الحجرة، حُرَّةَ الوجه بلا نقاب. قلتُ: هل يمكنني الخروج من الحجرة إلى الحوش، مكشوفة الوجه؟ فقال: يمكنك، فلا أحد هنا غير أخي الهوديِّ، يجلس تحت السقيفة، ولسوف أحضر لك الماء إذا أردتِ الاستحمام.

ـ متى يصل عميرو؟

ـ غدًا، أو بعد غد.

الماءُ هنا قليلٌ، وكُل شيء شحيح. أوصدتُ الباب وخلعتُ عني ما ألبسه، فارتاحت أنفاسي. باطنا فخذيَّ أسمران، وقدماي مسودَّتان، وكأن ببطني بُقعًا حمراء فاتحة اللون.

الماءُ يؤلمني، أم هذا الصابونُ الأسود الغريب، أم هو التهابُ جلدي؟ تعذبتُ حتى تحمَّمت، وأردتُ بعدما انتهيتُ أن أستحم ثانيةً بالماء، لأخلص من رائحة الصابون، لكن الماء نفد. عند الظهيرة دقَّ زوجي عليَّ الباب الخشبي، ودعاني للخروج إلى الحوش لطعام الغداء. تحت السقيفة التي يتهدَّل من فوقها الجريدُ،

كان الهوديُّ يجلس ساكنًا أمام طاولة قصيرة القوائم، عليها أرغفةٌ وسمكٌ أسود، مشويٌّ، يسمونه هنا الغُبَّان.

شكل السمك غريبٌ، وطهوه غريبٌ، وطعمه. جعلتُ أكثر أكلي من الخبز والملح الممزوج بالبهارات اللاذعات. بعدما انتهينا، أعاد زوجي السمك الباقي إلى سلة الخوص، وأحكم إغلاقها بحزامٍ، وجعلها مع الخبز في مخلاة من قماش، علَّقها على وتدٍ يطل من الجدار.. الهواءُ ساكنٌ، والأشياءُ تخفي ظلها تحتها، وفي الأجواء غبارٌ خفيف. قام زوجي إلى إحدى الغرف لينام ساعة، حسبما قال، ثم يأخذني إلى الكنيسة. حين قال: الكنيسة، ثم ابتسم، نظر إليه الهوديُّ مستغربًا أو مستنكرًا.. وجدتني جالسةً مع الهودي، وحدي، ولا بأس لو كلَّمته. سألته:

- هل تذهب إلى الكنيسة؟

- لا، لستُ على هذا الدين.

- وابنك عميرو، الظريف، هل هو يهوديٌّ مثلك؟

- هو محضُ صبيٍّ، لا دين له. وهو يعتقدُ في كلام عمِّه النبطي.

- وما كلامُ عمِّه؟

- الخرافاتُ. فأخي غيرُ يهوديٍّ، أُمِّيٌّ، فكيف تأتيه النبوةُ؟ قومي معي لنسقي الدوابَّ، ونضع لها العلق.

عاونتُ الهوديَّ فيما طلب، ثم أويتُ إلى الظلِّ. ظِلِّ السقيفة. وجلس هو على مقربة، وأخرج من جيبه لفافة مطوية، صغيرة الحجم، راح يتلو منها بصوتٍ خفيض، ويهزُّ مع الكلمات رأسه. حين توقَّف عن التلاوة، سألته عن معنى الأنباط، فقال بعدما طوى اللفافة ودسَّها في جيبه: إن النبط والأنباط بمعنى واحد. هُم جماعةٌ من العرب، قديمةٌ جدًّا، سُمُّوا بذلك لأنهم تفنَّنوا في استخراج الماء وإنباطه من الأرض الجرداء، ومَهروا في تخزين النازل منه بالسيول. كانت لهم في الماضي مملكة كبيرة، وملوكٌ كثيرون، وكانوا يسكنون البادية التي بين الشام والجزيرة، وعاصمةُ مملكتهم وقصبةُ بلادهم، هي الموضع الذي نسكن اليوم فيه، وفيه سوف تسكنين.

نظر إلى الحمار الذي راح ينهق وهو يتمرَّغ في التراب، على عادة الحمير، ثم قال بأسًى بالغ، بدا معه وكأنه يريد أن يبكي: *ترك الأنباطُ بلادهم وهاجروا، قديمًا، فتبعثروا. وهم اليوم جماعاتٌ كبيرة، بلا بأسٍ، تسكن النواحي الشرقية من مصر، وأنحاء سيناء، وشمال الجزيرة، وجنوب الشام والعراق..* سَكَتَ لحظةً ثم قال ما لم أفهمه: *جماعتُنا الآن في حلفٍ مع جُذام، وبيننا عُهودُ الجوار.*

قام الهوديُّ متمهِّلًا ودخل حجرته، كأنه كان يحدِّث نفسه قبل قليل، وكأنني لم أُجاوره أو أُحاوره.. بدا لي أن زوجي سيتأخر في نومه، أو أنه فعل خيرًا وصرف النظر عن خروجنا، فقمتُ إلى حجرتي وأوصدتُ خلفي بابها، وكدتُ أنام لولا الذبابُ الكثير..

أوان العصر ناداني زوجي، فقمت من استلقائي على عجلٍ، وخرجتُ وراءه أتعثَّر في أرديتي السوداء، ويلفحني حَرُّ الهواء. ما بين الحوش والكنيسة، ساعةُ سيرٍ على الأقدام، أو أقل قليلًا. طيلة الطريق، كان زوجي يُحيِّي الناس الذين نمرُّ بهم، ويحيُّونه. وأحيانًا يتكلمون. الكنيسةُ كبيرةٌ، مربَّعة البناء، وحولها سورٌ قصيرٌ أمامه دوابُّ كثيرة، وعند طرفه الأيمن بيتٌ فيه حجرات، بأكبرها صليبٌ كبيرٌ يلتصق بأعلى الحائط، يجلس تحته على دكَّةٍ خشبيةٍ شيخٌ كبيرٌ. تقدَّمنا إليه، فقبَّل زوجي يديه المضمومتين على يمناه حين صافحه، ثم رفع رأسه وقال لي: *قبِّلي يد الأسقف*.

لظاهر كفِّه الأبيض، ملمس الأقمشة الناعمة، وفيه عروقٌ ظاهرة تخبر عن عمره المديد. لحيته بيضاءُ كلها، ورداؤه، وعيناه واسعتانِ هادئتان. جلستُ على الأرض عند الزاوية، وجلس زوجي على كرسيٍّ قريب. أشار إلى الزكيبة التي كان يحملها الحمار، وقال للأسقف: هذه هباتٌ للكنيسة، فشكره ثم نظر إليَّ وسأل: أنتِ يعقوبيةٌ طبعًا؟ فقلتُ: لا أعرف يا سيدي.

ضحك الأسقفُ وأشار إلى خادمٍ يقف عند الباب، فجاءنا بإبريق فيه ماءٌ بارد وخلٌّ. استغرَبتُ طعمه، فقال زوجي: *اشربيه، هذا نافعٌ مع حَرِّ الهواء*. ثم قال للأسقف: *امرأتي يا سيدنا من الفقراء، يعقوبيةٌ، وأنت تعلم أن الملكانيين، مُلاَّك مصر، لا يزوِّجون العرب*.

ـ للفقراء ملكوت السماوات. الربُّ يبارك لك فيها يا سلامة، ويبارك لها فيك.

* * *

همس الخادمُ في أذن الأسقف بشيء، فقال له بصوتٍ مسموع: *أدخلهم فور وصولهم.. ثم نظر إلى زوجي وقال: هذا حليفكم فروة بن عمرو الجذامي، جاء للزيارة ومعه امرأته سلمى، وجماعة..*

ابتهج زوجي لسببٍ لا أعرفه، عندما دخل الزائرون، يتقدمهم رجلٌ يرتدي ملابس غالية، وعلى رأسه عمامةٌ كبيرة، مجدولةٌ من قماشين رقيقين، لونهما الأبيض والأحمر الرمانيُّ البراق. لا بدَّ أنه أحد الملوك هنا. قام زوجي يرحِّب بالقادمين، ويخدمهم، كأنهم جاءوا إلى بيته. الغرفةُ الفسيحةُ امتلأت بالناس، رجالًا ونساءً. تفرَّق الرجال على الأرائك وجلسوا، وتكوَّمتِ النساء حولي كأفرانٍ صغيرة سوداء. لا بُدَّ أنهنَّ يعانين الآن ما أعانيه. تكلَّموا مع الأسقف بكلامٍ عربيٍّ، غريبةٍ لهجتُهُ، فلم أفهم معظمه.

انتبهتُ من دَوَران رأسي وجَوَلان أحزاني، حين قام زوجي وقال بصوتٍ عالٍ: قُومي لزيارة الكنيسة..

لماذا أتى بي زوجي إلى هنا؟ لعله يتاجر معهم، أو لعلهم أقارب. ليس في الكنيسة ما يُرى، إلا الصُّلبانُ المعلَّقة على الحوائط، وصورٌ

باهتةُ الألوان على الجدران، وكاهنٌ جالسٌ في الزاوية وحده وبيده مسبحةٌ طويلة، وحوله كآبةٌ معشِّشة.

سألني زوجي في طريق الرجوع، إن كنتُ أريد الركوب، ففضَّلت المشي. سار بيننا الحمارُ الهزيل، والشمسُ تؤذِنُ بالمغيب. مررنا على أحواشٍ وبيوتٍ، معظمها مغلقٌ، وخيامٍ خاوية. أريدُ أن أسأل زوجي عن سِرِّ فراغها من أهلها، ولا أريد أن أكلِّمه من وراء الحجاب.. عندما اقتربنا من بوابة الحوش، رأيتُ هناك دوابَّ تستعد للدخول، ورجالًا يتكلمون. انتبه إليهم زوجي، فأشار إلى بوابة حَوْشهم وهو يقول: *وصل أخي النبطي.*

* * *

رَقَّ الهواء مع دخول المساء، وأسعدني إقبالُ عُميرو علينا متهلِّلًا. كان يلبس جلبابًا جديدًا أبيض، نظيفًا. دخل زوجي في جماعة الرجال، ودخلتُ الحوش مع عميرو المبتهج.. رأيتُ الهوديَّ والنبطي يجلسان في زاوية الحوش، فأسرعتُ إلى الحجرة لأنزع عني أصفاد ملابسي السُّود. استوقفني عميرو: *انتظري، فقد جاء لكِ عمِّي بأشياءَ من رحلتنا*.. ثم انفلت إلى إحدى الحجرات، وجاءني منها يهمُّ في خطوه، وفي يديه جرابان من الكَتَّان، أحدهما منتفخٌ والآخر ثقيل. دخل حجرتي فوضع ما بيديه على الدكة، وهو يخبرني بأن الجراب الثقيل فيه هدايا عُرسي، وفي الآخر أعشابًا تذاب في الماء، وأستحمُّ بها، فتُذهب عني التهابَ جلدي.

ـ *وكيف عرف عمُّك أن جلديَ يلتهب؟*

ـ *هو يعرف كل شيء، لأنه سيكون نبيًّا.. سوف آتيك بماءٍ من بئر المؤابي، هو خلف حوشنا، لن أتأخر.*

جلست بجوار الجرابين حيرى، وحجرتي مفتوحةُ الباب. هل أذهبُ فأشكرُ النبطيَّ على هداياه، أم أنتظر حتى يأتي زوجي فأخبره أولًا؟ أم أخرج فأجلس معهما حتى يأتي عميرو بالماء، أم أقف عند باب الحجرة أنظر من بعيد؟.. رائحةُ العشب قوية، فوَّاحة، لم أشمّ مثلها من قبل. وفي الجراب الآخر أشياء، لن أنظرها إلا في نور الصباح، مع أنني أتحرَّقُ شوقًا لرؤيتها.

أفزعني دخولُ زوجي، فانتفضتُ حين رأيته أمامي. بدا في العتمة أطول. خرجتُ من اضطرابي بإخباره بما جاءني به عميرو، فقال: خير، خير. *تعالى إلينا بعدما تستحمِّين، وسأخرج الآن ومعي عميرو، لنحضر طعامًا للعشاء ولقوت الغد، فغدًا السبت*.. ما كاد ينتهي من كلامه، حتى دخل علينا عميرو وفوق رأسه إناءٌ نحاسيٌّ كبير، فيه ماءٌ كثير. وضعه على الأرض، ثم ملأ قبضته من جراب العُشب الفوَّاح، وألقى به فوق الماء وهو يخبرني بأن أنتظر قليلًا قبل الاستحمام به، حتى يذوب.. خرجا، فأغلقتُ بابي.

كيف سأرى ما حولي، وسط هذا الظلام؟ سأطلب من عميرو من قبل أن يخرج، أن يأتيني بقنديل أو فانوس. هو ماهرٌ يمكنه أن يأتي بكل شيء، وعمُّه النبطيُّ يعرف كل شيء. ولكن ما لي هامدةً

هكذا، وغيرَ قادرةٍ على القيام؟ وما لي والظلامُ؟ هو سِتْرٌ للحائرين وراحةٌ، ولن أطمئن لو خلعت ردائي والضوءُ قريب.

قمتُ بعد هنيهةٍ فألقيتُ عني ما ألبسه، فدهمني شعورٌ قديم. أخذتُ من الماء بكفيَّ، بعدما جلستُ على حجر بقربه، ومسحت على كتفيَّ فَسَرَتْ فيهما برودةٌ. في زاوية الحجرة، كنتُ قد رأيت في الصباح كوبًا نحاسيًّا. تحسستُ طريقي حتى التقطته، وعدت إلى جلستي. كلما صببتُ الماء على رأسي، غمرتني البرودةُ المريحة، وامتلأتْ أنحائي بالرائحة الزكية. كأن الاستحمامَ سِحرٌ. سأترك الماء ينساب على أرض الحجرة، حتى تفوح ليلًا بهذا العطر الرطب المريح، فأتنفسه عند عودتي.

وقفتُ في العتمة كسنبلة القمح، ورحتُ أصبُّ عليَّ الماءَ السحريَّ، فيأخذني دوارٌ لذيذ. تمنيتُ لو بقيتُ على هذه الهيئة، دهرًا، لكني سمعتُ صوت زوجي يناديني من وراء الباب للخروج. لو كانت أثوابي البرَّاقةُ هنا، لارتديتُ الآن واحدًا منها.. ضوء القمر يفترشُ أرض الحوش، ونجوم الليل بهيجة التألُّق، ونسماتُ المساء حنونٌ. خرجتُ مكشوفة الوجه، فوجدتهم تحت السقيفة يجلسون حول الطاولة، وعليها بجوار الطعام فانوسٌ يتراقص لهبُه النحيل فرحًا.

جلستُ بجوار عميرو، إلى الخلف من زوجي، وإلى اليمين من الهوديّ. النبطيُّ أمامي. أشعرُ بالجوع ولا أريدُ أن آكل، وأشعر

بفرحةٍ نادرةٍ لأنني بقرب الصبيِّ عميرو. سألته كيف كانت رحلته، فانطلق لسانه كعصافير الصباح: *الرحلةُ مبهرة، فالأرواح كما يقول عَمِّي، تحلِّق عند قمم الجبال. كنا سنأتي بعد يومين، لولا أننا أدركنا سفينة عند الشرم الذي بين الجبال، وكانت الريحُ مواتية..* قاطعه زوجي، ممازحًا:

- أراك قد صرتَ مثل القرود، تحبُّ تسلُّق الجبال.

- يا عمي، لو جئت معنا مرة، فلن تسلو بعدها هذه الرحلة.

- هنيئًا لكما بها.. فأنا لا أَشُدُّ الرحال إلا للتجارات.

- تجارة الرُّوح أربحُ يا عَمَّاه.

- سوف يخرِّب النبطيُّ عقلك يا عميرو. دعني أختبر ما بقي منه: أخبرني، هل يلدُ الثعلبُ أم يبيض؟

- الثعلبُ ماكرٌ قد يفعل أيَّ شيء.

ضحك النبطيُّ حين ضحكوا، وضحكتُ، ولكن الهوديَّ ظل مكلَّلًا بالأسى. سألتُ عميرو همسًا، عن سرِّ حزن أبيه، فقال بصوتٍ مسموع: أبي يستعد لأحزان الغد، فالسبتُ يومُ البكاء عند اليهود.

- تحشَّم يا كلب.

سكت عميرو لما نهره أبوه، لكنْ عيناه كانتا تضحكان. تطوَّع زوجي فشرح لي الأمر: هذه البلدة، أيلة، كانت في القدم مسكنًا

لليهود، ويقولون إن ربَّهم حرَّم عليهم العملَ واصطيادَ السمك يوم السبت، فخالفوا الأمر، فمسخهم قردةً وخنازير. ومن يومها، يتذكر اليهودُ والمتهوِّدون هذا الذنب، فيبكون يوم السبت ولا يعملون فيه، ولا يبيعون الطعام، ولا يتعاركون، ولا يسافرون في طلب المعاش والتجارة. ولذلك فسوف نؤخِّر رحيلنا إلى الأحد، بعد غدٍ.

النبطيُّ لا يتكلم إلا قليلًا، ينظر إلى الذين يتكلَّمون ولا يشاركهم، ما لم يسألوه في أمر. سأله الهوديُّ الحزين، عن أخبار أناسٍ يعيشون بجبال سيناء، فكان يجيب بأقصر لفظ. وسأله زوجي عن الإيل واللات، فلم يُجب عن سؤاله المستهزئ. ووددتُ لو سألته عن النساء هناك، لكنني خجلت.. سوف أسأل عميرو، عنهنَّ، غدًا.

قاموا لنومهم، وأعطاني عميرو الفانوس كيلا أنام، كما قال، في الظلام. الحجرةُ عَطِرةٌ. أغلقتُ ورائي الباب وطرحتُ عني ردائي، ولم أستطع صبرًا حتى الصباح، فأخرجتُ على ضوء الفانوس هدايا النبطي: مرآةً مجلوَّة، زجاجةَ عطرٍ، سِتْرَ رأسٍ حريريًّا أبيض، مشطًا كبيرًا من العاج، بلحًا جافًّا لم أذق مثيلًا له في الطعم والرائحة.

رششتُ ما بقي من الماء العَطِرِ على فرشتي، واستلقيتُ على ظهري، والمرآةُ بيدي.. هذه أنا، المنسية، جميلةٌ إذ تكسو وجهي هذه الحمرةُ الرائقة، وقد صار شعري أنعم ملمسًا. أظنه قد صار أطول. عيناي تنظران إلى عينيَّ، فأرى أُفقًا. وروحي تلامس روحي، فأحسُّ توحُّدي مع السماء.. نحَّيتُ المرآة ونفختُ فتيلة الفانوس،

فأضاء صدري لهيبُ الخفقان. نمتُ نومًا لا يشبه أيَّ نوم، ورأيتُ أحلامًا غير كل الأحلام:

.. رأيتُني شمعةً تتوهَّجُ، كُلُّها

نُورُها فضيٌّ بَرَّاق، فيه زُرقةٌ هادئة..

الضوءُ يَدورُ من حولي، يحملُني إليَّ.

أنا الشَّمْعَةُ، وضَوْؤها الدَّوَارُ

.. ورأيتُني عُصفورًا يطير، ويَرِفُّ

بأجنحةٍ لها لونُ الدنانير

ويحطُّ برفقٍ، فوق عُشِّهِ القَشِّيِّ،

المشوبِ بأطيافِ الفرح.

.. ورأيتُني سحابةً في السماء، تمرُّ

فتحرِّك حولنا الحُبَّ والهَوَاء، تمرُّ

فتسقي المشتاقين وتؤنس الغرباء، تمرُّ

فتُسقط على قلبي الحارِّ، نقطةَ ماء

.. ورأيتُ وجهًا أعرفه، يكلِّمني بلغةٍ لا أعرفها،

ويقول الكثير.

ورأيتُ فراشاتٍ تطير

وعُشبًا أزرق يكسو الرمال،

وبحرًا لا سفينةَ فيه، ولا تَحُوطُه من الجانبين جبال.

ورأيتُ أَسْمَاكًا تُحلِّقُ في خيال،

وطيورًا تعومُ، وملائكةً تعيشُ بين أشجارٍ

تحوطها أزهارُ البُرتقال

تحوطها رقاقُ العصافير، وحماماتٌ تطير

تحوطها أقمار

وبين رفيفِ الألوان، يتموَّجُ ابتداءُ الليل وانتهاءُ النهار

فتسكنُ الملائكةُ تحت الأشجار

وهناك تطوي تحتها أجنحتها،

وتنامُ كالصغار.

سَهْلُ السَّكاكين

بدَّدتْ أحلامي وأيقظتني، جلبةٌ تأتي عاليةً من خلف سور الحوش. خرجتُ من الحجرة، مرتاحةً، فأخبرني الظِّلُّ أنني تأخرتُ اليوم في نومي. طلبتُ من عُميرو ماءً كالذي أتى به بالأمس، فأحضره إلى حجرتي بعد قليل، وقال إنه سينتظرني تحت السقيفة حتى أفرغَ من استحمامي.. كان يضحك.

أنعشني العُشبُ المذاب في الماء، ثانيةً، وأبهجتني صورتي في المرآة. خرجتُ إلى السقيفة، فكان عُميرو يسخِّن هناك خبزًا فوق الكانون. فوق الطاولة طبقٌ فيه جُبنٌ حائلُ البياض، لا رائحة له، قال لي زوجي: إنه من لبن المعز، وهذا الخبزُ من دقيق الحلبة. طعمُ الخبز طيبٌ، لذيذٌ، وقد مسَّتِ النارُ أطرافه.. أخبرني عميرو دون أن أسأله، أن الجلبة الآتية من عند البئر، لتُجَّارٍ يستعدون لركوب السفينة، فسوف تبحر بعد ساعة إلى نواحي الجنوب. أشرت إلى مربط الدواب، واستفهمتُ منه عن اختلاف شكل الزكائب والحمولات، فقال بطريقتة الساخرة: *لقد تبدَّلتْ. نحن نأتي*

بالبضائع من هنا ونرسلها إلى هناك، ومن هناك تأتي غيرها، فنُبادِل غيرَها بغيرها.

ـ ظننتُ أنكم تأخذون تجارتكم إلى سوقٍ ببلدتكم، وتبيعونها هناك.

ـ ليس عندنا سوق ولا بلدة، بيوتُنا الخيامُ ومنقورُ الجبال والتلال.

ـ كيف؟

ـ سوف ترين حين نصل، لم يبق إلا أيامٌ قلائل.

ـ هل بدياركم قطط؟

ـ هه.. لا، عندنا كلاب.

ـ طيب. قُل لي يا عميرو، هل تزوَّج عمك سلامة قبلي؟

ـ نعم، مرتين. الأولى ماتتْ، وطلَّق الثانية.

ـ ما معنى طلَّق؟

ـ طَلَّقَ يعني طَلَّقَ. طلَّقها، يعني أطلقها من عنده إلى أهلها.

لن أسأل عُميرو عن مزيدٍ مما أريدُ الاستخبار عنه، فلا فائدة الآن من معرفة ما كان، ولا شأن لي بما مَرَّ من أمره، أو مضى. هو الآن زوجي، وسوف أُنجب منه أطفالي، وأسافر معه أو أنتظره حتى يعود من أسفاره. إذا أغضبته أو ضايقتُ أهله، سيُطلقني من عنده ويعيدني إلى أهلي، ويأخذ أطفالي مني.

لما رآني صامتةً، قام عميرو وخرج قاصدًا حسبما قال، مجلسَ التجَّار. فظننتُ أنه لم يبق في الحوش، مع الـدواب، غيري. أوصدتُ خلفه البوَّابة، ودخلتُ حجرتي فأفرغتُ هداياي من جرابها، وصفَفْتُها أمامي، فأخذتني الأُمنياتُ إلى بعيد.. بعد ساعة دَقَّ عميرو بوابة الحوش، ونادى عليَّ، ودخل وراءه سقَّاءٌ أشيبُ يجرُّ حمارًا على ظهره قربة ماءٍ كبيرة جدًّا، سقى منها الدواب والإبل. الدوابُ تشربُ كل يوم، مرةً أو مرتين، والإبل تصبرُ على الماء يومين أو ثلاثة.

ـ يا خالة، هل خرج أبي؟

ـ خرج من أين؟..

ـ هو في الحجرة، حبيسُ السبت.

قال عميرو ذلك، وهو يمسح عَرَقه بذيل جلبابه. ثم جلس يستروح من قيظ الظهيرة في ظل السقيفة. بعد حينٍ خرج أبوه صامتًا، فأخذ رغيفًا مما نأكل منه، وقطعة جبن، وعاد إلى الحجرة صامتًا.. جاءت من ناحية البوابة أصواتٌ، ثم دخل النبطيُّ وزوجي ورجلان معهما، فأسرعتُ إلى حجرتي وجلستُ خلف بابها.

راحوا يتحدثون حديث التجار، وانضمَّ إليهم آخرون لم أرهم، فكان صوتهم يعلو حين يتكلمون معًا، ويخفت إذا تكلَّم النبطيُّ أو قرأ الرقاع الملفوفة في جرابه. هي عقودُ التجارات وصكوك الديون.

قاموا من مجلسهم، وسمعتُ زوجي يودِّعهم وهو يقول: *غدًا صباحًا نكتبُ لكم ما اتفقنا عليه، قبل رحيلنا، ويختمه أخواي..*

خرجتُ إلى حيث يجلس عميرو وعمُّه النبطيُّ، تحت السقيفة، ثم لحق بنا زوجي فجلس على مقربة. كان النبطيُّ يقول لابن أخيه:.. *نعم، كان بليغًا في كلامه، والبلاغةُ تأتي مع حسن اختيار الحرف قبل الكلمات، ومع تحسُّس المتكلِّم لما يقول، ومع الإيجاز في اللفظ والرهافة في المعنى.*

ـ *ومَنِ الذي تراه أكثر العرب بلاغةً، يا عَمَّاه؟*

ـ *البلغاءُ كثيرون..*

التفتَ النبطيُّ نحوي وسألني إن كان هذا الكلام يُضجرني، فنفيتُ باسمةً، واستدركتُ فأكدتُ أنني أود سماع المزيد. فأعجبه ذلك مني، وعاد للكلام مع عميرو وأنا أسمع باهتمامٍ، وزوجي غير مكترث. قال: *لكن العبرة ليست بالكلام المنمَّق، وإنما في المعنى المراد إيصاله، ونحن الأنباطَ أولُ مَنْ عرف البلاغة وقال الشعر في العرب، وأولُ من كتب المفردات، قبل عرب الشام والعراق، وأولُ من اتخذ من الجبال بيوتًا. وكنا نصدُّ الروم عن جزيرة العرب، فيرجعون عنها وعن اليمن، ويعيش الناسُ أحرارًا في صحراواتهم. فالصحراء صِنو الحرية، ولا صبر لها على استعباد..*

نادى من خلف البوابة رجلٌ، فنهض إليه زوجي وعاد من هناك

وفي يده سلةٌ كبيرة من الخوص، فيها أشياءُ عجيبة، ودعاني إلى الأكل منها فما استطعت. كأنها صراصير كبار، مسلوقة في ثوم وبصل، قال: إنها تُصاد من البحر، واسمها الجريفيش. أكَّد وهو يأكل منها، أنها مفيدةٌ وطعمها لذيذ، فاعتذرتُ منه بأنني لستُ جوعى، وبقيتُ أستمع لكلام النبطيِّ وصوته الهادئ، الوقور. كان يُفهِّم عميرو الفروق بين المفردات، ومتى يقول هذه الكلمة ومتى يقول تلك. والصبيُّ يسمع باسمًا ويفهم كُلَّ الكلام، وأنا أسمعُ مبتهجةَ الفؤاد.

قطع زوجي كلامه بأن قال لي بصوته الرّخو، إننا سنرحل غدًا في الصباح على أربعة بغال، ومعنا بعض الحمير والحمولات. الهوديُّ وجماعةٌ من أقاربهم، سيخرجون بالقافلة ويمرون من وادي رَمّ. ونسلكُ نحن من وادي عَرَبة ونعبر جبل السكاكين، كي نسبق بأيام.. التفت نحوي، وقال: *أخي سيدعو أهلنا للعُرس، ويأتي بهم. ونعدُّ نحنُ الولائم وننصب لهم الخيام، قبل وصولهم.* سوف *نذبح عشرة خرافٍ وعددًا من الجداء، لأن كثيرًا من الناس سيأتون لحضور العُرس.. أعراسُنا تمتدُّ لثلاث ليالٍ.*

* * *

في الصباح الباكر كانوا يجلسون في الحوش، صاخبين، منهمكين في تدوين الديون وعقود التجارات. جاءني عميرو يدعوني أن أستعدَّ للرحلة، ثم عاد إليهم وبقي جالسًا هناك حتى انتهوا. خرجتُ والستر يحوط رأسي ووجهي، فاعتليتُ البغلة وخرجنا في اتجاه

الشرق، ثم عرجنا شمالًا. في طريق خروجنا من البلدة، رأيتُ عند أطرافها بيوتًا مغمورة في الرمال الناعمة، تطلُّ بأسقفها من تحت التراب، مع أطراف أشجار. ولا أحد يعيش عندها. قال زوجي: إنها كانت بيوت الذين صاروا قديمًا، قردةً وخنازير.. لم يشغلني هذا الكلام، كنتُ أفكر في أشياء أخرى، أشدِّ غموضًا.

هذه البلدة ليست كبيرة، حسبما ظننت حين رأيتها يوم وصولي. في الطريق، قال النبطيُّ: إن عدد سكانها لا يزيد عن ألف، لكنها تستقبل مسافرين كثيرين كل يوم، والأحواشُ فيها أكثر من البيوت الآهلة بالسكان الدائمين.. كلامه واضحٌ، ومفيد.

تركنا البلدة خلفنا، وخرجنا مرةً أخرى إلى الصحراء. في الهواء ترابٌ كثير، وعن اليمين واليسار، تمتد جبالٌ مغبَّشةٌ بالغبار. كنتُ أرفع الستر عن وجهي حينًا، ولا يعترض زوجي، وأسدله حينًا لأتَّقي الغبار.

ما عاد الركوبُ يؤلمني، كثيرًا، مثلما كان. سرنا متقاربين، زوجي أمامي بجوار أخيه، وعميرو يسير بجانبي ولا يكفُّ عن الكلام: *انظري يا خالة، سوف يبتعدُ الجبل الغربيُّ عنا، مع مسيرنا، ويقتربُ الشرقيُّ.. انظري، هذه الوهاد الممتدة شمالًا، اسمها وادي عَرَبَة، والبدو هنا يسمُّونه وادي النار.. انظري، لونُ الجبل راح يميلُ إلى الاحمرار، سترينه عندما يهدأ الغبار، ولذلك نسمِّي هذا المكان وادي الأُحيمِر.. سوف نبيتُ الليلة في هذه الخيام البعيدة، هل ترينها من هنا؟*

مع الغروب، وصلنا عند بدوٍ يخيِّمون في الفراغ.. هم يشبهون الذين مررنا بهم في الصحراء الكبيرة، المسماة سيناء. عندهم أطفالٌ وغنمٌ، وبئر، ولا يحبون الكلام. المحطاتُ واحدة، لكن الطُّرق متعدِّدةٌ مختلفة. نسوة العرب لا يلبسن إلا السواد، وملابس الرجال والصبيان غالبًا بيضاء، والفتيات الصغيرات يلبسن الألوان الفاقعة البراقة.. قال لي النبطيُّ: إن الصغيرات يخرجن إلى النواحي البعيدة، نهارًا، لرعي الغنم. فتسهِّل هذه الألوانُ، العثور عليهن إذا ما ضللن الطريق، واقترب المساء. والنساءُ مستترات ولن يزيد السوادُ من إحساسهنَّ بالحرِّ، ما دمن في الظل. والرجال يمشون تحت الشمس كثيرًا، فيكون الأبيض أنسبَ لهم، لأنهم لا يشعرون معه بسخونة النهار. هكذا قال.

وصلنا إلى الخيام قبل الغروب، بقليل، فأسدلتُ على وجهي الستر ودخلنا عليهم. البدو هنا يعرفون زوجي وأهله، ويشبهونهم. أجلسونا مساءً في خيمةٍ واسعة، وقدَّموا لنا مع الماء، اللحمَ المريع الذي يسمونه القديد. زوجي لا يكلِّم أخاه النبطيَّ إلا قليلًا، لكن النبطيُّ يكلم عميرو كثيرًا، وأنا أسمع.. في الصباح سألته:

- *سمعتُ من عميرو أنك ستكون نبيًّا، فما معنى النبوة؟*

- *لها معانٍ كثيرة، أشهرها الإخبار عن الإله..*

- *وكيف يكون ذلك؟*

ـ نشعر بالكلام في القلب، فينطق به اللسان.

ـ وما الذي تشعر به في قلبك؟

برقَّةٍ وأدب ابتسم النبطيُّ، فأشرقتْ من بين شفتيه شمسٌ. بياضُ أسنانه باهرٌ، وعَذْبٌ تبسُّمه. أوشك أن يفيض في الكلام، لولا أن جاء زوجي يسأله عن دَيْن رجلٍ اسمه سلاَّم بن كعب، فأجابه بكلام يعرفانه وانشغل عني. هم لا يذكرون اسم واحدٍ من العرب، إلا ويذكرون بعده اسم أبيه، وقد يذكرون بعده العائلة والقبيلة.

أوانَ العصرِ، خَفَّ الغبار الهائمُ في الأجواء، فبدا احمرارُ الأرضِ والجبلِ الشرقي، وبدت أشجارٌ متفرقات تورقُ في حِضن الجبل. في وادي الأحيمر هذا، عُشبٌ كثير وأغنامٌ ترعى، وخيامٌ متباعدة عن بعضها. لماذا لا يسكنون معًا؟ سألتُ عميرو فقال: *كيلا يقتتلوا على الكلأ. لم أفهم الكلمة الأخيرة، ولم أسأل. كنتُ مشغولة البال بما قاله لي النبطيُّ في الصباح.. في المساء سألته: إذا شعرتُ بكلام الإله في قلبي، فهل أكون نبيةً؟ قال: كان القدماء يقبلون نبوة النساء.*

* * *

في اليوم الثالث صفا الهواء، واتسع السهل مع تباعُد الجبال عن اليمين مِنَّا، وعن اليسار. مررنا بكثبان رملٍ عالية، متوالية، بينها دروبٌ ناعمة يسمونها مَخَرَّاتِ السيولِ، تتناثر على حوافها أشجارٌ

وحيدات، متباعدات، تتنقَّل بينها عصافيرُ رماديةٌ ضعيفة، وطيورٌ داكنةٌ صغار.

الظهيرةُ قائظة.. نزلنا عن البغال لتستريح، وأرحنا الحمارين بإنزال ما يحملانه. هذه هدايا عُرسي، وأثوابي الفاتنة، وبقاياي. بعد الغداء، جلس زوجي أمامي وحيدًا، ظهره إليَّ ووجهه إلى ناحية الشمال، وغاب الآخرون خلف الخيام.. قد اقترب وصولنا، وعليَّ أن أكلِّم زوجي كثيرًا، ليعتاد الكلام معي.

تزحَّفتُ حتى اقتربت منه، وسألته: لماذا يبدو أخوك النبطي غريبَ الأحوال؟ فقال: *أبي وأمي أفسداه بكثرة العناية والتدليل، منذ مولده، فلما بلغ السعي. صار أبي يعلِّمه من دوننا، ولا يناديه إلا بلقب النبطي وهو بَعْدُ صبيٌّ، ويضربنا إنْ ناديناه بغير ذلك. وكان يعلِّمه ركوب الخيل والرمي والطعن بالرماح، وفنون الكلام المنمَّق. وظل يوصينا به حين حضرته الوفاة، ويقول لنا إنه سيكون ملكًا على الأنباط، ويُعيد مجدهم القديم.. وأُمُّ البنين تقول بل سيكون نبيًّا، ويرفع شأن العرب كلهم، لأنها أيامَ حملت به، كانت ترى اللات كل ليلة في أحلامها. فهو ابنُ الأحلام والأماني. لما اشتدَّ عوده، صار يصحبنا في كل الرحلات، ويرتضي التجارُ بما يكتبه لهم من العقود ويختمها بختمه، لكنَّ الهوديَّ يختمها معه لأنه أكبرنا. أنا أكبر من النبطي بخمسة أعوام، وأصغر من الهودي بخمسة عشر.. ومنذ سنوات، صار النبطيُّ يعرِّج على الجبال الشاهقة التي في تيه*

اليهود بسيناء، ويبيت على أعاليها ليرى الإله عند شروق الشمس، حسبما يظن، ويعود إلينا بكلام غريب.. ها هو قادمٌ نحونا، فاسأليه عن مُعتقده، وسيُخبركِ.

كان آتيًا من ناحية اليمين، ووراءه عميرو. كاد يجلس على مبعدةٍ منا، لولا أن زوجي ناداه فاقترب وحطَّ على البساط بقُربنا، كأنه غمامةٌ هبطت على الأرض من أعالي السماء. سأله زوجي أن يشرح لي ما يعتقده، فتردَّد حينًا. ألحَّ عليه عميرو، وألحتْ نظراتي المتوسِّلة، فقال هذا الكلام العجيب: معلومٌ للجميع أن الأجسادَ فانيةٌ، وأنَّ كُلَّ حيٍّ ميتٌ لا محالة بعد حين. لكن النَّفْس تبقى، والروح لا تموت. فالأرواح تعود بعد الوفاة، لتكون نفوسًا لأشخاصٍ آخرين. فتعيش الروح مرةً حياةَ رجلٍ، وتكون في المرة التالية امرأةً. فيكتملُ بدورانها الدائم معنى الإنسان، ويتحقَّق سرُّ الوجود. وقد ابتدأ الوجودُ من اللات، الرَّبَّةِ الأولى، فبقيتْ دهرًا ولا شيء معها. ثم جاء منها، من غير زوج، إيل. الإله الأول العالي، المسمى في بعض المواضع ذو الشرى، وله أسماءٌ أخرى في مواضع أخرى... يُقال إن ابتداءَ حملها به، كان في وادي فاران. وسعتْ وهي حُبلى به بين جبال ساعير، وولدته عند قمم جبال سيناء. ومن هنا قيل إن الإله ظهر بفاران، ومَرَّ بساعير، واستعلن بسيناء.

كان النبطيُّ يتكلم من غير أن ينظر نحوي، وكان عميرو ينظر نحوه وعلى وجهه فرحةٌ، وزوجي ينظر نحو الجبال البعيدة فلا أرى

وجهه. أنظرُ نحو النبطي، فلا أرى بداخلي غير اضطرابي من كلامه الغريب.. جاءنا صبيانُ البدو بطعام عجيب، في طبق فخاري كبير يسمونه القصعة. أقبل زوجي على الطعام، نهمًا، وبقينا نسمع النبطيَّ وهو يُكمل كلامه، فيقول نقلًا عما حكاه الأوائل من الناس:

كانت الرَّبَّةُ تحمل رضيعها إلى بعض المواضع، وتُرضعه هناك، فتسقط من صدرها أحيانًا، حباتُ حليب. هي التي صارتِ الأنهار، التي صارت منها الأرض الخضراء. وكان الإله الوليد يصرخ في مواضع أخرى، فيصيِّرها صحراءَ مجدبةً. ولما أتمَّتِ اللاتُ الرضاع، سعى إيل بعيدًا عن جبل الرَّبَّة، وسلك في شقٍّ هائلٍ بين شواهق الجبال، حتى وصل إلى البلدة التي كنا فيها. ولذلك، سُميت في الزمن الأول باسمه: أَيلة.

واشتاق إيلُ إلى اللات، لكن الجبال التي هناك عاقته عن الرجوع، فسُمِّيت العقبة. وقد أحسَّتِ اللاتُ باشتياق ابنها إليها، وأرادت احتضانه، فسالت دموعها وصارت بحرًا، وصلت مياهُهُ إلى أقدام ابنها في المكان المسمى أيلة. ونامت هي على جبل الربة، وغابت فيه. وصار إيل من بعد ذلك، يطل على أمه كلَّ يوم، لحظةَ الشروقِ، من الجبل المعروف باسمه في قلب سيناء، ثم يمضي في أنحاء الأرض وحيدًا، كالشمس.. ولما طالت وحدته، صنع الإنسان على مثال الأم والابن، وصيَّره امرأةً ورجلًا. فكلُّ امرأةٍ أُمٌّ، وكل رجلٍ ابنٌ.. ومن أنفاسه وأنفاس أمه، جعل روح الإنسان جامعةً بين أنوثة

الأم، وذكورة الابن. ومن يومها، راحتِ الروح تتعاقب في حيوات متتالية، فتصير نفوسًا للأحياء إلى حين، وتنتقل ما بين أنثى وذكر. فتولد مع الجسد وتموت بموته، ثم تحيا في جسدٍ جديد، لأنها خالدةٌ والجسدُ فانٍ.. ومن هنا، يكون في كل ذكرٍ أنثى، وفي كل أُنثى ذكر. إجلاءً لأمرٍ كان قد قُدر، وإفشاءً لسرٍّ طالما استتر، وإبهارًا لعين الذي فَهِمَ حين نظر.

لم أفهم الجزء الأخير من هذه الحكاية اللطيفة، وفهمتُ الجزء الأول منها بصعوبة، وبغير تصديق.

* * *

في صباح اليوم التالي، بدتِ الأجواءُ شتويةً. الهواءُ رطبٌ، وفي السماء سحابٌ كثيرٌ، يريدُ المطرُ أن ينهمر منه، لكنه ما انهمر، ثم ما لبث الصيفُ أن عاد عند الضحى. مررنا بأرضٍ غريبة، عند الظهيرة يسمونها نَقَبَ النملة. وفي المساء نزلنا بأرضٍ اسمها قاع النملة، أمامها تلةٌ هائلة سوداءُ، مليئةٌ بالخروم، يعيش فيها نملٌ لا يُحصى عددًا. وإلى الخلف منها جبلٌ، لا يحدُّ النظر ارتفاعه.

ليس في هذه الأنحاء شجرٌ ولا خيامٌ، ولا آثار ماء. سألت عميرو: ماذا يأكل هذا النمل الكثير؟ فقال بمكر الصبية: *يأكل العابرون*.. وراح يضحك، وهو يؤرجح ساقيه فوق ظهر بغلته، مثلما يفعل الصغار. لم أتبين في الليل، أنحاء الموضع الذي وصلنا إليه، شغلني عنه ارتفاعُ الجبلِ القريب وقد زاده ظلامُ الليل مهابةً،

وثقلًا على القلب. أراد زوجي أن يُبهجني، فقبض باطني بقوله: *اقتربنا، غدًا سنعبر شرقًا من فوق هذا الجبل، ونصل ديارنا بعد غدٍ.*

انتبهتُ في الصباح الباكر على دقَّاتٍ عالية، وحركاتٍ كثيرة من حولي. كان زوجي يغيِّر الحدوة التي في حافر البغلة. فعل ذلك في حوافر الدواب كلها، استعدادًا لارتقاء الجبل. هكذا قال. وكان عميرو يعيد توزيع الحمولات على ظهرها، كي تتمكن من الصعود. ولسوف يُعيد توزيعها بأعالي الجبال، استعدادًا للهبوط. لأن الصعودَ أسهلُ عليها من الهبوط.. هكذا قال.

وكان النبطيُّ يقدح حجريْ صوَّان فوق عشبٍ جافٍّ، ليسخن شيئًا نأكله. سألتُ زوجي كيف أعاونهم؟ فقال: ساعدي عميرو.. لكن عميرو أسرعُ تحركًا، من أن يلحقه أو يساعده أيُّ أحدٍ. فهو يفكُّ هنا ويربط هناك، كأن شيئًا يطارده ويدعوه للإسراع. ظللتُ أتبعه وظلَّ يبتسم كلما اقتربت منه، حتى جلستُ على الأرض في آخر الأمر، ورحت أمضغ على مهلٍ، الخبزَ الدافئ والبلحَ الطريَّ اللذيذ.

ركبنا استعدادًا للرحيل، وسرنا ساعةً في اتجاه الشمال، ثم عرَّجنا شرقًا إلى بطن الجبل المسمى جبل السكاكين.. حين اقتربنا عرفتُ سِرَّ التسمية، فقد رأيتُ أمام الجبل أرضًا واسعةً تُخيف العابرين، فيها قطعُ حجارةٍ سوداء، لها حوافٌّ حادةٌ كأطراف السكاكين: *كأن هذا الجبل، يفرش أمامه عشبًا صخريًا يصدُّ القادمين..* هكذا قال

النبطيُّ، ثم نصحني بالثبات فوق ظهر بغلتي اتقاءً للوقوع، فجروحُ هذه الأحجار السوداء لا تبرأ. زاد خوفي بعد كلامه، وجمدتُ فوق البغلة وقد اشتدَّ بصدري الوجيبُ.

سرنا في طابور طويل، صامتين، حتى وصلنا إلى سفح الجبل ومرتقاه الأول. التربة هناك أقلُّ وعورةً مما فات، ومما سيأتي. ساعة جلسنا للغداء، أشار النبطيُّ إلى السهل الممتد أمامنا بقطع الأحجار، السكاكين، وقال لعميرو: *قبل سنين، عبرتُ مع أبيك هذا الجبل للمرة الأولى، ولما وصلنا هنا قال لي، إن موسى النبيَّ كان يعبر وادي عَرَبة، مسافرًا من مَدْيَن إلى مصر. فلمح على رأس الجبل نور الإله، وكان رأسُ الجبل أعلى مما هو عليه الآن. فطلب موسى أن يرى الله عيانًا، وألَحَّ في الطلب، فلما بدأ تجلِّي الإله اندكَّ الجبلُ، وتناثرت منه هذه الأحجار المفروشة هنا، وبقيتْ من يومها مثل السكاكين، كي تذكِّر الناس بما جرى..* قاطعه زوجي:

- *ما دمت تصدِّق بموسى النبيّ، فلماذا لا تصير هوديًا مثل أخيك، أو مسيحيًا مثلي؟*

- *على رِسْلك يا سلومة، هذا كلامُ الهوديّ. والذي أظنُّه أن هذه الأحجار تفصَّدت من الجبل في الزمن القديم، مع رَجْفةٍ شديدة، فافترشتِ السهل عندما نزل السيل. وهذا ما تفعله الزلازلُ والسيول.*

_ طيب، أنت حُرٌّ فيما تعتقده.. قوموا لنبدأ الصعود.

وهما يتحدَّثان، كان عميرو يحملق فيهما ويضحك بعينيه، ولا يعلِّق بشيءٍ منطوق. وكنتُ حائرةً فيما يقولان، وحائرةً من قيام الجبل فوق رءوسنا، وحائرةً لقرب الوصول.. أيُّ شيء ينتظرني خلف الجبل، وأيُّ حياةٍ ستكون لي بأرضٍ لا زرع فيها ولا شجر، ولا دواجن أو طيور؟

الدوابُّ يرهقها الصعودُ والراكبون. كنا أحيانًا نَنـزل عن ظهرها، ونُنـزل بعضَ ما تحمله، وندفعها من خلفها لارتقاء الوعر من المواضع، ونساعدها لاعتلاء الصخور.. كدنا مع الظهيرة، بعد جهدٍ، نصل إلى الثُّلث الأول من جبل السكاكين. هو ليس جبلًا واحدًا، وإنما جبالٌ متصلة تمتد من الشمال إلى الجنوب. ربما كانت يومًا، جبلًا واحدًا، لكنه اندكَّ واستطال، لأمرٍ جرى من ألوف السنين.

لم يمتد بنا وقتُ الغداء كالمعتاد، فالمكان لا يشجع على البقاء. بالكاد استراحتِ الدوابُّ، ثم قمنا على عجلٍ وتابعنا الصعود، كي نصل قبل الغروب لموضعٍ يعرفونه.. رأيتُ في ثنايا الجبل أشجارًا نحيلة، وأعشابًا متوارية بين شقوق الصخور. وعند الغروب نزلنا في بقعة مستوية، فيها نباتٌ كثير وشجر. كان زوجي مهمومًا فسألته عمَّا به، فقال لا شيء. وكان عميرو مشغولًا بفكِّ الحمولات عن ظهر الدواب، فسألته إن كان يريد معونتي، فقال إنه معتادٌ على

ذلك. وكان النبطي يتنقَّل بين أجمة العشب، ويقطع من بعضها ويدسُّ في مخلاةٍ عجيبة، طويلةٍ، مقسمةٍ إلى جيوب. اقتربت منه، فقال وهو يبتسم: انتبهي، فقد تختبئ هنا الحيَّات.. خفتُ، فبقيتُ ساريةً خلفه على ضوء القمر، من غير أن أقعد مثله قُرب الأعشاب. بعد حينٍ تجرأتُ فتقدَّمت، فكان يعرِّفني بما أراه: *هذا شجر بلوط، قديم. وتلك الشجرة اسمها الغضا، الناسُ يوقدون النار بخشبها وأغصانها. وهذا الذي يشبه البلوط، هو شجرُ الخروب. وسوف نرى في الصباح شجرًا آخر، اسمه البطم.*

تجرأتُ أكثر فاقتربتُ من آجام العشب، فوجدت منها عشبًا قويَّ الرائحة، أعرفه من قبلُ ولكني لا أذكر الآن اسمه. أخبرني النبطيُّ بأنه الشيح، وبأن هذا العشب الآخر، القريب، أكثر منه عطريةً. قطع لي منه وقال شُمِّيه، فوجدته أزكى رائحةً وأبهجَ للقلب. سألت عن اسمه، فقال القيصوم.

في ثنايا الصخور نباتٌ له زهرٌ أحمر، رُمَّانيٌّ، قويُّ اللون. أعجبني منظره، فسألت عميرو عن اسمه، فقال: *الدِّفْلَى، هي تملأ هنا الأنحاء، وحول مضاربنا الكثير منها، سترينها مساء غدٍ.*

* * *

استكملنا الصعود فجرًا، وعند الضحى رأيت قمم الجبال فوقي، ومن تحتي تمتد السهول. النظر إلى أسفل يشعرني بالدوار. والنظر إلى الأفق، يشعرني بالاقتراب من السماء. السحابُ الخفيفُ الذي يسمُّونه

الرَّبابَ، يمر من فوقنا فأجده قريبًا مني وأكاد ألمسه بناظريَّ. عميرو يقول إن في جبال الشمال، البعيدة، قممًا يصل بها العلوُّ إلى ما فوق السحاب. حتى إن السحاباتِ تمرُّ، من تحت أقدام الواقف بالأعالي. هو قال ذلك، وعمَّاه لم يكذِّباه.

خفقانُ قلبي ازداد حين ارتقينا الأعالي، وتزايد خوفي، وخامر عقلي الدَّوَارُ. المشهدُ من فوق الجبال، مخيفٌ، والوادي يبدو بعيدًا. لكنِ الهواءُ هنا ألطفُ وأزكى رائحةً. بأعالي الجبل منحدرات وقمم، ومن بين الأحجار ينبتُ زهرٌ مختلفُ الألوان، وتقوم أشجارٌ عجيبة الشكل، يلتفُّ ساقُها كضفائر فضيةٍ كبار. بجانب صخرةٍ كبيرةٍ، ليس فوقها إلا السماء، رأيتُ شيئًا عجيبًا: النَّسْر.

انتبهتُ إليه، حين أشار عميرو إلى صخرة كبيرة تبعد عنا بقدر قيراطين، وهو يصيح: يا عمي سلومة، نسر! هو طائرٌ كبير جدًا، جسمه في حجم طفلٍ، وجناحاه حين مدَّهما استطالا كسعفتي نخلٍ. أخرج زوجي حَرْبَةً من تحت حمولة حمار، ونزلنا عن البغال وبقينا لحظات نتطلع إليه. كان يمدُّ جناحيه كالمحذِّر ويضمُّهما إليه ثانيةً، لكنه لا يطير ولا يتحرَّك من مكانه، إلا خطوة أو خطوتين، وهو يدير رأسه يَمنة ويَسرة فينظر إلينا بجانب رأسه. عيناه قويتان، فيهما غضبٌ وحِدَّةٌ وتحدٍّ. قال النبطيُّ إن هذا النسر غير قادر على الطيران، لأن جناحيه مهيضان لا يحملانه، لكنه كاسرٌ ولا يجب الاقتراب منه، حتى وإن كان على هذا الحال. فاتركوه ينتظر هادئًا،

موتَه، أو تأتي الوحوشُ وكواسرُ الطير لتأكله.. أراد عميرو أن يصطاده، لا أدري لماذا، فرفض عمَّاه. مضينا بعيدًا عنه، ثم عاودنا الركوب. سألت عُميرو عندما اقترب، عن سرِّ رغبته في اصطياد النسر، فقال ضاحكًا ما لم أفهمه: *نطبخه لعمِّي سلومة، فلحمُ النسر يُعين على الجماع.*

أمضينا الليل في كهفٍ بين الصخور، يعرفونه، وأدخلنا إليه الدواب. قضوا الليلة يتناوبون الحراسة عند المدخل، ولم يفصحوا لي عن السبب. في الصباح أخبرني عميرو بأمرٍ غريب. قال: *حيثما وجدتِ عُشبًا وزرعًا كهذا الذي هنا، فاعلمي أن هناك أرانب وغزلان، ومن ثَمَّ فهناك ثعالب وذئاب وسباع، ومن ثم تجبُ الحراسةُ.*

الهبوط من الجبل أصعب على الدوابِّ، وعلى الناس، لأن الأحجار الصغار المترامية فوق الرمال، قد تُزلق الأقدام. ساعة العصر، بدا لنا السهل الممتد شرقًا من خلف الجبل. وبدت لنا أشجارٌ كثيرة، وطيورٌ ذات ألوان، ومنحدراتٌ لا آخر لها. سألتُ زوجي: *أليستِ الصحراء أكبر من سيناء، فقال: وهل رأيتِ صحراء سيناء كلها، لقد مررنا من نصفها في دروبٍ، ولم نَر الجبالَ التي تحجب الجبال، والبوادي الشاسعات المهلكات. وهذه الصحراءُ التي أمامنا منبسطةٌ، ولا جبال فيها. لكنها بالفعل أكبر من سيناء، لأنها تتصل ببادية الشام وقلب الجزيرة وجنوب العراق.*

قبل مفارقة الجبل، وبعدما بلغ بي الإرهاقُ مداه، والخوفُ،

رأيتُ بالسفح خيامًا بعيدة، وأغنامًا تثير بخطوها الغبار.. ومع انحدار الشمس خلف الجبال، إيذانًا بالمغيب، امتدت أمامي السهولُ الشرقية والتلال، ولمسنا الأرضَ المستوية.

سمعتُ نُباحَ كلابٍ تأتي من بعيد، ورأيتُ عميرو ينـزل بهمةٍ عن بغلته، ويجرى فَرِحًا أمامنا على السفح الرمليِّ. اقترب النباحُ، فثار خوفي واضطرابي. سرنا على أرضٍ ناعمة الرمل، والجبلُ عن اليمين منا.

ـ *هل وصلنا؟*

سألتُ زوجي، فهزَّ رأسه بالإيجاب وهو يبتسمُ. جاءت إلينا كلابٌ قويةٌ، تجرى بمرحٍ، فجرى إليها عميرو وارتمى عليها. راح يلاعبها ويتقافز معها، فيثير أمامنا الغبار. هو محبوبٌ حتى من كلابهم. من بينها كلبان كبيران، لم يتهارشا مع الباقين، جاءا إلى النبطيِّ يُهزَّان ذيليهما، ومشيا على جانبيْ بغلته.. رأيتُ عن يميني ساحةً واسعةً تحوطها تلال بيضاء، فيها خيامٌ خاوية. سألتُ زوجي عنها، فلم يسمعني مع صخب الكلاب المبتهجة. رَدَّ النبطي: *هذه استراحةٌ للقوافل والزوَّار، وبيوتنا أمامنا ناحية اليسار، سترينها الآن.*

مررنا في دربٍ واسعٍ بين التلال، رأيتُ بآخره أطفالًا ونساءً قد اصطفُّوا ينظرون. من أمامنا وعن اليمين منا، جبالٌ عالية وصخور، وعن اليمين ساحةٌ أخرى واسعة، أمامها أرضٌ فسيحة فيها خيامٌ

متقاربة. عن يسارنا، تلةٌ حجريةٌ بيضاء، مقببةٌ وناعمة. كأن صخورها قطعٌ ضخامٌ من العجين، تكوَّمت فوق بعضها ولحقها الجفاف، فيبستْ. سوف أسكن أيامًا، بحجرةٍ منقورةٍ في هذه الصخور العجيبة.

أحاطت بنا النسوةُ والأطفال، والفرحةُ تحيط بالجميع. أخذني زوجي خلفه إلى الخيمة الكبيرة، وسار خلفنا نساءٌ ينظرن نحوي بعيون الغربان. عند الخيمة تجمَّعوا حولنا، صاخبين، يضحكون.. الوجوه كثيرة.. وظلال المساء امتدت.. والدوار يُميل رأسي، فأُوشك أن أنهار بينهم، أو أهبط فأقعد على الأرض.. لوهلةٍ، جرفني إلى داخلي حِسٌّ غامضٌ غريبٌ، يفجؤني بأني قد عشتُ هنا من قبل، وسكنتُ هذا المكان.

الحيوةُ الثالثة

أُمُّ البنين

تعالى لتحية أُمِّ البنين. قال زوجي ذلك، وهو يقبض على كفِّي ليقودني من قلب الجمع المصطخب حولنا، إلى داخل الخيمة الكبيرة المستطيلة. أمام القنديل الموقد في منتصفها، كانت أمُّه تجلس على فُـرُشٍ من صوف ملوَّن، وحولها وسائدُ مختلفة الأحجام. بلا إحجام، جثا أمامها على ركبتيه وقَبَّل يدها اليمنى، فضمَّت باليسرى رأسه ولمستْ بها كتفه. اعتدل في جلسته، وشدَّني من أصابعي لأجلس أمامها، فجلستُ. قال لأمه وهو يضحك متباهيًا: جئتكِ بالعروس المصرية، أليستْ جميلة؟..لم تردّ عليه، ولم أتبيَّن ملامحها لاحتجاب الضوء عن وجهها، خلف ظلال الواقفين من خلفي.

أخذتني بيدين قويتين، من منبت ذراعي وضمَّتني إلى صدرها، وأخذتْ تربتُ على ظهري بتحنانٍ أمومي. لثوبها وستر رأسها، الأسودين، عطرٌ قوي. أقعدتني أمامها كأنني أجلسُ في حِجرها،

ونظرتْ فيَّ مليًا فغضضتُ طَرْفي. هي امرأةٌ بدينة، قويةُ البنيان، في حدود الستين من عُمرها. سكتوا كلهم لحظة أمالتني نحوها ومَسَحتْ على رأسي بيُمناها، وهي تتلو كلامًا غير مسموع. بعد حينٍ تفرَّقوا من حولي وجلس بعضهم، فوقع الضوء على ملامحها القوية، المكسوَّة بلون النحاس القديم. أطرقتُ بناظريَّ، حتى انتهت من صلاتها المهموسة، وقالت:

- *مرحبًا يا بُنية. كيف كانت رحلتك؟*

- *مرحبًا بكِ يا عمَّتي. رحلتي كانت طويلة.*

- *أنتِ تعرفين كلامنا.. خير، خير.*

خرق صوتُ زوجي أذني اليمنى، وصدم أنفي برائحة فمه، حين تكلَّم من قريبٍ ليخبر أمه بأن أهل نواحينا، يعرفون كلام العرب. فهم يسكنون بالقرب من الصحراء، وأمام بيوتهم سوقٌ للأنباط. هكذا قال. بقيتْ أمُّه ممسكةً كفَّيَّ بكفيها، وبعدما أطالت النظر إليَّ، سألتني وهي تبتسم:

- *ما اسمك يا بُنَيَّتي؟*

- *مارية يا عمَّتي.*

- *مارية، مارية. ما بالُ أهل مصر، يسمون كل بناتهم مارية.. اسمعي يا ابنتي واسمعوا أنتم، هذه الفتاةُ طيبةٌ جميلةٌ، وهي تستحق اسمًا عربيًا.*

صخبوا من حولي بكلامٍ متداخل: نسمِّيها المصرية.. القبطية.. البضَّة البيضاء.. سلمي يا سلومة.. سلاَّمة.. خَوْلة.. ربابة.. ميّ الخجول.. عُنيزة. بعد هنيهةٍ من هَرَجهم نهرتهم أُمُّ البنين، فأنهوا اصطخابهم من فورهم وسكتوا مترقِّبين. نظرتْ نحوي برضا وتحنان، وببطء الواثقين قالت: سوف نسمِّيكِ من اليوم، ماوية.

ما عاد أحدٌ يناديني من بعدها، باسمي القديم، وما عدتُ من يومها مثلما كنتُ قبلًا.. نمت ليلتي على الأرض، قُرب أُمِّ البنين، وكنتُ أتقلَّق كثيرًا في نومي، حتى أطلَّ أولُ ضوءٍ للفجر. اعتدلتُ من استلقائي، وقعدتُ أرقبُ النائمين من حولي. آخرُ الليل ساكنٌ هادئ، وباردٌ هواؤه. هذه خيمةٌ للنساء والأطفال، لا بُدَّ أن الرجال ينامون بموضعٍ قريب.

كدتُ أنهضُ، فانتبهتِ الكلابُ المحيطة بالخيمة وزمجرتْ، فنمتُ كما كنتُ. قامتِ امرأةٌ منهم، وقذفتِ الكلاب بحجرٍ، فسكتتْ. كيف سأتحرك من موضعي، مع ترقُّب هذه الكلاب؟

قاموا من نومهم تباعًا، مع أول شعاع للشمس. في طرف الخيمة كوانين انقدحتْ تحتها نارٌ، وفاحتْ بعد حينٍ رائحةُ طعامٍ وخبزٍ لسعتِ النارُ حوافَّه. إفطارهم في أيام الأعراس والمعازي، البلحُ والجبنُ وأرزٌ مطبوخٌ في لبن، عليه ملحٌ خفيف. في المعتاد من أيامهم، يفطرون بالخبز والزيت والسعتر المطيَّب بالسمسم والسُّمَّاق الأحمر البرَّاق. أكلت معهم، واستطبتُ طعامهم، ورأيت

على يسار الداخل إلى المرْبع، تقع تلك الصخور التي تشبه قطع العجين الجاف. هي تلةٌ حجرية، كالبيضة المدفونة في الرمال، ارتفاعها بقدر قامتين أو ثلاث، منقورٌ في قلبها حجرةٌ واحدة، مناسبة الاتساع للسُّكنى، يعلو إليها دَرَجٌ منحوتٌ في مبتدأ التلة، يرتفع سبع درجات حتى يصل إلى مدخل الحجرة التي بلا باب. سألتُ أمَّ البنين في أول صباح، إن كان يمكنني السكنى بهذه الغرفة، لأنني لا أرتاح مع النوم في الخيام؟ فوافقت، وقالت لهم أن يجعلوا للغرفة بابًا، وينقلوا إليها أغراضي وهداياي، وفَرْشًا وزيرَ ماء. نصحتني بأن أنام هناك ليلًا، وأقضي النهار بجانبها في الخيمة، لأن ضيوف العرس سيكثرون الأيام القادمة، ويملأون المكان. وافقتُ من فوري. هي لا تتكلَّم كثيرًا، وليست سمراء حسبما ظننتها بالأمس، لكنَّ حُمرةَ الصحراء تعلو وجهها، فكأنه مسبوكٌ من نُحاس. هي إلى البدانة أقرب، لكنها ليست سمينة. عيناها مكحَّلتان، وشعرها مصبوغ بالحنَّاء، وملابسها نظيفةٌ معطَّرةٌ.

لزوجي أخواتٌ ثلاثة، وستةُ أخوةٍ. ولأن أمه أنجبتْ من الذكور سبعة، صاروا ينادونها أمَّ البنين. هم لا يعدُّون البنات، ولا يعتدون بهنَّ عند العَدِّ. أو لعلهم يتحرَّجون. أختُ زوجي الأقرب سنًا إليَّ، اسمها ليلى، في حدود الخامسة والعشرين من عمرها، ولا زوج لها. الأختُ الأكبر منها، أكبر منها بعشرة أعوام، اسمها صَفَا وينادونها مُداعبين: المتلفِّتة، لانشغالها طيلة الوقت بأطفالها. لها

من البنات والبنين ثمانية، أصغرهم بنتٌ في الرابعة من عمرها. زوجها كان ابن عمها، لكنه كان يكبرها بعشرين سنة، وقد هلك قبل إنجابها ابنتَها الصغيرة بعامٍ ونصف العام، وظلت البذرة كامنةً فيها. هكذا قالوا. الذي يموت عندهم لا يقولون عنه إنه ذهب عند ربنا، أو استراح، وإنما يقولون هَلَكَ.. ولأم البنين ابنةٌ كبرى، تعيش مع زوجها وأطفالها في ناحيةٍ بعيدةٍ عن هنا، اسمها العراق.

إخوةُ زوجي أصغرهم النبطي، وأكبرهم الهوديُّ. وللهوديِّ زوجتان، الأولى أمُّ عميرو وأربعةٍ من إخوته، نبطيةٌ مثلُهم، والأخرى يهوديةٌ تزوَّجها قبل أعوام آملًا أن يُنجب منها ذريةً يهودًا، ثم ظهر له أنها عاقر، فلم يُطلِّقها. الأخُ الأصغر منه يعيش في ناحيةٍ قريبة، تبعد مسيرةَ يومين إلى جهة الجنوب، اسمها وادي رَمّ. عنده هناك حسبما قالوا، زرع. ولهم أخوةٌ آخرون، ثلاثة، يعيشون ببلاد الشمال التي يسمونها هنا الشام، يحتاج الوصول إلى هناك سفرًا طويلًا.. سيأتون جميعًا إلى هنا بعد يومين، لحضور العُرس.. عُرسي.

* * *

احتميتُ بأمِّ البنين، في الأيام الخمسة التي سبقت ليلة العرس، بينما الجميعُ من حولنا مشغولون بنصب خيام الضيوف بالساحة المقابلة، وإعداد الولائم. توافد قبل العُرس أناسٌ كثيرون، كانوا يأتون لتحية أمِّ البنين فيجلسون بالخيمة حينًا، ثم يقومون إلى خيام الضيوف. بعضهم كنتُ أستر وجهي أمامهم، لأنهم غرباء، والبعض

الآخر أقاربُ أبقى أمامهم مكشوفةَ الوجه. أُمُّ البنين كانت تخبرني بما عليَّ أن أفعل، في كل مرة، وكانت تكلِّمني دومًا بأناةٍ ومودة.

في أيامي الثلاثة الأُوَل، لم أفعل شيئًا ذا بال، سوي أنني أطعمتُ الكلاب كي تعتاد عليّ. أمُّ البنين نصحتني بذلك. في اليوم الأول، خِفتُ كثيرًا وزمجرتِ الكلاب حين اقتربتُ منها، وفي اليوم الثاني خِفتُ قليلًا وتقبَّلتِ الكلابُ مني الطعام، وفي اليوم الثالث تبدَّد خوفي وابتهجتِ الكلابُ من حولي، وهَزَّت ذيولها لما اقترْبتُ فأقبلَتْ. بعضها أكل من يدي وأنا أضحكُ، والأطفال الذين من حولي يضحكون.. كان الكلبان الرابضان دومًا عند المجلس، ينظران من بعيد، ولا يأتيان للأكل مع الكلاب. سألتُ عميرو عنهما، فقال إنهما كلبا عمِّه النبطي، وهما في واقع الحال ذئبان. نظرتُ إليه بعينٍ غير مصدِّقة، فقال مالم أصدِّقه أو أكذِّبه: أحيانًا تخرج كلبةٌ في أوان الطلب، فيلقاها ذئب غير جائع، فيتزاوجا وتلد منه هذه الكلاب، ولهذا فهي قوية ولا تخشى الذئاب.

مع مغيب شمس اليوم الثالث، اجتمعتِ النسوةُ حولي في خيمة أمِّ البنين، ورُحنَ يُغنِّين كلماتٍ مُبهمة. غناؤهن مثل العويل. التفَّ حولنا أطفالٌ كثيرون من أبناء ضيوف العُرْس، ومن الساكنين بالخيام المسماة التحتانية. وجوه الأطفال تشتبه عليَّ لكثرتها، خاصةً في المساء، لكنني مع الأيام صرتُ أميِّز بينهم بيُسرٍ، لاعتيادي عليهم. بينهم طفلٌ عرفته من اليوم الأول، وأحببتُ مداعبته لأنه لطيف. هو

ابن صفا، المتلفِّتة، ذو الأعوام الخمسة والعيون الواسعة والخدَّين الجميلين، يمرُّ أمامي نهارًا فيقف قبالتي ويرمقني بدهشة من بعيد، فإن انتبهت إليه مشى عني مثل الإوزة، وإن تبعته يجري. اسمه غريبٌ، جندل، وهم ينادونه تدليلًا: فَرْخ الجن. سألتُ النسوة في المساء عن الجن، فأخبرنني بحكاياتٍ مخيفةٍ أبعدتْ عن عيني النوم ليلًا.

ليلى، أختُ زوجي، نادتني من وراء باب الحجرة الحجرية، صباحَ اليوم الرابع، ودعتني إلى التجوال معها في المرْبع، كيلا أَمَلَّ الجلوس في الخيمة. استأذنتْ أمَّها، وطافتْ بي بعد الفطور أطراف المكان، ومَرَّت من عند حوافِّ الساحة المقابلة التي يخيِّم فيها الرجال، النائمون في هذا الوقت المبكر، وحول خيامهم الإبلُ والدوابُّ وبعضُ الكلاب.

عند طرف الساحة، ينعطف الجبلُ فيحتضن المربع. عند الانعطافةِ حجرةٌ بديعة الشكل، منقورةٌ في الجبل، أمامها مصطبة عريضة يُرتقى إليها بدرج له سبع درجات. حول بابها زخارفُ تُشبه النقوشَ التي في البرابي، وفوقه نحتٌ في الصخور على هيئة مثلَّث عريض القاعدة، بأعلاه مثلَّثٌ أصغر عريض القاعدة أيضًا. وبين المثلثين دوائر ثلاثة، كأنها حِليات للباب. سألتُ ليلى، فقالت: هذه الحجرة اسمها المجلس، أخي النبطي يعيش فيها.

نظرنا نحو الخيام التحتانية، من خلف الصخور التي فيها

حجرتي. ثم عُدنا من هناك ودُرنا حول خيمة أمِّ البنين، ومررنا بالحجر المكعَّب الموضوع خلفها تحت السقيفة. صنم اللات. الخيمةُ تقف على جذوع أشجار، أخشابها صُلبة، ترتفع بَقدْر قامةِ رجلٍ ونصف قامة.

الخيمة الكبيرة التي بوسط المربع لها ثلاثةُ أقسامٍ، ومسقوفةٌ كلها بقماش قويٍّ. الثلث الأول الذي يُواجه المدخل ويقابل القادمين، مكشوف الجوانب، يسمونه المربوعة لأنهم يستقبلون فيه الضيوف.. الثلث الثاني تحـوط جوانبه بإحكـام، القطع المنسوجة من وبر الإبل القوي. هو مكان النوم، وله مدخلٌ كملتقى الستائر، يغلق بأشرطةٍ وحبال تُربط في الليل من داخله.. الثلث الأخير يسمونه المطبخ، لأنهم يخبزون فيه على صفيحٍ مقبَّب، وفيه يطبخون طعامهم على كوانين كبيرة مستطيلة. ويغلقون مدخله بالأشرطة والحبال، من خارجه، فيمنع دخول الكلاب والماشية.

خلفَ الخيمة سقيفةُ الحجر المكعَّب، اللات، وبعدها خيمةٌ لها قسمان، هي مسكن الهوديِّ وأولاده وزوجتيه.. مشيتُ مع ليلى حتى آخر الأرض المستوية، فأشرفنا على وهادٍ مليئة بالصخور والتلال، فيها من الناحية اليمنى أرضٌ منخفضة، يسمونها الخور، لأنها غائرةٌ بين جوانب عالية تحيط بأرضٍ مستوية رملها ناعمٌ. السهول الممتدة تحتنا فيها خيامٌ متباعدة، قالت إنها منازل أقاربهم. والخيامُ الأقرب منها، هي مساكن الخدم. سألتها عن السبب في

تباعدهم عن بعضهم، مع أن المرْبع يتسع لهم جميعًا. فقالت إنهم لا يحبون التكدُّس في المكان، فالراحةُ دومًا في البراح.. لم أدرك ما تقصده، ولكني ابتسمتُ لها كأنني تفهَّمتُ.

جلسنا فوق مصاطب حجرية غير منحوتة، أو نحتتها حسبما قالت ليلى، الرياحُ. هواءُ الصحراء في الصباح بديعٌ، والشمس تطل من وراء التلال على الأرض الممتدة أمامنا، فتفرشُ على الرمال والأحجار لونًا ذهبيًا برَّاقًا.. ليلى كحيلة العينين، ومليحة. تعلو وجهها سُمرةٌ جذَّابة. وإذا انزاح ستر رأسها، انكشف شَعْرٌ فاحمٌ كثيف، ما رأيتُ أجمل منه. حين تضحك، يصير وجهها أجمل. لأن أسنانها باهرة بالبياض، وسمرة وجهها تزيدها بياضًا. في صوتها بُحَّةٌ محبَّبة، وليونةٌ لا أقدر على مثلها. ويزيدها رقةً، ميلُ رأسها وتبسُّمها حين تتكلم. على شفتيها سُمرةٌ لطيفة يسمونها هنا اللَّمى، ويسمون صاحبتها لمياء. هي التي قالت لي ذلك.

تكلمنا كثيرًا، فيما تتكلم فيه النساءُ إذا انفردن. كانت تؤنسني بكلامها، وقد أحسَّتْ بخوفي وباضطراب باطني. سألتها عن زوجها فقالت إنها تزوَّجت مرتين. هجرت زوجها الأول، وطلَّقها زوجها الثاني. كان الأول مزارعًا من الأنباط، يعيش مع أهله في الجهة الجنوبية من أرض العراق، حيث تكثر الثعابين والحيَّات. هكذا قالت. قضت معه سنين بلا ارتياح، فقد كان له خليل، وكان يطلب منها في الليل أن تستدير. فلما بلغتِ العشرين من عمرها،

هربت من هناك وجاءت إلى أهلها مع قافلة تجارةٍ وحجيج، كانت في طريقها إلى إيلياء. زوجها الآخر كان عربيًا وكان غبيًا، ولكل داءٍ دواء إلا الغباء، ليس منه شفاء. هكذا قالت. أمضتْ معه شهورًا، ثم ضاقت بالحياة معه في بلدته المسماة الطائف، فجهرتْ بشكواها وجأرت، فطلَّقها.

كان صوتها ينخفض رويدًا، فشعرتُ بالحرج. قلت لها اعذريني إن كنتُ ضايقتك بالأسئلة، فقالت لي بوُدٍّ: *بل اسألي عن أي شيء، ولسوف أجيبك عن معظم الأشياء.. قلت لها إنني متحيِّرةٌ من كل ما حولي، ومذعورةٌ مما سيحدث مساء غدٍ.*

ـ لا تخشي شيئًا، سأكون معكما وقت دخوله بك.

ـ معنا.. لماذا؟

ـ مهلًا يا حبيبتي. مساء غدٍ بعد العرس، سيدخل بكِ سلومة في الغرفة التي تنامين فيها، وبحسب عاداتنا سأكون بقربكِ حتى يفتض البكارة.

ـ كيف؟

بكيتُ فجأةً رغمًا عني، فضحكتْ ليلى وهي تقول كلامًا كثيرًا من مثل: اهدئي يا ماوية، لا تخافي. هذا شأنُ النساء مع الرجال، والرجال مع النساء. امسحي دموعك، أنت غدًا عروسُ الناحية. سوف أزيِّنك بنفسي صباح غدٍ.. كَفَّ بكائي وكفكفتُ دمعي بستر

رأسي، حين احتضنتني بحنوٍّ وهي تُغنِّي كلماتٍ رقيقة، كأنها تُهدهد طفلةً تبكي، وضحكتُ دامعةً عندما قالت مُداعبةً: احتمليني ساعة، واشبعي منه بعدها، طيلةَ عمرك.

* * *

في الظهيرة وصل الهوديُّ ومعه ناسٌ كثيرون، فيهم نساء وأطفال. وفي المساء جاءوا بحناءٍ سوداء، لطخوا بها كفَّيَّ وقدميَّ وشعر رأسي، ثم لفّوا عليها أربطةً من قماشٍ خفيف. نمتُ ملفوفةً بالعُصابات فاضطربتْ أحلامي، وفي الصباح الباكر جاءت ليلى ومعها امرأتان سنُّهما كبير، وغير جميلتين، تحملان أشياءَ كثيرة وماجورًا كبيرًا. جلستا على الأرض في زاوية الحجرة، ناحية الباب، وجلستْ ليلى بجانبي وهي تقول:

ـ خذي يا ماوية ماءً من الزير، فاستحمِّي واغسلي عنك الحنَّاء.

ـ اُخرجن أولًا، فلن أتعرَّى أمام عيونكنَّ.

انفجرن بضحكٍ فاحش، فانزويتُ بركن الحجرة مذعورةً. ضممتُ إلى صدري ركبتيَّ وكدتُ أجهشُ، فهبطتْ ليلى إليَّ وراحت تهدِّئني، فراح دمعي يسحُّ وتولاني النشيجُ. فجأةً، قامت ليلى إلى خارج الغرفة، وعادت بعد قليل لتقول للمرأتين أن يذهبا إلى أمِّ البنين. أوصدتْ خلفهما الباب، وقالت لي: *ها نحن وحدنا، ولسوف أتولَّى الأمر وحدي، فلا تخجلي مني..*

رجوتها أن تخرج برهةً حتى أستحم، فقالتْ بصبر الأمهات: يا ماوية، عادةُ الناس هنا غير ذلك. اسمعي، سأبقى جالسةً وظهري إليك، وأُولي وجهي إلى الباب. لن أنظر إليك، وأنت عارية.. دعيني أولًا أغسل عنك الحنَّاء.. فعلتْ ليلى ما وعدتْ، فأتممتُ استحمامي بسرعة ولبستُ الثوب الواسع الأبيض، الذي جاءتني به.

لم تتوقَّف عن تزيـيني إلا لحظاتٍ بالظهيرة، عندما نادت عليها صَبِيَّةٌ وأعطتها طبقًا فخاريًا، فيه لحمٌ مشويٌّ. أكلنا على عجل، وعادتْ إلى العمل.. نزعتْ عن ذراعي وساقيَّ الشَّعْر الأصفر الخفيف، هي تسمِّيه زَغَبَ الأفراخ. ومرَّرَتْ بين جفنيَّ مِرودَ كُحلٍ حارق، وأطالتْ خَطَّ العين الذي تسمِّيه اللِّحاظ. ودلَّكتْ وجهي ورقبتي وأنحاءً أخرى، بدهانٍ عطريٍّ، هي تسمِّيه مَعْجون القَرَنْفُلِ.. بعد استحمامي ثانيةً، قبيل الغروب، فاحتْ أعطافي برائحةٍ زكية.

أخرجتُ من حاجياتي العباءتين البديعتين، كي تختار ليلى لي واحدةً، فقالت: *كلتاهما بديعة*.. لبستُ أمامهما العباءة الحريرية الصفراء، المؤطَّرة بالأشرطة الرُّمَّانية، فقالت: *صدرُكِ مكشوف.. أخرجتُ ستور الرأس، فاختارتْ لي الرُّمَّانيَّ وأسبلته عليَّ كالخمار، وضربتْ به على جيب العباءة الكاشف لصدري، وأمسكته من عند كتفي بدبوس. من أمام الحجرة، كانوا يستعجلون خروجنا، لأن المغيب قد اقترب.*

رأيت عند خروجي نسوةً كثيرات يملأن المرْبَع، وأطفالًا

كثيرين تحرَّكوا خلفي، وزوجي يقودني بجلبابه الأبيض الشفَّاف إلى المصطبة الحجرية التي أمام الحجرة التي يسمونها المجلس. أجلسني بوسط المصطبة، على الكرسيِّ الكبير المصنوع من جريد النخل. مررتُ برجالٍ سُود، أحباش، يلعبون بالحراب وشُعلات النار.. الرجال الكثيرون، يجلسون، على فُرُشٍ، في مدخل الساحة المحاطة بالصخور والجبال العالية. لمحتهم متحلِّقين حول خرافٍ تُشوى على أسياخٍ فوق الجمر، يعلو فوقها دُخانُ دُهنٍ يحترق.

جلستُ في وسطها على الكرسيِّ، وحدي، والنسوة يُحِطْنَ بي في دائرة، على الأرض، ويُفسحن الطريق بيني وبين الدَّرَج. بقيتُ ساعةً، أتلقى في حجري دنانير لامعة، من الرجال المهنئين.. يأتي نحوي الرجلُ مبتسمًا، ويُلقي في حجري بدينارٍ أو دراهم، ويلقي عليَّ نظرةً، ويمرُّ. هذه عادتهم عند الأعراس. بعد ما انتهى توافُد الرجال، أعطتني ليلى كيسًا لأضع فيه الدنانير. وقامتِ البناتُ والأمهاتُ فأحطنَ بي، ورقصن رقصًا غريبًا على صوت الدفوف، لا يحرِّكن فيه الأرداف، وإنما يتحلَّقن ويطوِّحن شعورهنَّ المرسلات، يمينًا ويسارًا، وهُنَّ مطأطئات. لم أرقص معهن، ولن أعرف لو حاولتُ، لكني ابتهجتُ برقصهنَّ الغريب.

* * *

قبلَ انتصافِ الليل ازدادَ صخبُ الرجال، وتعالتْ زعقاتُهم والضحكاتُ. قالت لي ليلى القريبة مني، إنهم يحتسون الخمر

ويعبُّون منها، فعرفتُ سِرَّ الرائحة الآتية من ناحيتهم مع الهواء.. ما كاد الصخبُ يهدأ وأعتاد المشهد، حتى جاء زوجي ليأخذني إلى غُرفة الافتضاض، فتلفَّتُّ لَهْفَى. احتجتُ أن تصحبني ليلى، وقد أدركتُ فجأةً، سِرَّ إيناس العروس. كانت خلفي، فسارت خلفنا، والناسُ بين مُهلِّلٍ ومُبتهجٍ.

عند الحُجرة الحجرية، طردتْ ليلى الأطفال من أمام الباب، ونهرتِ النسوةَ فابتعدن، ثم أغلقتْ علينا الباب بالمزلاج. القنديلُ في الزاوية، ضوؤه قوي. والأصواتُ في الخارج هدأتْ، فبلغ بي الخوفُ مُنتهاه.. بدا زوجي كأنه يترنَّح، وحين شلح عنه جلبابه تولاني الفزعُ، فارتميتُ في حضن ليلى.

أنزلتني إلى البساط المفروش على الأرض، ومدَّدَتني على ظهري. رأسي عند ساقيها، وعند قدميَّ يجثو سلومة. سحبتْ ليلى ثوبي فانكشف مكمني، وتيبَّستْ أعضائي. أزاح زوجي ساقيَّ إلى صدري، فارتفعتْ رُكبتاي. بَعَّدَ بينهما، ومَسَّ معدني بشيءٍ طريٍّ، فكاد يُغشى عليَّ. تزحَّف فوقي حتى اقترب وجهه من وجهي، فصدمتني الرائحة وقد صارت أبشعَ مما شممتُه قبلًا. تفزَّعتُ، فقالتْ ليلى: اصبري قليلًا.

غاصتْ بصدري رائحتُه، حتى تمنيتُ أن يُغمى عليَّ، أو ينتهي سريعًا. غطيتُ وجهي بكفِّي، فضاقتْ أنفاسي وتساقط عَرَقٌ غزير. تنفستُ كالغرقى، فأبعدتْ ليلى أخاها. أبقتني مستلقيةً لوهلة، ثم

غطت وجهي بمنديل أبيض، وقالت لأخيها كأنها تنهره: جَرِّب ثانيةً.. مَسَّ معدني فصرختُ، فثار صَخَبٌ سمعته من وراء الباب.. راح يمخرُ فوقي، ويفحُّ كذكر البَطِّ، حتى نهرته ليلى: *أدخلْ إصبعَك يا سلومة، وفُضّ.*

كُلُّ ما فيَّ يؤلمني.. تعلَّقتُ بذراع ليلى وأغمضتُ عينيَّ كيلا أرى، بعدما انزاح عن وجهي المنديل. ضوءُ القنديل يأتي من خلفه، وهو جالسٌ بين ركبتيَّ يُبعِّد بينهما، ويغوصُ في معدني بإصبعه وقد صارت له هيئةٌ مفزعة. لا عذابَ أشدُّ من هذا العذاب. صرختُ مراتٍ مُستغيثةً، فما أغاثني أحدٌ، وغمر وجهي العرق فما استطعتُ صبرًا، وصِحتُ: أُريدُ أُمي.. أدار فيَّ إصبعه، فغامت روحي وغاص قلبي، حتى تهرَّأ بين الضلوع.

ـ دَمُها هاربٌ يا سلومة، هي خائفةٌ. اتركها قليلًا.

تكوَّمت بينهما على الأرض، وأخذتُ وجهي بين كفَّيَّ ورحتُ أنوحُ. رائحةُ الغرفةِ شنيعةٌ، والضوءُ مخيفٌ، والجوُّ خانقٌ. العرق يغمرني، ويلصق بي العباءة التي كنتُ أحبها.. لن أحبَّ بعد الليلة أيَّ شيء.

ما كاد نشيجي يهدأ، حتى تململ زوجي ودفعني ثانيةً من صدري إلى صدر أخته. تزحَّفتُ للخلف، فأعادتني ليلى إلى استلقائي، وهي تهمس لي بما لم أسمعه.. غَرَزَ إصبعه من جديد، فأمسكتُ بأسناني رداءَ ليلى وعضضتُ عليه، وهي تمسح عن وجهي العرق. أدار

إصبعه، فدُرتُ حتى انفلتُّ منه، ومنها. كدتُ أصرخ أو أقومُ هاربةً من بيت حَنَّا الكرَّام، لولا سمعتُ ليلى تقول غاضبةً، بصوتٍ كظيم: *كُفَّ يا سلومة، فما كان لك الليلة كُلُّ هذا الخمر، وكان عليك أن تلاطفها الأيامَ الماضية.*

نهض زوجي فضرب الضوءُ صدرَه ووجهَه، وبدا أقبح. بقيتُ على الأرض بجوار ليلى، ودموعي تسحُّ ويسَّاقط مني العرَقُ. بعد برهة سألها هل يحاول ثانيةً، فقالت: لا، لا *فائدة.. نظرتُ إليها بعين أرنبٍ مذعور، وقد انتصبتْ واقفةً وراحتْ تلتقطُ من عند القنديل، وهي مقطِّبة الجبين، قطعةً من حجر الصَّوَّان. حادةَ الحوافِّ.*

جلستْ ليلى بأعلى، فصرتُ وحدي على الأرض. كشفتْ ثوبها عند باطن فخذها، وشقَّته بشفرة الحجر فسالتْ منها الدماءُ. أخذتْ من يد أخيها المنديل الأبيض، ومسحتْ به ما سال من دمها، ثم أعادته إليه وهي تقول: *أطفِئْ فتيلةَ القنديل، واخرجْ إليهم بالعلامة، ولوِّحْ بها.*

عزيفُ الجنّ

النهارُ هنا حارٌّ، والمساءُ مريع. بقيتُ ثلاثةَ أيامٍ حبيسةَ الحجرةِ الحجرية، فلم أخرج من بابها إلا لقضاء الحاجة في أول الليل، متسترةً بالظلام. الميلُ إلى القيء كان يمنعني عن الطعام، فأدُسُّه بين الزكائب المكدَّسة في زاوية الحجرة، ثم أرميه للكلاب حين أخرج. كنتُ أحيانًا أُوارب باب الحجرة في النهار، ليطرد الهواءُ الرائحةَ الزَّهِمة الخانقة، فأختلسَ لحظتها النَّظَرَ من خلف الباب، وأتلفَّتُ يسارًا إلى الخيمة الكبيرة حيث تتجمَّع النساءُ والأطفال، ويمينًا نحو الساحة التي يخيِّم فيها الضيوفُ، وحولهم ما كانوا يركبون.

صرتُ أنام في غالب الأوقات، لأُغالب الأوقات. زوجي يأتيني عند انتصاف الليل محملًا بروائحه، ويُوجع أذني بشخيره إلى ضحى اليوم التالي، ثم يخرج ساعة العصر ليجلس بين الرجال ويشرب معهم، فأنام. بعد العرس بيومين، عرَّاني صباحًا وتعرَّى، فتركتُ له بدني يعبث به ويعيث كيف شاء. أول المساء صار أهون عليَّ مرورًا

من النهار، لأني أبقى وحدي حتى يأتيني مترنِّحًا، فأصطنع الغَرَقَ في النوم كي يتركني وينام مغلَّفًا بروائحه.

بعد خمسة أيامٍ خرج بي إلى خيمة أمِّ البنين، وتركني هناك، فتجمعتْ حولي النسوةُ مهنِّئاتٍ. رأيتُ وجوهًا لم أعرفها، وعرفتُ من كلام النسوة أن إخوة زوجي الساكنين بالشام، سيبقون هنا يومين آخرين، ثم يرحلون مع قافلةٍ للتجارة ويرحل معهم زوجي. الهوديُّ لن يصحبهم، لأن الروم هائجون في الشمال على اليهود. رجالُ الكنيسة يتَّهمونهم بأنهم كانوا يساعدون الفرس، الذين غلبهم الروم، ويَسْتَعْدون عليهم هرقل ويحرِّضونه على الفتك بهم؛ عقابًا على ما فعلوه، وما فعله أجدادهم حين قتلوا المسيح. هذا ما سمعته من النسوة والصبيان. لم أشاركهم كلامهم، ولا اهتممتُ بما يقولون. كنتُ غارقةً فيَّ، وفي بعض الأحيان أنتبه إليهم. قالوا إن الفُرسَ انكسرت شوكتهم ولن يعود مجدهم، وقلب الجزيرة يغلي بالغزوات والحروب، والنبيّ القرشيّ يغتالُ كبار اليهود ويحارب الجماعات والقبائل. وفي أطراف الجزيرة، أنبياء يختلفون ويتقاتلون ويتهادنون. الأنحاءُ مضطربةٌ كلها، وباطني. ما اهتممتُ بشيءٍ ولا سألتُ إن كان زوجي سيأخذني معه، وإن تركني هنا، فمتى يعود.. ما عاد يهمُّني شيء.

* * *

مَرَّ أسبوعٌ بطيءٌ، ثم تحرَّكَ زوجي في الصباح الباكر مع القافلة،

وبقيتُ جالسةً على دَرَج الحجرة الحجرية، أرقبهم وهم يتقاطرون من الساحة اليمنى، مع الإبل المحمَّلة والدواب. كانوا يخرجون من المدخل الذي وفدتُ منه إلى هنا، قبل قرابة أسبوعين.. عميرو والنبطيُّ سافرا معهم، وساعة خروجهم جاء عميرو فحيَّاني وأخبرني من دون أن أسأله، أنهم لن يعبروا الجبل غربًا، بل يسيرون شمالًا على أرض سهلة، فيمرون ببلدة اسمها عمَّان ثم يعبرون بادية الشام إلى الأرضِ الخضراء.. سألني إن كنتُ أريدُ من الشام شيئًا، فشكرته بكلمةٍ واحدة.

ساعةَ الضحى، أخذتُ من تحت مخدتي كيس الدنانير، وعلى هونٍ مشيتُ إلى الخيمة، مثل مريضة، وجلستُ قُرب أمِّ البنين. كانت بالخيمة نسوةٌ من أقاربهم الساكنين بالخيام التحتانية، يتحركن حولنا ويقعدن أحيانًا ثم ينهضن، كالغربان بملابسهن السوداء. الكلابُ اعتادتني، واعتادتْ عيناي هذا المكان، وألفتُ الأحزان.

في الظهيرة خلوتُ بأمِّ البنين، فاقتربتُ منها وأعطيتها كيس الدنانير لتخبِّئه لي، فقالت إنهم أهلُ تجارةٍ لا يكنـزون الذهب. استدعتِ الهوديَّ، وبعد حينٍ جاء مكلَّلًا بحزنه المعتاد، وخلفه إحدى بناته وخلفها بعض الأطفال. جلس أمامنا صامتًا حتى كلَّمته أمُّ البنين، وهي تمدُّ إليه الكيس: *هذا مالُ ماوية، تاجرْ لها فيه، واربحْ ببركة الرَّبَّاتِ والأرباب، ولا تخبر أخاك بالأمر.*

ببطءٍ، عَدَّ الهوديُّ الدنانير ثم قال إنها سبعةٌ وثمانون، فمالت

أمُّ البنين بكتفها اليمنى إلى الوراء، وطَوَتْ طَرْفَ البساط الجالسة عليه، وأخرجت من تحته كيسًا عدَّتْ منه دنانير. أعطتها للهوديّ، وهي تقول: *هذه هديتي، فيصير مالها عندك، مائة دينار*. لم يقل الهوديُّ شيئًا، مَدَّ يده وأخذ الدنانير ودسَّها في الكيس، ثم تأهَّب للقيام لولا أقعدته أمُّ البنين بأن قالت له:

ـ أرى الحزنَ يقتلك، فمَنْ لأطفالك مِنْ بعدك؟

ـ ماذا أفعلُ، والحالُ كما تعلمين؟

ـ اسمعْ، هلك الذي هلك. فلا تهلِكْ أسًى وتجلَّد. أعرفُ أنك كنتَ تُحبُّ أسيرَ بن زارم..

ذكرتْ أمُّ البنين اسم هذا الرجل، وكأنها فجَّرت قلب الهوديّ.. انتفختْ عروقُ رقبته، واسودَّ وجهه وجحظت عيناه، وراح يقول بحنقٍ عظيم: *يُغتال أسيرُ بن زارم، وقبله سلاَّمُ بن أبي الحقيق، وكعبُ بن الأشرف، وأبو عفك.. وليته يكتفي.. وها هو الآن يغزو خيبر، ألم يكفه غزو بني قينُقاع وإجلاءُ بني النضير، وقتلُ بني قريظة وذَبْحُ رجالهم عيانًا وسبيُ النساء؟!*

انفجر الهوديُّ حتى فزع الأطفالُ، فقام منتفضًا ورجع إلى خيمته. استفهمتُ من أمِّ البنين، فقالتْ باقتضابٍ إنها حروبٌ تجرى في قلب الجزيرة. سألتها: وهل تصل إلى هنا؟ فنفتْ وقالتْ بغير إفاضة، إن النبيَّ القُرشيَّ لن يفعل بالأنباط شرًّا. هكذا قالت،

فلم أفهم مقالتها ولم أشأ أن أُثقل عليها، مع أنني أردتُ أن أسألها عن سِرِّ قولها للهودي: لا تخبر أخاك بالأمر. وأردتُ أن أسألها عن عمرها حين أنجبتِ الهوديَّ، فالفارق بين عمريهما بسيط، لا يزيد عن عشر سنوات.

سألتُها ساعة العصر، عن الشَّقِّ الذي أراه ناحية الحجرة المسماة المجلس، فقد رأيتهم يأتون من هناك بجرار الماء، ورأيتُ الأطفال والكلاب يخرجون منه ويدخلون. نادتْ على صبيَّة اسمها نَعْسَة، في العاشرة من عمرها، وقالتْ لها: *اذهبي مع ماوية، لتَري السيق البارد.*

مشينا نحو ناحية المجلس، وقبل المصطبة العريضة التي أجلسوني عليها ليلة العرس، دُرنا قليلًا إلى الجهة اليسرى فرأيت عند انضمامة الجبلين، دربًا صخريًّا بمدخله شجيرات الدِّفْلَى ذات الزهور الحمراء. الأغنام والدواب لا ترعى عند الدِّفْلَى، ولا تأكلها، لأنها مُرَّة الطعم. نَعْسَةُ قالت ذلك لي، ونحن ندخل من الشقِّ الجبلي إلى هذا المكان الغريب، المسمَّى السيق البارد.

بالكاد يسمح هذا الشقُّ الضيق بدخول حمار، لكنه لا يتسع لمرور جمل أو ناقة. بعد عشرين خطوة ينفرج عن موضع عجيب، مليءٍ بالأعاجيب. هي أرضٌ مستوية، بيضاوية، مساحتها أكبر من فدانين. تحوطها من كل النواحي جبالٌ عالية، وكُتَلٌ صخريةٌ عسيرة المرتقى، أو مستحيلة. على سطح الأرض الرملية المستوية، ومن

خُلل الصخور، تقوم أشجارٌ كثيرة. عرفتُ منها شجرَ التين الذي كان يومها مثمرًا، وشجرَ البلُّوط الذي لا يثمر أبدًا، ونباتاتٍ كتلك التي رأيتها بأعالي جبل السكاكين.. بهرتْ نظري الطيورُ الكثيرة، والهداهدُ، التي تملأ المكان وتعشِّش بين ثنايا الصخور المحيطة.

على يمين الداخل إلى السيق، كهفٌ بلا بوابة، منحوتٌ في الصخور. وبعده كهفٌ أكبر، وأعلى، يُرتقى إليه بدرج. في جانبي الجبل حزوزٌ منحوتة، ومسارب، ليجرى فيها الماءُ إذا نزل من الأعالي أيامَ السيل، فيتجمَّع في كهوف وحجرات تحت الأرض، عميقة الغور، ينـزلون إليها بدرج.. في بطن الجبل، عن اليمين والشمال، حجراتٌ على هيئة غرف كبيرة، من فوقها غُرَفٌ ومن تحتها دَرَجٌ يعلو إليها بَقْدر ثلاث قامات، وأكثر. في آخر السيق دَرَجٌ مطمومٌ، محصورٌ بين التقاء الجبلين. مَنْ صنع ذلك كله؟ سألت نَعْسَةَ، فقالت من دون أن تفكِّر: الجِنّ.

في منتصف السيق تتسع الأرضُ المستوية، وتكثر الشجيرات، وهناك يرتفع دَرَجٌ كثير، عدده على يسار الداخل إلى السيق، أكثر من ثلاثين درجةً ملتويةً بالتواء الصخور، تمرُّ على ثلاث غُرَفٍ متتالية العلوّ، كل غرفةٍ من فوقها غرفة محفورة في بطن الجبل. المنخفضةُ من الغرف غيرُ تامة النحت، والوسطى منحوتةٌ على نحوٍ أفضل، والعليا فسيحةٌ بديعة النحت، تطل على منتصف السيق بشرفةٍ حجرية ترتفع عن الأرض، بقدر خمس قامات. صعدتُ

الدرج وراء نعسة، وجلستُ معها حينًا على عتبة الشرفة العليا. راق لي المكان، فراودتني فكرةٌ مفاجئة. هذا المكان يشبه قصرًا في قلب الصخور، فإذا صار بأول هذا الدَّرَج وبآخره، بابان، لصار لي هنا بيتٌ بديع، مفتوح على السيق الذي سُمِّي البارد، لأن هواءه باردٌ لطيف.

سألتُ نَعْسة إن كانت العقرب والرتيلاء تسعى هنا، فنفتْ مؤكدةً أن العقارب لا ترتقي الدرج، ولا تتسلق الصخور، قلتُ: فماذا عن الحيَّات؟ قالتِ انتظري حتى ننـزل، ولسوف أُريكِ شيئًا. الجزء الداخلي من سقف الغرفة العليا، مقبَّبٌ، وعليه رسومٌ ملونة لأشجارٍ يجلس على أغصانها أطفالٌ يلعبون؛ وينفخون في مزامير قصيرة. تحت هذا السقف مصطبةٌ، موضوع عليها تمثال حجري أبيض، لرجلٍ بلا ملامح واضحة، قالت نَعْسَةُ إنه الإله ذو الشرى، فكدتُ أضحكُ.. النـزولُ أصعبُ من الصعود؛ لأن الرَّمْلَ يُغطي أغلب الدَّرَجِ الصغير. لا يزيد عرض الدرجة منه، عن شبرٍ واحدٍ.

أخبرتني الصبية بعدما نزلنا، بأنهم يضعون عند منابت الدِّفْلَى وفي ثنايا الصخور، سُمًّا للأفاعي على هيئة البيض يأتون به من جنوب العراق، فإذا ابتلعتِ الحيةُ واحدةً منه انفجر باطنها، وماتت.. قالت: *سأُريكِ واحدة*.

دخلتْ بين أحراش الدِّفْلَى، فاهتـزَّت زهورُها الحمراءُ الرُّمَّانية، وأوراقُها الطوال، وبعدما غابتْ برهةً عن عيني، خرجت وفي يديها

نصفا ثعبان، تهرَّأ حبلُ جسمه من عند المنتصف. ألقتِ النصفين، وأشارت عند جذع الشجيرة القريبة إلى كرةٍ صغيرةٍ بيضاء، في حجم بيض الحمام وهي تقول: *يأتون لنا بهذه الكرات المسمومة، فنكسر عليها بيض البطِّ والدجاج، فيصير لها مع الشكل، الطعم والرائحة. ثم نضعها في الأنحاء كلها، لتقتل الأفاعي فلا تصل لخزائن الماء.*

ـ هل يمكنني أن أسكن هنا؟

ـ اسألي جدتي.

عادت بي الصبيةُ إلى أمِّ البنين، وأخبرتها برغبتي في سُكنى الكنيسة. هم يسمون الغرف الثلاث الكنيسة، مع أنني لم أشاهد هناك أيَّ صُلبان، أو صورًا للمسيحِ الحيِّ والشيوخ الكبار. التفتتْ أمُّ البنين نحوي، وهي تقول: *إذا أردتِ السُّكنى هناك فانقلي حاجياتك غدًا، فقد تأخَّر الآن الوقت..* شكرتها، فأضافتْ وهي تهشُّ عن وجهها الذباب بِطَرْفِ سِتْرِها: *النسوةُ والصبايا سوف يساعدونك في تنظيف المكان، وينـزعون من هناك تمثال «ذو الشرى» لنضع مكانه صنم اللات، فتحرسك الإلهة.*

ـ تحرسني العذراء يا عَمَّة، فأنا مسيحية.

ـ تحرسُكِ الرَّبَّتانِ يا بُنـيَّتي، تحرسُك الرَّبَّتان. والموضع على كل حالٍ حصينٌ آمن، وسيفرح به سلومة حين يعود.

بعد العشاء ذهبتُ إلى الحجرة الحجرية المفردة، الكريهة، لأنام.

مشتْ معي ليلى إليها، وأشارت في طريقنا إلى تجويفٍ في الجبل، غير منحوت، له بابٌ خشبيٌّ مثل بوابات الحظائر، وقالت إنها تنام في هذا المكان ليلًا، لأنها لا تحتمل النوم في الخيمة الوسطى وسط شخير النسوة وبكاء الأطفال. أخبرتها بأنني سأسكن غدًا في السيق البارد، في الحجرة المسماة الكنيسة، فابتسمتْ وهي تقول: *إذن، فسوف تكتشفين سِرِّي.*

سألتها أن تجلس قليلًا معي عند باب الحجرة، فجلستْ مبتسمةً، وسألتها عن سرِّها فابتسمتْ ثانيةً، ولم تُجب.. وسألتني عما جرى مع أخيها بعد ليلة العرس، فقلت لا شيء. وسألتني إن كنتُ قد أحببتُ هذا المكان، فتحرَّجتُ من الإجابة. وسألتني عن أمي، فبكيتُ.

في الصباح الباكر جاءتِ النسوةُ والصغار ومعهم خادمان، فحملوا الحاجيات التي قضيتُ الليلةَ أجمعها وأحزمها بقدر المستطاع. نقلوها كسربٍ من النمل، وبقوا معي حتى الظهيرة يرتبون الأشياء وينظفون المكان ليتهيَّأ للسُّكنى.. ساعةَ العصر نقلوا الصنم القصير المضحك، المسمى «ذو الشرى»، ووضعوا مكانه حجر اللات الأبيض ورفعوه على قواعد حجرية أربعة، تعلو بقدر قبضتين، فصار لرمز الإلهة ارتفاع بقدر ذراع، وصار موضعه في آخر المصطبة المقبَّب سقفها، لطيفًا. قُلت في نفسي: سأعدُّه من زخارف المكان، وسقفُ المصطبة مزخرفٌ على كل حال، لكنني لن أنام بجواره لأنني مسيحية لا أؤمن بهذه اللات، وابنها

المسمى إيل.. حين يعود النبطي، سوف أسأله عن الإله المسمى «ذو الشَّرَى»، وعن الأنبياء الذين يتقاتلون بقلب الجزيرة، وعن معنى قوله إن في كل ذكرٍ أنثى، وفي كل أنثى ذكرًا.

الأفضلُ ألا أسأل، ولا أُجهد روحي. لن أنشغل إلا بما يهمني. كُلُّ هَمِّي الآن محصورٌ في أنني زوجةٌ لتاجرٍ عربيٍّ أحول، أبخر، سكِّيرٍ، اسمه سلومة. وقد تعوَّدتُ قبل سفره على حَوَلِه، والمكان هنا فسيح، يسمح بأن أنام بعيدًا عنه، فلا تضيق أنفاسي برائحة فمه. ولسوف أنسى حَوَلَ عينيه بعد حين. أو لا أنظر إلى وجهه، كأنني أستحي، مثلما كنتُ أفعل سابقًا.. فماذا لو أنجبتُ أطفالًا حُولًا، أو بُخرًا مثله؟ لا، سوف يرثُ أطفالي طِيبَ رائحتي، وطيبة قلبي. ويرثون نعومة شعري، وبياض جسمي، وصفاء عينيَّ.. ما عادتْ عيناي صافيتين، وما عدتُ أتطلَّع مثلما كنتُ دومًا، في المرآة.

أمضيتُ أوان العصر وحدي، في بيتي الجديد، فهدأت خواطري قليلًا وآنسني المكان. نظرتُ برضا في زواياه، وسقفه المزدان بالرسوم الملوَّنة، ومَطَلِّ شرفته على الأرض الغنَّاء من تحتي، والعصافير التي تتنقَّل بين الأشجار المفترشة السيق، المحصور بين الجبال. هم يسمونه السيق، لأنه يسوق مياه السيول إلى الخزانات المحفورة بجوانبه.. غدًا أسألهم أن يساعدوني في صنع بوابتين: الأولى عند مبتدأ الدرج الصاعد إلى الغرف، والأخرى عند مدخل هذه الغرفة الفسيحة، المفتوحة شرفتها على السيق.

والأفضلُ أن نبني حول البوابة الأعلى، جدارًا يضيِّق مدخلها

ويُحكم الإغلاق، وجدارًا للشرفة كيلا يقع منها الأطفال.. أطفالي الذين سيعطيهم لي الربُّ.

هذا المكان يشبه البرابي. لا بُدَّ أن البرابي كانت تلالًا أو جبالًا، نحت منها الناسُ قبل ألوف السنين، غُرفًا وأعمدة، ثم أزالوا ما حولها من الأحجار.. هذا المكان برابٍ لم يكتمل نقرُها، والبرابي صخورٌ نُقرتْ وتشكَّلتْ، فصارت واقفةً في الفراغ.

الفراغُ يحوطني هنا، في بلاد الأنباط.. الأنباطُ مثل بيوتهم، فهم شيءٌ غير تامٍّ ولا مكتمل، ولا عمق له. هل تُراني أحبهم، أم هي مشيئة الربِّ وعليَّ أن أرضى بها؟ أحبُّ بعضًا منهم، والبعض الآخر لا أَقْدِرُ أن أُحبَّه ولا أطيقُ.

مع ميل الشمس للغروب أحسستُ بوَحدتي، ومع غيابها أظلم المكان من تحتي، واسودَّتِ الجبالُ المحيطة فصارت مخيفة. السيقُ أمسى مفزعًا. أغصانُ الأشجار يمرُّ الهواءُ فيها فتُصدر أصواتًا كالفحيح، وحين يشتد مرور الهواء يصير الصوتُ كعزيف الجن.. ما الجنُّ؟ هي أقاويلُ يردِّدها الناسُ هنا، ولا يعرفها غيرُ العربِ والأنباط. هي محض خرافات. ليس هناك جِنٌّ.. نعم، ليس هناك.. ليس هناك، لكنه قد يكون هنا.

لما جَنَّ الليلُ، لم يؤنسني ضوءُ القمر الذي أطلَّ باهتًا من فوق الجبل المقابل، بل زادتني ظلاله رهبةً وأقلقني السكون. تسلَّل إلى ساقيَّ بردٌ، استهلَّ بأطراف قدمي ثم ارتقى إلى باطن ركبتيَّ،

فارتعدتُ. قمتُ مرتجفةَ الساق والكتفين، فأخذتُ عُشبًا جافًّا من زاوية الحجرة، وفوق الشرفة المطلة على السيق، قدحتُ فيه نارًا.

تلاعبتْ ألسنةُ اللهب وعلتْ، فلعبتْ خيالاتٌ مخيفةٌ على جدران المكان وعلى تجاعيد الجبل المحيط. جمَّدتني بموضعي المخاوفُ ورعبُ الخيالات، فصرتُ أرتعد.. يا أمي أدركيني.. ولا تتركيني يا عذراء، يا قِدِّيسة.

لا فائدةَ من أيِّ ابتهالٍ أو صلاة، سوف تهبط الشياطينُ بعد قليل، مع الجنِّ والعفاريتِ، ويجتمعون عليَّ، فينتزعون أحشائي. بقيتُ أتلو الصلوات التي أحفظها، بشفتين ترتجفان. فما سكت عزيفُ الجنِّ في السيق، ولا سكنتْ أطرافُ الأشجار. بدتِ الأرضُ من تحتي مثل حصيرةٍ سوداء، تطل من ثناياها رءوس الشياطين فتشيع الرعب في الأنحاء. تمنيتُ الموت أو طلوع النهار. أيُّ نهار؟ الليلُ الآن في أوله، فكيف ستكون النهايات؟ هل أقوم من هنا، وأخرجُ إليهم فأنامُ في الخيمة معهم، أو في العراء، أو أندسُّ بين الأغنام.. الناسُ تؤنس، وقد تؤنس الدوابُّ.

لكنني لا أستطيع القيام، ولن أستطيع المرور بين هذه الشجيرات، التي صارت ملعبًا للجنِّ والشياطين.. الشياطينُ حقيقةٌ والعفاريتُ، والجنُّ موجودٌ. أشعر به هنا، يطل عليَّ من بين شقوق الجبال وثنايا الصخور، ويزحف نحوي من مبتدأ الدرج الصاعد إلى هنا.. الدرجُ المفتوح.

خَبَتِ النارُ فصارت جمرًا يبتلع ألسنة اللهب، فاعتصر بطني ألـمٌ وبأسٌ لا يحتمل، ولفَّني يأسٌ فتسمَّرتُ في جلستي. غاص فيَّ الرعبُ وازداد، حين سمعت أصداء أصوات.. هذه أغصانٌ دقاقٌ تتكسَّرُ في السيق، ويقترب مني صوتُها. صار الجنُّ يدبُّ على الأرض، آتيًا إلى ناحيتي، أو لعله ذئبٌ يفتِّشُ عني بعدما شَمَّ رائحتي. أو هو السبعُ الذي يحكون عنه ويرسمونه على جدران الكنائس، جاء كي يفترسني.

ـ *يا ماوية، الجدةُ تسألكِ إن كنتِ تريدين شيئًا؟*

ـ *هاه..*

ـ *أنا نَعْسَةُ، انظري تحتك.*

ـ *آه، رأيتك.. اصعدي إليَّ.. سأنزلُ معك.*

كانت الصبية تغنِّي وهي ترتقي الدرج. لعلها تدرك فزعي، من ارتجاف صوتي، فأرادتْ أن تؤنسني بالغناء. تبدَّد خوفي فجأةً حين رأيتها واقفةً أمامي، وانتفضتُ واقفةً. أخذتُ في يدي غصنًا متَّقدَ الطرفِ، وحككته في الجمر، فتوهَّج منه ضوءٌ. وأخذتْ نَعْسَةُ غصنًا آخر، ونفختْ فيه، فتوهَّج منه ضوءٌ أفضل، وتراقص على طرفه لهبٌ مُنير. فعلتُ مثلها، ونزلتُ وراءها من دون أن أتكلَّم. لم أنظر إلى يساري نحو جوف الغرف التي صارتْ مع الليل سوداءَ، مرعبة. لما لمستُ الأرض بقدمي، تحاشيتُ النظر إلى الشجيرات

المرتجفة، والأشجار المشرفات من بين الصخور مثل كائنات لا شكل لها.

تشاغلتُ عما يحوطني، بسؤال نَعْسَة عن أسماء إخوتها، فقالتْ كلماتٍ لم أنتبه إليها. وسألتها عن سنِّها فلم تعرفه، أظنُّها بلغتِ العاشرة.. وصلنا إلى المضيق الذي بأول السيق، فوضعتُ يدي على كتفها، وسرتُ خلفها بساقين ترتجفان حتى انفتحت أمامي السماءُ، والساحةُ، والمرْبَع. لم ألتفتْ يسارًا إلى المجلس، ولا يمينًا حيث يمتد جدار الجبل، ولا قُبالتي حيث الحجرة التي تعذَّبتُ فيها يوم عُرسي.. ولم أنظر بالطبع خلفي.

ضوءُ القمر يفترش الأرضَ، والكلابُ جاءت نحونا تؤرجح ذيولها، والإنهاكُ يؤرجح قلبي بين الضلوع.. سرنا إلى خيمة أمِّ البنين، ولما اقتربت نادتني من خلف قنديلها المضيء، فكدتُ ألقي بنفسي في حِجرها. جلستُ لصيقةً بها، وقلتُ: يا عمَّتي، خِفتُ هناك حين صرتُ وحدي.

ـ أعرفُ يا بُنيَّتي. نامي هنا إلى جواري، نامي فأنت منهكةٌ.

شدَّتْ فوقي غطاءً فنمتُ عند قدميها كفراشةٍ ميتة، حين فتحتُ في الصباح عيني، رأيتها تهشُّ عن وجهي الذباب بسِتْر رأسها. اعتدلتُ، وسألتها: هل يمكنني يا عمتي، أن أناديكِ من اليوم يا أمي؟

صريعُ العواتك

مَرَّ على غياب زوجي شهران، هادئان، ثم أتتِ الأخبارُ باقتراب وصوله. الأخبارُ تأتي إلى هنا، وتذهب، مع حركة التجارات التي لا تهدأ. قضيتُ الشهرين قُرب أُمِّ البنين فتعلَّمتُ منها، وعلمتُ عنها. هي عربيةٌ من غير الأنباط، كان أبوها تاجرًا من أهل الطائف، وكانت تصحبه في تجواله.. وفي ليلةٍ قمراء أثناء سفرٍ صحراويٍّ، تشمَّمَه وهو نائم ضبعٌ، وكاد يفترسه، لولا أنها ناوشتِ الضبع برُمحٍ فانتبه إليها، وانتبه أبوها إليه فقام بحربةٍ. قاتلاه حتى قتلاه. كانت آنذاك في السادسة عشرة من عمرها، ولم تكن مزوَّجة، فقال لها أبوها وهو فَرِحٌ بها: تمنَّيْ عليَّ، فقالتْ: لا تزوِّجني إلا بمن أرتضيه. فرضي بذلك ووعدها به.

بعد عامٍ أحبَّتْ رجلًا من الأنباط كانت له تجارةٌ مع أبيها، وكانت له خيمة في سوق الأنباط التي ببلدة يثرب. وهامت به، فزوَّجها أبوها له مع أنه كان متزوِّجًا قبلها بامرأةٍ نبطية، هي أمُّ الهوديِّ

وشقيقه الذي يعيش الآن في وادي رَمّ. وجاءت مع زوجها إلى هنا، فأنجبتْ من الأولاد سبعةً، مات منهم في الطفولة اثنان. فصاروا يسمونها أمَّ البنين.

ولأمِّ البنين ابنتان؛ ليلى وشقيقتها التي في العراق. ليلى هي الصغرى، والكبرى التي هناك لها اسمٌ غريبٌ: وحشية.. أما صَفَا، المتلفِّتة، فهي ابنةُ الزوجة الأولى التي كانت حسبما قالوا، امرأةً طيبة. ماتت قبل عشرة أعوام، بعدما عانتْ أمراضًا كثيرة. كان اسمها: بَسّ.

على غير عادة الرجال هنا، لم يتزوَّج أبو البنين السبعة، بنساءٍ أُخريات، حتى مات قبل خمس سنين. كان يُحبُّ أمَّ البنين ولا يطيق إغضابها، ولا يصبر على فراقها.

ساكنو الخيام التحتانية، هم أعمامُ ليلى وأقارب أبيها. وهم مثلهم هنا، تُجَّار. ولهم أقاربُ آخرون يسكنون الصحراوات المحيطة، وجميعهم أغنياء؛ لأنهم يتاجرون.. وهم هنا يحترمون النساء، حسبما أخبرتني الراهبةُ، ولا يضربون الزوجات. ويحبُّون للمرأة أن تتاجر بأموالها. ليلى تشارك إخوتها التجارة بأكثر من ألف دينار، والمتلفِّتةُ يتاجرون لها بمال أكثر من ذلك بكثير، ورثته عن زوجها الذي هلك قبل عامين، أثناء سفره.

الرجالُ قليلًا ما يمكثون هنا، فهم دومًا يذهبون مع القوافل، فيقضون معظم أوقاتهم مسافرين. في الخريف وفي الربيع

يرحلون إلى مصر، ويذهبون إلى الشام والعراق في الصيف، وإلى اليمن والحبشة في الشتاء. حياتهم سفرٌ من بعد سفر. وفي الأسفار حسبما تقول ليلى: إسفارٌ وإظهارٌ وربحٌ وفرحٌ بالوصول.

* * *

قبل وصولهم بيومين، قالت لي ليلى بعدما خرج الصغار بالأغنام للرعي: إن عليَّ تهيئة مسكني. حتى إذا جاء زوجي، نمتُ معه هناك مُؤتنسةً بوجوده، وحين يسافر ثانيةً أعاود المبيت هنا في الخيمة. استحسنتْ أُمُّ البنين الفكرة وتحمَّستْ لها المتلفِّتةُ، فقمتُ مع ليلى وبعض الخدم لتهيئة السكن. ما عادوا يسمونه الكنيسة، صاروا يقولون: بيتُ ماوية.

المكانُ في النهار لطيفُ المنظر، ولطيفٌ هواؤه. لكنه في الليل مريع. قلتُ ذلك ونحن ندخل السيق، فابتسمتْ ليلى. سألتها عما كانت تقصده، يوم قالت إنني سأعرف هنا سِرَّها، فقالتِ: انتظري حتى نفرغ مما جئنا إليه، ونصرف الخدم إلى الخيام، ثم أُخبركِ.

لم يكن هناك الكثير لنفعله؛ فالخدمُ قاموا بكل شيء. نقلوا الجِرار والزير الكبير، وجلبوا إليه الماء من الخِزانات التي تحت بيتي. ثم كنسوا التراب بمكانس من العراجين ولوف النخيل، ورشُّوا على الأرض والجدران الماء، وبسطوا الفُرُش والحشايا فصارت كالأَسِرَّةِ، وأخرجوا من هدايا العُرس قنديلين نحاسيين

يلمعان، وفي آخر الشرفة صنعوا كانونًا للطبخ، له عينان، ارتفاعه شبران. أخبرتُ ليلى بما أريده من البوابات، فقالتِ: انتظري حين يأتي سلومة فيصنعها لكِ، ويساعده في ذلك النَّجَّار.

ساعةَ العصر خلونا، فسألتها ثانيةً عن سرِّها. أخذتني إلى أرض السيق، وجلستْ بي قُبالة بيتي، عند الجهة المقابلة لشُرفتي. على جانبيْ هذا الموضع خزائنُ ماءٍ غائرةٌ في الأرض، فوقها شقوقٌ جبلية فيها صخور ناعمة السطح، بعضها فوق بعض. فوق الأحجار الملساء التي نجلس عليها، شقٌّ يعلو بين الجبال ويغوص بقلبها، فيصل إلى حيث لا أرى. تسلَّقته ليلى بسهولة، كالهرَّة، فكادت تغيب عن ناظري بدخولها بين الشقوق. صعدتُ وراءها فوجدتُ في الفوق بسطةً حجرية، تبدو كالسرير المعلَّق في رَحِم الجبل.. جلسنا هناك متجاورتين، سألتها عن سبب نعومة سطح الصخور المتوارية في جوف الجبل، فقالت: مياه السيول النازلة بالرمال من الأعالي، إلى خزائن السيق، تحكُّ الأحجار فتجعلها ناعمةً ملساء.. نظرت إليَّ بطرف عينيها الواسعتين، نظرةً لم أفهمها، وأضافت: الحكُّ سرُّ النعومة.

المكانُ غريبٌ، ومعزول. نزلتُ على عجلٍ ونزلتْ ورائي، فجلسنا على الأحجار الملساء التي بأول المرتقى. نظرتُ إليها مستطلعة، فقالتْ بعد تلفُّتٍ، كلامًا غريبًا. هي تأتي إلى هنا في هدأة الظهيرة، بعدما ترمي على أرض السيق وعند مدخله، أغصانًا يابسةً

دقاقًا. وتصعد هذا المخبأ العلوي، وتستلقي عاريةً على الصخرة الناعمة التي جلسنا عليها، فيأتيها الجنُّ هناك. فإن دخل السيقَ أيُّ إنسانٍ أو حيوان، تكسَّرتْ تحت أقدامه الأغصان، وتنبَّهتْ هي وانتبهتْ، وصرفتِ الجنَّ.

ـ *وما الذي يفعله معكِ الجن؟*

ـ *يفعل العجب العجاب.*

ـ *ليلى، أنا لا أصدِّقك.*

ـ *جَـرِّبي مَـرَّة، وسوف تصدِّقين، وبعدها تسعدين.*

* * *

في أول الليل، كنتُ مشغولة بما قالته ليلى. إذا صَدَّقتُها، فلن يطيب لي العيش في بيتي الجديد، المطلَّة شرفته على مخبأ الجنّ. لن أستطيع السكنى هناك ولا راحة لي في الخيام، وحجرتي الأولى صارت مقيتة، فما الحلُّ؟ لعل ما قالته ليلى مُزاحٌ، وهي على كل حال تتبسَّم حين تتكلَّم، وتُميل رأسها وعينيها، فلا أعرف جِدَّ كلامها من مُزاحه. هي على الأرجح تمزحُ، أو تتهوَّل بالحكايات والأوهام مثلما تهوِّل النسوةُ وتُبالغ في التوهُّمات. ولو كان الجنُّ موجودًا حقًّا، لرأيته في ليلة خوفي المريع بالسيق.. ولكن ما يدريني، ربما كان ليلتها يحدِّق إليَّ من بعيد، فيشيع الرعب بأنحائي. غدًا سوف أسأل عنه أمَّ البنين، ولسوف تَصْدُقني القول، فهي لن تُخفي عليَّ

أمرًا خطيرًا كهذا، وما كانت لتتركني أبيتُ وحدي ليلتها في السيق، لو علمتْ أنه مرتعٌ للجنِّ والعفاريت. هي تخافُ عليَّ.

* * *

جاء زوجي مع القافلة، فلم أفرح. مَنْ جاءوا معه، هم الذين بدَّدوا فراغي، وشغلوا المكان وآنسوه. الناسُ أُنْسُ الوحيدين. جاء مع زوجي عُميرو والنبطيُّ وأخوه المقيم بنواحي الشام، المسافرُ دومًا بزوجتيه. اسمه مالك، ولكنهم يلقبونه صريع العواتك.

أقاموا شهرًا، طويلًا، ثم رحلوا مع قدوم الشتاء إلى اليمن. النبطيُّ لم يذهب معهم، أمه منعته. قال إخوته إنهم يحتاجونه هناك، فقالت إنها تحتاجه أكثر، والجزيرةُ مهتاجة، وهي لا تأمن عليه عبورها. قالوا سنحفظه ونكون حوله كالحماة، قالت: لن يسافر؛ لأن قلبها يحدِّثها بأشياءَ.. فأطاعوها.

* * *

في هدأة الظهيرة، جلستُ في جوار أمِّ البنين وسألتها حين انفردنا، عن الجنِّ. فالتفتتْ نحوي بجانب وجهها، وقالت وهي تنظر إلى بعيد: هو وهمٌ يجده المصدِّقُ به، فاطرحي عنكِ الأوهام. ارتحتُ لكلامها، وأزحتُ عن قلبي الوهم، فانزاح الهَمُّ.

جرى حالي مع زوجي، طيلة هذا الشهر، على منوالٍ واحد. يأخذني في آخر الليل إلى بيتي الجديد، ويعلوني بقدر ما أحتمل

البقاء تحته، ثم يغطُّ بقيةَ الليل وأولَ النهار. كنتُ أسبقه إلى المربوعة، باكرًا، ويلحقني أوان العصر بخيمة أمِّ البنين. وفي آخر الليل، بعد جلسات السَّمَر والشواء، يأخذني وراءه إلى بيتي الجديد.. الأمرُ الوحيد المفيد الذي قام به، هو عمل البوابتين. الأولى التي بأول الدرج، والأخرى التي عند الشرفة. فأصبح بيتي آمنًا من كل خوف.

النبطيُّ سكن المجلس الرابض أمامه كلباه، وكان يجلس في الضحى وقبل الغروب، على حجرٍ مربعٍ أمام الباب المؤطَّر بالنقوش، وحوله على الأرض عُميرو وجماعةٌ من ساكني الخيام التحتانية. أغلبهم شُبَّان. يحكي لهم الحكايات ويتلو عليهم كلماتٍ كالصلوات، يسمونها الأشعار، ويسألونه فيُجيبهم.

جاورتهم أول الأمر على حرفٍ؛ لأسمع بديع كلامه، فما نهاني عن ذلك أحد. بعد يومين اقتربتُ، وأَلِفَ الكلبانِ جلوسي. وبعد أسبوعٍ تشجَّعتُ فسألتُ عن أشياء سمعتها منه ومنهم، فكان يجيبني أو يترك لمن حوله الإجابات. فيوافق على بعضها بهزَّاتٍ من رأسه، أو يستدرك فيضيف من عنده أشياء، ويفيض.. بعدما اعتدت مجلسهم، سألته عن مقصده يوم قال: إن في كل أنثى ذكرًا، وفي كل ذكرٍ أنثى. فأجابني بصوته الهادئ ونبراته الرائقة:

المرأةُ والرجلُ وجهانِ لجوهرِ الإنسان، وكلاهما يقترب من الآخر في ابتداء العمر، وفي أواخره. فالرُّضَّعُ يتقارب فيهم الذكرُ

والأنثى، ثم يبتعدان إذا ما صارتِ البنتُ جاريةً، والولدُ صبيًّا. وينجذبان حين ينفصلان، ويتحرَّقان لحِلِّ الذكر في الأنثى؛ ليكتمل باجتماعهما معنى الإنسان. وقد سُمِّي الذكر، الإحليل، من الحِلِّ. فإذا شاخ أحدهما، عاد بحاله واقترب من الآخر. فتصير العجوزُ كالرجل، وقد ينبت بوجهها الشَّعْرُ. ويصير الشيخُ حنونًا كالإناث، وأُموميًّا مثلهنّ. فكأن العجوز تصير أبًا، ويغدو الشيخُ أمًّا. ويكُفَّان عندئذٍ، عن الاشتياق والتحرُّق.

* * *

كلامه غريبُ المعاني، ولا يُشبه ما يقوله الآخرون. هو ليس كالآخرين، وحين يكون معهم أُحسُّ به كأنه وحيد، وبعيد عن شواغلهم.. ما الذي يشغله؟ أراه أحيانًا أمام المجلس، منفردًا، فأفرحُ بحديثي معه وجوابه عن أسئلتي. هو لا يضيق بالسؤال، ولا يتأخر عن الإجابة، ويصحِّح لي النطقَ بالكلمات.

سألته عن الغرف المنقورة في الجبل، فأجابني بأن المنخفضة منها خزانات يجتمع فيها ماءُ السيل، والعلويةَ كانت بيوتًا أو معابد.. سألته عن صانعيها، فقال: الأجـداد.. هل يوجد المزيد منها؟ نعم، الكثير، وأكبرها خزنة الفرعون.. لماذا تسمونها بذلك؟ لأن المصريين ساعدوا الأنباط في بنائها.. أليس الأنباط هم بناة البرابي التي بمصر؟ بل العكس، فأجدادك أعرقُ من النبط، وآثارهم الباقية أقدمُ من هذه.. كيف عرفتَ؟ رأيتُ الكثير من هذه، ومن تلك.

في طريق خروجي من السيق، كنتُ أختار له من شجيرات التين أطيبَ الثمار، فأغسلها بالماء المطيَّب بالمودَّة، وأحضرها إليه فيأخذها شاكرًا من دون أن ينظر إلى عينيَّ. لو نظر لرأى الكثير. كانت ليلى تجلس معنا أحيانًا، وتشاغبه بالكلام فلا ينـزعج منها، ويجاوبها. هما متشابهانِ في الملامح، لكنهما مختلفانِ في الطباع. في جلسةٍ صباحيةٍ عامرة بالحاضرين، سألت ليلى أخاها عن شيء لا أعرفه:

ـ *لماذا نقشوا فوق البوابات، دَرَجًا متقابلًا؟*

ـ *هذه صورة الحكمة النبطية الخالدة، المخبرة عن دَوَران الحيوات.*

استفسرتُ منها في المساء، فقالت: إن كثيرًا من المباني المنقورة في الجبال المحيطة، منقوشٌ فوق بوابتها درجاتٌ تنـزل إلى أعلى الباب، تواجهها من الناحية المقابلة درجاتٌ صاعدة، مساوية لها، عددها أربعٌ أو خمسُ درجات. فكأن هذه تصعد، وتلك تهبط.. سكتتْ قليلًا ثم قالت: *أظنه للزينة، فحسب؛ مثل بقية الأشكال. فالأجدادُ لم يكن عندهم أحيانًا ما يفعلونه، فيتشاغلون عن الملل، بنحَتِ الجبال، وهذه الصخور هشةٌ على كل حال، ينحتها الحديد إذ حكَّها.*

بعد أيام، كان النبطي يتلو على المتحلِّقين حوله، أشعارًا قال إنها لرجل قديم اسمه سلامة بن جَنْدل. لم أستطع حفظها عنه، وسألتُ

عميرو في المساء أن يعيدها عليَّ، فلم يكن يحفظها. هم يسمون الأشعار، القصائد.. بعدما انتهى النبطيُّ من قراءة القصيدة، ساد الصمتُ لوهلةٍ وسكت الحاضرون، فسنحت لي الفرصة فسألته عن مقصوده بدوران الحيوات. أدهشه سؤالي، وأعجبه، فابتسمت عيناه وأفاض في الكلام فقال:

دورانُ الحيوات هو خلودُ الأرواح بعد فناء الأجساد. ففي حيوةٍ، يولد الإنسانُ أنثى، لتتحقَّق الروحُ بمعاني اللات وأسرار الأمومة. وفي الحيوة التالية، تُولد الروح بعد موت الجسد، في ذكرٍ. كي تستكمل التحقق بمعنى إيل، وتحصِّل أسرار الأبوة. تسكن الروحُ في دوران حيواتها جسم أنثى، ثم ذكر، ثم أنثى. ومن قضى حياته جاهلًا، ذكرًا كان أم أنثى، بقيتْ روحه بعد الموت حينًا، معذَّبةً، لا قدرة لها على الانبعاث من جديد. فتظلُّ هائمةً حتى تتطهَّر مما كان في الحيوة السابقة، وتتهيَّأ للحيوة التالية.. فإن كانت الحياة السابقة شرًّا وظلمًا، بقيت الروح بعد الوفاة حينًا، حبيسةَ صخرةٍ أو حجر. وهذا اسمه الرَّسْخ. وبعد هذا الحين ترتقي، فتحُلُّ بجسم حشرةٍ أو نبات، وذلك هو الفَسْخ. ثم ترتقي إلى جسم حيوان غير آدمي، وهو ما يسمى المسْخ.. وتعود أخيرًا إلى النوع الإنساني، ذكرًا كان أم أنثى، فتصير الروح نَفْسًا إنسانية، وهذا هو النسخ.

ـ ألهذا أشعر حين أنظر في عين المعزاة، أنها تفهمني؟

ـ بل هي تتكلم بلغةٍ غير منطوقة، كانت تتحدث بها في حيوةٍ

سابقة. والأمرُ غير موقوفٍ على المعز، بل ندركه أيضًا في عيون القطط والقردة، وفي كثيرٍ من الحيوان القريب من الإنسان؛ لأن العين مرآة الأسرار.

كان الحاضرون يعجبهم كلامه، وكان يعجبه إعجابهم فيفيضُ أحيانًا، وأحيانًا يوجز.. كان عميرو هو أكثر الحاضرين حماسًا في كل الجلسات، كان يسأل النبطي عن أشياء مدهشة، فيجيبه عنها بأقصر لفظ. سأله يومًا عن سر جمال الفراشات، فابتسم وهو يقول له: هذه أرواحُ الذين ماتوا في الطفولة.

وسألته مرةً عن سرِّ الشعور الذي يغمرني أحيانًا، فجأةً، ويخبرني بأنني عشتُ من قبل، هذه اللحظة بعينها.. يومها تفكَّر النبطيُّ طويلًا، ثم قال بصوتٍ خفيض: *يقع هذا الأمرُ للإنسان، نادرًا؛ بسبب توالي الحيوات وتتالي انتقالات الروحِ في الأجساد والجمادات. وهو سِرٌّ غريب، يتجنَّب الناسُ الخوض في بحاره المغرقة، فيدفعون عنهم هذا الإدراك النادر المفاجئ، ويتشاغلون عنه بالشواغل المتفرقات، المصرفاتِ لأذهانهم عما يصعب فهمه.*

* * *

النبطي يؤكِّد دومًا أنه ليس نبيًّا، مع أن الإلهين يُلهمان قلبَه بالحقائق. وكان كثيرًا ما يشرح أسرار اللغة، ويقول: إن الكلام البليغ ضربٌ من السحر النبيل. *منه شِعْرٌ ومنه نثر، وإذا كان النثرُ*

شعريًّا، فهو أعلى.. قال: النثرُ هو صوتُ اللاتِ فينا، والشِّعْرُ هو هَمْسُ إيل.

في بعض المرات، كان الجالسون حول النبطي يصل عددهم إلى أكثر من عشرة، وكانت ليلى وبعض النسوة يجلسن للاستماع، مُستمتعاتٍ بالصحبة. وكان صريع العواتك يجلس معنا أحيانًا، فيستمع بأذنٍ واحدة، ولا يكفُّ عن إطلاق النِّكات الساخرات. هو يحبُّ المزاح كالنساء، ويحبُّ النساء، ولا يتورَّع عن الحكاية عنهن في جلسات السمر المسائية. حتى إن كانت إحدى زوجتيه أو كلتاهما، حاضرة.

زوجي أقربُ إلى صريع العواتك، منه إلى أخيه النبطي. والنبطيُّ أقربُ إلى أمه، من كليهما. والهوديُّ بعيدٌ عن الجميع. أمسياتُ السَّمر والشواء تجمع بينهم، في معظم الليالي، مع بعض أقاربهم التحتانيين. زوجي وصريعُ العواتك لا يفوِّتانِ أيَّ ليلة، ويُعِدَّانِ المربوعة للسهر، ويبتدئان احتساء الخمر عقيب الغروب، وفي آخر الليل يعُـبَّان منها حتى يسكرا ويصخبا مع الحاضرين.

لأخيه مالك، الملقَّب بصريع العواتك، وجهٌ أبيض سمين وحاجبان دقيقان. لولا لحيته الحفيفة وشاربه الهزيل، لصارت له ملامح امرأةٍ. وهو حين يتكلَّم، يحرِّك مع الكلام حاجبيه وكفَّيه وكتفيه، فيبدو مثل قردٍ كبير أبيض. وهو كثيرًا ما يشاغب الأطفال، ويلاعبهم، ويبتهج معهم.. أظن أنه بعدما يموت، سوف تُنسخ روحه في قردٍ نَسْناسي. سألتُ عُميرو في أُمسيةٍ، عن سرِّ تسمية عمِّه

بصريع العواتك، فضحك وصاح بالسؤال على مسامع المتسامرين؛ فضحكوا جميعًا بمن فيهم زوجتاه.. أخبروني بعدما تحرَّجتُ من ضحكاتهم، أنه كان منذ صغره يلاحق الفتيات والنسوة، ويغرم بهن فتقع مع الغرام المشكلات، لكنه لا يكفّ. وقد عرف من النساء كثيرات، كانت منهن ثلاثةٌ أسماؤهن عاتكة. فصاروا يسمونه صريع العواتك، وصار يقول في حبيباته العواتك شعرًا.. استنشدوه ليلتها بعض شعره، وقد لعبتِ الخمرُ برأسه قبل انتصاف الليل، فراح يُنشدهم وهو يبتسم ويهزُّ رأسه يمينًا ويسارًا:

دَعَتنـي العَـوَاتـكُ وأَخَذَتني المسَـالكُ
فأَنْهكتنـي النوَاهكُ ودهمتـني الهَـوَالكُ

في أول الأمر، لم أكن أفهم الكلام كاملًا. لكنهم كانوا يضحكون منه؛ فأضحك معهم، ثم أستفسر في الصباح عما غمُض عليَّ الليلةَ الفائتة. ويومًا من بعد يوم، صرتُ أفهم ما يتغنَّى به صريعُ العواتك، بيُسرٍ. وأُدرك من فوري مقاصده، كما كان الحال يوم قال:

يـا ليـلُ لا تَقِـلّ ويـا كـأسُ لا تَمِـلّ
فالصبحُ قـد يطُـلّ وبـه الأمـرُ الأجَـلّ

فـامْـرَحْ وبُـحْ
اصْـخَـبْ وصِـحْ
وكُـنْ وَقِـحْ

صريعُ العواتك وقحٌ بالفعل، لكنه خفيف الظل، لا يكفُّ عن الممازحات حتى مع أمِّه، ذاتِ الهيبة في قلوب الجميع. قال مرةً شعرًا لم أفهمه، فلم أحفظه، فنهرته أمه بقولها: *كُفَّ يا مُشيع الفواحش*.. فردَّ عليها بلا تريُّث: *الفواحشُ شائعةٌ يا أمَّ البنين، لكنَّ الطيبين لا يعلمون، ولا يعملون*. قالت له بغضبٍ يسير: *يا ولدي تحشَّم؛ فالنسوةُ حولك والصغار*. فقال وهو يبتسم ويصطنع الخجل: *النسوةُ، طيِّب يا أمي سأسكتُ، ولعلَّ الصغار صغارٌ كما تظنين*.

كانوا يضحكون من كلامه، وكان يضاحك زوجتيه. وبالأخص الأصغر منهما سنًّا، تلك التي اسمها هِنْد؛ لأنها تُشبهه وتسايره في كل ما يقول ويفعل. إن داعبها تدلَّلت، وإن زجرها تنمَّرت، وإن لاطفها تلطَّفت. سألها مرةً على مسمعٍ من الجالسين، عن حال النساء مع الرجال. فقالت: للنساء أحوالٌ على عدد أنفاس البشر، لا تُحصى ولا تُعدُّ، لم يدركها الرجال قطُّ ولن يعرفوها أبدًا، أما الرجلُ فمكشوفٌ وحاله مع المرأة معروف، وهو ابنُ عشرين يشتاق إلى النساء ويُميت بسخونته، فإن بلغ الستين تحنَّن إلى الصغيرات وصار يُميت بسُخفه وبرودته.

ـ وماذا عني يا امرأتي، وقد صرتُ اليومَ في الأربعين؟

ـ يكفيك من النساء اثنتان؛ فلا تطمع في مزيد.

ـ لن أطمع إلا فيك. وسأُبقيكِ تحتي حتى أموت في شيخوختي،

فوق نهديك.

- مُتْ يومها بعيدًا عني يا ابن عمي.

كانا يتشاغبان كثيرًا. وكانت زوجته الكبرى التي اسمها شُقَيْلة، أمُّ الأطفال الكثيرين، تكتفي بتبسُّمٍ باهتٍ من دون أن تُظهر غيظًا أو اعتراضًا.. أمُّ البنين كانت تعترض الكلام، إذا ما جرى بين صريع العواتك وأخيه النبطي. في ليلةٍ قمراء، غاب صريعُ العواتك مع امرأته الصغرى، ساعةً، وعاد إلينا من ناحية السيق، وهو يترنَّم مُستهترًا بكلامٍ لم أميِّز منه غير كلمات: سحر النساء.. المساء! جلس وألصق ركبته عامدًا بأخيه النبطي، فتزحزح عنه كيلا يلمسه. ضحك صريع العواتك بفحشٍ، وهو يقول له: *ما خطبك يا أخي، ألا تطيق مَنِ التصق بأكباد النساء؟ فما معنى الذكورة إذن؟ وما قيمة اليد إن لم تمتد، والأقدام من دون الإقدام، والذراع لمن ليس له باع؟*.. سكت النبطيُّ وترفَّع عن مجاوبته، فعاوده صريع العواتك بالكلام السخيف، ثم سأله: *وما الذي يؤخِّرك عن الزواج، وما المانعُ؟ أريد أن أعرفه.*

- سوف تعرفه يا مالك، حين تعرف الفارق بين قضاء الوَطَرِ وقضاء الحاجة.

- يا نبطيُّ كله قضاءٌ في قضاء، فاقضِ لنفسك مأربًا من النوال الملطَّف، وكُفَّ عن هذا التحنُّف.

نهرته أمُّ البنين بقولها الصارم: كُفَّ عن أخيك، ولا تشوِّش

عليه. فردَّ صريعُ العواتك وهو يضحك: *أمرُكِ يا أمَّ البنين والبنات والأحفاد*.. صباح اليوم التالي، سألتني أمُّ البنين إن كانت لي أختٌ تُشبهني، فقلت إنني وحيدة. سألتها عن سرِّ سؤالها، فقالت وهي تهمس: *أودُّ لو يتزوَّج النبطيُّ؛ لأرى أحفادي منه.*

* * *

مَرَّ الشهرُ سريعًا، وتهيأوا مع دخول الشتاء إلى رحلة اليمن، قالوا إنها قد تمتد بهم لثلاثة أشهر، فما اهتممتُ. في الصباح الباكر رحلوا، وبقي النبطيُّ في مسكنه، ودامتْ مجالسه التي تعلَّمتُ منها الكثير. عميرو أراد البقاء، فضربه أبوه بخشبةٍ عتيَّةٍ شجَّتْ رأسه، وأخذه معه. ترك صريعُ العواتك زوجته الكبرى وأطفالها، واصطحب الصغرى لتزور أهلها الساكنين في ناحية بعيدة، اسمها نجران. ليلى ذهبت معهم لزيارة إخوتها القاطنين في وادي رَمّ، وعادت إلينا بعد أسبوعين، ففرحتُ بعودتها.. زوجي جاء فلم أفرح، وذهب فلم أحزن.

صرتُ أجلسُ ساعاتٍ مع المتحلِّقين حول النبطي، فأسمع معهم ما يقولُ، وأسمعُ معه ما يقولون. صرت أحفظ الأشعار التي يردِّدونها أمامي، بسهولة، وإذا غاب عني المعنى الكامن خلف بعض الكلمات، أسأل عنه النبطيَّ في اليوم التالي، قبل مجيء الباقين، فيخبرني متعجبًا من قدرتي على حفظ ما لم أفهمه، ويبتسمُ.. ابتسامتُه رائقةٌ، وعيناه دومًا هادئتان.

يحضر معنا المجالس رجلٌ من أقاربهم التحتانيين، اسمه صاعد بن تيم اللات، هو أكثر الناس سخفًا ولزوجة. لا يكفُّ عن التلفُّت، وعن الأسئلة الشبيهة بوجهه المكشوف. يسأل النبطيَّ ونحن حضور، عن أشياءَ محرجةٍ، فيجاوبه النبطيُّ بلسان الخجل. في مرةٍ سأله: لماذا يريد الرجلُ لو ينال كل النساء، ولعل النساء كذلك يشتهين مضاجعة كل الرجال؟ فقال النبطي: الواحد لا يحب إلا واحدًا، ومن ضاجع امرأتين فهو يخونهما معًا، في قلبه. والحال كذلك في النساء، فهنَّ شقائق الرجال.. وفي مرة أخرى سأله: لماذا ينجذب النوعُ إلى نوعِه، باللواط والسحاق؟ فنظر إليه النبطيُّ بغير رضا، وقال: هذا انجذابٌ إلى النوعِ المختفي في الآخر، فاللوطيُّ يطلب الأنثى التي في الذكر، والسحاقية تطلب الذكر الذي في الأنثى. وهو على الحالين، انجذابٌ مذموم.

وتيمُ اللات هذا، عيناه جريئتان. يتلفَّت دومًا إليَّ، ويحدِّق نحوي بنظرةٍ أعرفها، ولا أحبها. ثم صار يُميلُ لي رأسه ببلاهةٍ، ويبتسم كالمعتوهين وهو يطلب مني كل حينٍ شربةَ ماء، أو حفنة بلح، أو أيَّ شيء مثله، سخيف. وإذا مددتُ له ما طلب، يتعمَّد أن يخمش ظاهر كفِّي بأظافره. صار يضايقني، فصرتُ أحرص على الجلوس بعيدًا عنه، أو إلى الخلف منه. لكنه كان يغيِّر موضعه، أو يتزحَّف عنه بحيث يراني، ثم يجد الحجج الواهية لمحادثتي.. كدتُ أحرم نفسي من الجلوس معهم؛ فرارًا من مُلاحقته، لكنني بعد مرَّة

واحدةٍ قضيتُها في المربوعة، أنظرُ إليهم من بعيد، لم أستطع الصبر. ذكرتُ أمره أمام ليلى، فلم تهتم، فقلتُ في نفسي: لن يجيرني منه إلا النبطي. ساعةَ العصر سألته عن معنى تيم اللات، فقال: وهب اللات وأيم اللات، وتيم اللات، أسماء تشير إلى فَضْل الرَّبة. قلتُ: فلماذا لا يتسمَّى الناس عادةً، عبد اللات؟ فقال ما فحواه: إن الربة واهبةٌ مانحةٌ، تُريد من الناس أن يعرفوها ولا تحتاج أن يعبدوها. قلت: إن الرجل المسمى تيم اللات لا يستحق اسمه؛ لأنه يضايقني بملاحقة عينيه وحماقة نظراته وطلباته الدائمة؛ فقال: *لا عليكِ منه فإنه جاهلٌ، ولا أظنه يعاود ذلك ثانيةً.. فكان الحال بعدها، مثلما قال، فعدتُ أهنأ بجلستي معهم من غير ضيقٍ ولا اضطرار.*

* * *

ذات يوم، قبل الغروب، لمحتُ النبطي جالسًا وحده عند التلة البيضاوية، وبالقرب منه هدهدٌ ينقر في الأرض. حطَّت ثلاثة هداهد، أخرى، فقمتُ إليه حتى إذا اقتربتُ، طارتِ الهداهدُ فتابعها بعينيه.. أخبرته بُحبي القديم للهدهد، وهيامي بمنظره حين يمشي وحين يطير، فقال: إن الإنسان منَّا إذا أحبَّ في حياته، وهام بالعشق ومات على تلك الحال، بُعث من جديد هُدهدًا.. فالهداهدُ أرواحُ المحبين.

خَزْنَةُ الفِرْعَوْنِ

الشتاءُ هنا طويلُ الليل، شديدٌ بردُه. يقولون: إن البرودة قد تشتد ليلًا بأعالي الجبال؛ فتفتك بالناس وتُسقط أصابع أيديهم وأقدامهم. هم يقولون ذلك، ويؤكدونه، لكنني لم أرَ أحدًا سقطت من البرد أطرافه. كنتُ الأشهرَ الماضية أمضي الأمسيات مع النسوة في خيمة أمِّ البنين، وأنام هناك في الليل والظهيرة. وكنتُ أقضي الصباح والعصر عند باب المجلس، فأقعدُ بين الجالسين والجالسات؛ لأسمع النبطي وأسأله، ويجيب. بعدما عادت ليلى من وادي رَمّ، ومعها هدايا كثيرة، صارت تجلس معنا، وتسمع باكتراثٍ قليل. هي تعرف الكثير من كلام أخيها، وتفهمه بيسرٍ، لكنها لا تهتمُّ ولا تستهين.

جلبتْ ليلى من وادي رَمّ، عَسَلَ الجُلَّاب والدِّبْس الذي هو عندي أحلى الطعوم. كانت تعطيني من هداياها في المساء، بعدما ينام الأطفال، فنمرحُ مع أكل الحلوى. سألتها كيف يصنعون هذا الدِّبْس فقالت: *يعصرون العنب الحلو، ويتركونه على النار حتى*

يجفّ ثُلثاه، فيصير الثلث الباقي دِبْسًا لذيذًا.. أحبُّ العنب، لكنَّ الدِّبْس أحبُّ عندي.

مضتِ الأيامُ هادئة، ثم انقلب الحال قبل عودة القافلة بأسبوع، فقد قالت لي ليلى إن أخاها النبطي سوف يسافر بعد أيام إلى أرض العراق، وقد يغيب هناك شهورًا. بكيتُ في تلك الليلة تحت لحافي، وفي الصباح تورَّمت عيناي. نَعْسةُ أخبرتني بذلك وأكَّدت المرآة، فقلتُ إن عيني رمدتْ؛ بسبب لسعة زنبور.

بعد يومين أخذتني ليلى، عصرًا، لنجلس فوق المصطبة الحجرية العالية، المطلة جنوبًا على السهول والوهاد والتلال. هي تحب الجلوس هناك، حين ينكسر ظل الشمس الغاربة خلف الجبال. صَعِدَتْ كالمعز، وبخفَّة الغزلان، فارتقتِ المصطبة، وأخذتْ بيدي فصعدتُ إلى جوارها. ما كنتُ أودُّ التكلُّم، فبقيتُ ساعةً صامتةً حتى سألتني إن كنت حُبلى، فنفيتُ.

ـ وماذا يؤخِّركِ يا مارية؟

ـ لا أعرف.

ـ فكيف حالكِ مع سلومة؟

ـ بائسٌ يا ليلى.

ضحكتْ بدلالٍ أصيل، فبدت أسنانها المصفوفة اللامعة، ثم نظرتْ في عيني بعطفٍ حنون، فانفجر رغمًا عني البكاء.. أخذتني

إلى حضنها حتى هدأتُ، ثم راحت تحكي لي الحكايات، لتصرفني عما أعانيه. حكتْ لي عن ديار إخوتها في وادي رَمّ، وعن الأطفال والنساء. وأخبرتني باسمةً، بأنها أول ما أحبَّت، كان فتىً يعيش هناك. هي لا تزال تذكره، وتراه كلَّما زارتِ الديار. وهو لم يتزوَّج إلى اليوم، مع أنه يعرف أنها تزوَّجت مرَّتين.

في جلسة تالية، بعد يومين، همست لي بأنها عرفت من الرجال كثيرين، أزواجًا وعشاقًا. سألتها عن الحبيب المقرَّب، فقالت وهي تضحك: كلهم اقتربوا وكانوا مقربين.. لا أفهم أحيانًا، إن كانت ليلى تمزح، أم تحكي الحقيقة. كان الجوُّ يومها حارًّا خانقًا، على غير المعتاد منذ أيام، فخلعت ليلى ثوبها وتمدَّدت عليه وهي تقول: لن يرانا أحد، ونحن هنا. لها جسمُ صبيةٍ، ذاتُ قَدٍّ جميل. سمرةُ جلدها لامعةٌ، وعلى صدرها عصفورتان نائمتان. تمدَّدتْ بجانبي وتوسَّدتْ ذراعها اليسرى، وبلا سبب قالت لي: إن الإنجاب يرهِّل بطون الأمهات، والرضاعة تُذهب بهاء صدورهن. سكتتْ لحظةً، ثم أكملتْ فقالت: إن أجمل ما في المرأة صدرها، وهو الذي تتميز به النساء. فالمرأة في صغرها، ولصغر صدرها، تُسَمَّى كاعبًا. لأن صدرها يكون بحجم كعبيها. فإذا نهد صدرها وقام كفرخيْ حمام، فهي ناهد. وإن أرضعت وارتخى ما كان نافرًا، فهي ذات الأثداء. وإن هرمت، فهي صاحبة جرابين من الجلد، خاويين.. أدركتُ أنها تحكي أيَّ شيء؛ كي تواسيني، فسألتها إن كانت تعرف دواءً

لرائحة أخيها، فأخبرتني بأنهم عالجوه من البَخَرِ بسفوفاتٍ قوية، فما نفعتْ. فالداء في بطنه، لا فَمِه.

ـ *وما الحلُّ يا ليلى؟*

ـ *سأُداويكِ أنتِ.*

قامت بهمَّة، فنـزلنا من فوق المصطبة الحجرية، وتركتني عند الخيمة وذهبت إلى الخيام التحتانية. عادت في المساء بكيسٍ صغير، فيه مسحوقٌ غريبُ الرائحة. دسَّته في يدي، سرًّا، وهي تهمس: *عند الحاجة، ضعي منه اليسير في أنفك، فينقطع عنك الشمُّ ساعات*.. في اليوم التالي، تنشَّقتُ المسحوق وتشمَّمتُ أشياءَ كثيرة، فما شممتُها، مع أنها بهاراتٌ نافذةُ الرائحة.

* * *

جاء زوجي وأخوه، مع القافلة، وجاء وراءهم أناسٌ كثيرون، مساكين، سكنوا خيامًا بائسة نصبوها في الأرض الوطيئة المسماة الخور. وكان معهم أخبارٌ كثيرة، اهتم بها الهوديُّ وأُمُّ البنين، فكانتِ الأمسيَّات عامرةً بالحكايات. قالوا: إن النبيَّ القرشيَّ كَفَّ عن حرب اليهود، ويريدُ حرب الفرس والروم. النازحون الذين سكنوا الخور، يهودٌ فروا من قلب الجزيرة، وسوف يلحق بهم يهودٌ كثيرون، يفرون من المقتلة الهائلة التي تجرى في نواحي الشام. الرومُ يريدون إبادتهم؛ انتقامًا منهم، وعقابًا على معاونتهم الفُرس الذين انهزموا. أختهم المسمَّاة وحشية، أنجبتْ ذكرًا أسماه

أبوه رؤية، فصار لديها أربعة بنين وابنتان. استولى هرقل بجيش الروم على كل البلاد الخضراء، وما عاد يفكر إلا في الزواج بابنة أخته، ويقال إنه تزوجها فعلًا على الرغم من أنف المعترضين من رجال الدين. أسلم مزيدٌ من رجال قريش وصاروا مع النبي، فصيَّر اثنين منهم أمراءَ حرب. الأولُ فارسٌ معروف اسمه خالد بن الوليد، والآخرُ الذي قابلناه بناحية القلزم. اسمه عمرو بن العاص السَّهمي. الزراعةُ في اليمن لن تصلح هذا العام؛ لاضطراب أحوال الناس وكثرة الحروب. مارية، الصبيَّةُ التي أخذها من مصر شريكُهم حاطب، تزوَّجها النبيُّ القرشيُّ وأهدى أختها الصغرى لصاحبٍ له. أهلُ الطائف يتوقعون غزو النبيِّ القرشيّ.. أمُّ البنين انتبهت إلى الخبر الأخير، واهتمتْ به. نبَّهني عُميرو إلى أن جدته من ثقيف، وهي قبيلةٌ كبيرةٌ تسكن الطائف؛ حيث الكعبة الكبرى للإلهة اللات. هكذا قال لي، هامسًا، وقال الهوديُّ وقد بدا مرتاحًا: إن اليهود الذين سكنوا الخور معظمهم نساءٌ وأطفال، والذين سيأتون ويسكنون معهم، أناسٌ طيبون مثلهم. ولا شأن لهم بالفرس ولا بالروم.. قالت أمُّ البنين، بصوت هادئ:

ـ لكنك أسكنتهم الخور، فماذا لو أغرقهم السيلُ إذا اجتمع ماؤه هناك؟

ـ السيل لم ينـزل منذ سنتين، والنجاةُ من الماء أهون من التعرُّض للسيف.

قال عميرو: إذن سيكون عندنا، خدمٌ كثيرون.. ضحكوا من

قوله، ولم ينهره أبوه. قال صريعُ العواتك مازحًا: لا بُدَّ أن أزورهم غدًا، فأرحِّب بالجميلات من النساء، وأختار لي منهن واحدةً.

ابتسم الهوديُّ على غير عادته، وهو يحرِّك النار بغصنٍ يابسٍ طويل، فالتهبتِ الجمراتُ وسرى دفءٌ لذيذ. رمى الغصن فوق الجمر، وهو يقول إنه اختار لعميرو فتاةً يهوديةً ليتزوَّجها، فصاح عميرو: لا أريد. ضحكوا جميعًا، وضحك الهوديُّ معهم، فقال له زوجي: *أخيرًا رأيناك تضحك، بعد سنين، مع أن عمتي بسّ كانت تقول إنك في صغرك، لم تكن تبرح الضحك والمرح*.. هَزَّ الهوديُّ رأسه، وعاوده الأسى وهو يقول: *كان ذلك في زمنٍ بعيد، وقد صارت أيام الفرح نادرة*.. هَزُّوا رؤوسهم موافقين، ودعا له صريعُ العواتك بطول العمر، وتزويج الأبناء والأحفاد. للهوديِّ عند إخوته وأبناء عمومته، شأنٌ مخصوص. وهم يتحشَّمون منه، بأكثر مما يحتشمون أمام أمهم، ولا يشربون الخمر أمامه توقيرًا له. أم البنين سألته عن أُمِّ عياله، فقال إنها بخير وسوف تأتي للعشاء معنا، بعد قليل.

وفي الصباح قلتُ لأم البنين إن عميرو صغيرٌ على الزواج، فنظرت نحوي بحنوٍّ وهي تقول إنه لم يعد صغيرًا، فهو يكاد يبلغ السادسة عشرة من عمره. في الظهيرة سألتُ عميرو عن عروسه، فقال إنه لن يتزوَّج منها ولا من غيرها، وقام من المربوعة كأنه غاضبٌ من الأمر.

عميرو يريد أن يتحنَّف مثل عَمِّه النبطي، فلا يقرب النساء. أبوه احتال عليه، وأخذه مرتين إلى خيام اليهود، فهدأ. ثم صار يذهب إليهم، وحده، ويقضي النهار هناك.. يوم العرس، رأيت الفتاة لأول مرة، ففهمت سرَّ اختلاف الحال. البنت فاتنة، تَسْبي العقول بطلعتها، وتَسُرُّ القلوب. اسمها سارَّة. أمُّها مثلها بيضاء كالإِوزَّة، وجميلة، لكنَّ أباها نحيلٌ ضئيلُ الجسم، له رأسٌ طويلٌ يشبه رؤوس النعاج الصغار.

سألتُ الهوديَّ إن كان مالي لا يزال معه، لأعطي عميرو عشرة دنانير؛ هديةً للزواج. فقال إن مالي صار الآن ثلاثة وثمانين وثلاثمائة دينار؛ وربما يربح المزيد في رحلتهم القادمة؛ لأن الأحوال هادئة في مصر وأطراف الشام. هكذا قال. ثم نصحني أن أعطي عميرو خمسة دنانير فقط، فالعشرة كثير. وجاءني بالخمسة.

شَغَلنا عُرس عميرو أسبوعًا، جرى فيه ما جرى أيام عُرسي. غير أن العروسين كانا أجمل، وحالهما كان أبهج. دخل بها عميرو، وهو الولدُ الصغير، في حجرةٍ عالية من تلك المنقورة في السيق البارد. لم يصعد معهما أحد، عميرو وهو الولد الصغير، قبَّل عروسه وهو يصعد بها الدَّرَج، والناسُ ينظرون ويتهلَّلون. بعد ساعةٍ أطلَّ على الناس، من علٍ، وهي بجانبه سعيدةٌ وقبَّل عروسه ثانيةً فانفلتت إلى داخل الحجرة، وأسرع هو في أثرها والأهل كلهم يضحكون.. وكان الهوديُّ يضحك.

سكر زوجي ليلتها مع ضيوف العرس، ونام، في خيمتهم. ليلى، وحدها، شعرتْ بما فيَّ من الأسى، فجالستني عند سقيفة اللات، إلى أن بدتِ الشمسُ من خلف الجبال البعيدة. ونامت بجانبي، في الخيمة المغلقة، حتى الظهيرة. وحولنا نساءٌ وأطفال كثيرون، من الأهل ومن ضيوف العرس.

الليلُ في الشتاء أصفى من الصيف، ولا غبارَ في أجوائه بالنهار. كان عميرو ينـزل في المساء ساعة، ويأخذ أول المشويِّ من اللحم، ويختفي. وكانت مجالس السَّمَر صاخبةً، عامرة.

هدأتِ الناحية بعد العرس بأسبوع، لكن جلسات المساء امتدت. كان صريع العواتك ينشدهم أشعارًا غير هزلية، وهم ينصتون وكنتُ جالسة بطرف المربوعة، وحيدة أتسمَّعُ ما يهمس به باطني.. حين فاحت في الأجواء رائحةُ الشواء، عوى من بعيد ذئبٌ يجوع، فما اهتموا بعوائه الذي بدا لي كالعويل. الكلابُ اهتمَّت.

ناداني زوجي، فقمت إليهم وجلست بينهم حول نار الشواء.. قمرُ الليلة بدرٌ تام، أشرق لحظة الغروب، فإذا انتصف الليل انهمر ضياؤه الفضيُّ على التلال المقابلة والجبال. الصخور التي عند المنحنى الداخل إلى السيق، بدت لي في ضوء القمر مثل وجوهٍ كبار، مكوَّمة، تشخص نحو السماء. انتبهتُ من شرودي، حين مَدَّ زوجي يده فوضعها على فخذي اليمنى، من حيث لا يشعر بنا الساهرون. غطيتُ نفسي ويدَه، بستر رأسي، وليتني ما فعلتُ. تزحَّف بأصابعه

إلى مكمني، وراح يعبث فيه من تحت السِّتر بأطراف أصابعه، فبقيتُ مبهوتة لا أسمع ما يقولون، ولا أرى إلا ألسنة اللهب ودخان الشواء. سحب يده ببطءٍ، لحظة سأله الهوديُّ عن رجلٍ يعرفانه، فأجابه زوجي بأنه رآه في رحلته، ووجده بخير.. أردتُ أن أشاركهم الكلام، فسألتُ بصوتٍ مسموع، عن سبب وجود الجبال في بعض النواحي، وانعدامها في نواحٍ أخرى. فنظروا إليَّ مستغربين السؤال، وحكَّ الهوديُّ ذقنه بإصبعه اليسرى، وأجابني: *الأصل في الأرض أنها منبسطة، وكانت في البدء خربةً وخالية، فجعلها الربُّ جنةً خضراء وخلق فيها آدم، ولم يشأ أن يتركه وحيدًا، فاستلَّ من ضلوعه المرأة التي أنجبت منه بعد حين. لكن المرأة، حواء، عصتِ الربَّ وخانت زوجها آدم، بأن تحالفت مع الشيطان. ومن يومها والنساءُ تخون..*

كلامه لم يعجب أمَّ البنين، فقامت متثاقلة إلى محلِّ نومها، من دون أن تقول شيئًا. سكت الهوديُّ برهةً حتى قامت، ثم استكمل الكلام وهم ينصتون: *غَضِبَ الربُّ على آدم؛ لأنه أطاع امرأته ولم ينتبه إلى خيانتها، وأكل معها من شجرة المعرفة. فخشي الربُّ أن يستمرئ الإنسان الخيانة، ويأكل من شجرة الخلود أيضًا، فيبقى حيًّا للأبد كواحد من الآلهة، ويحارب الربَّ إذا ما تكاثرت ذرية الإنسان وصارت خالدة. غضب الربُّ بشدة، وتنفَّس نارًا كعادته عند الغضب، فأحرقت أنفاسُه بقاعًا كثيرة في الأرض، وصار الطين رملًا والخضرة اصفرارًا. وطرد آدم وامرأته إلى البقاع التي*

صارت صحراء، فتكاثر الإنسان وراح يفعل الشر في عين الرب. وكلما مات واحدٌ من البشر، دفنوه في الأرض فتضطرب من معاصي المدفون، وتكاد تنفطر لتلفظه. ومثلما يجفُّ الفطيرُ في النار، جمدتِ الأرضُ فصارتْ صخورًا، تقبَّبَتْ فأطلتْ من تحت السطح. فالجبالُ تجاعيدُ تطلُّ برؤوسها من باطن الأرض، كلما دُفن فيها إنسانٌ كثير المعاصي. فتُمسك الجبال صفحة الأرض كيلا تميد، وكأنها المسامير الكبار، وتعلو ببطءٍ فتزيح السهول وتعلو فوق التلال. وهي ترتفع كل عام بمقدارٍ ضئيلٍ، لا ننتبه إليه لقِصَر أعمارنا بالقياس إلى طول الزمان.

- وماذا يحدث يا عمَّاه، حين تمتلئ الأرض جبالًا؟

سأل واحدٌ من الصبيان، أظنه بكريَّ شُقيلة وصريع العواتك، فأشاع سؤاله الحماس في قلب عمِّه. انهمك في الجواب بعدما ترك على النار، قطعةَ اللحم التي كان يأكل منها، ليكمُل شِواؤها.. قال الهوديُّ: إذا اكتمل قيامُ الجبال. فلم يبقَ في الأرض سهلٌ واحدٌ، سوف تأتي ريحٌ ساخنة تستمر شهورًا حتى تتيبَّس الزروع وتجف من الأرض المياه، وسوف يتقاتل الناس ويكون جوعٌ في الأرض، فيهلك معظمُ الناس من شدة الأهوال ويكفُّ الباقون عن المعاصي، وعندئذٍ ينـزل من السماء الماشيحُ المخلِّص؛ ليملأ الأرض عدلًا بعدما امتلأت جورًا، ويصيِّر اليهودَ أبناءَ الرب، ملوكًا على الناس أجمعين.

ـ *كيف تكون ملكًا علينا، وأنت أخونا؟*

ـ *ذريتي يا مالك، هي التي ستكون ملوكًا على ذريتكم. حين يأتي الأوانُ.*

تمَّ الشواءُ وانخفض الدُّخانُ، فقامت ليلى لتُحضر أرغفة. تركتها حينًا فوق اللحم المشوي، ثم وزَّعت على كل واحدٍ من الجالسين رغيفًا مطويًا، فيه قطعةٌ كبيرة من اللحم أو قطعتان. وضعتْ بعض القطع في ماجور صغير، وغطتها بثلاثة أرغفة، وغطتهم بقطعة من قماش، وتركت الماجور بيني وبين زوجي؛ كي نأخذه معنا وقتما نقوم. لكنه لم يصبر، واستلَّ قطعة لحم مضغ منها بالتذاذ، وهو يقول لأخيه الهوديّ ممازحًا: *لكنَّ ذريتي ستكون من مصرية، فكيف تحكمهم ذريةٌ من الأنباط؟*

ـ *بل تحكمهم ذريةُ اليهود، كما حكموهم في زمن يوسف بن يعقوب، أيامَ كان الحكم للأنبياء.*

* * *

أمضى زوجي هنا شهرين، طويلين، ثم سافر إلى مصر مع قافلة كبيرة. بقيتُ الشهرين فاقدة الشَّمِّ، حتى كاد المسحوق ينفد. قبل سفره بيومين، سألتني أمُّ البنين عن حال الحبَلِ، فقلتُ: لم يحدث. قالت لزوجي: خذها إلى الكنيسة كي يباركها الكاهنُ، ثم خُذها إلى معبد اللات لتباركها الكاهنةُ.

في الصباح علَّق زوجي الصليب برقبته، وخرجنا على حمارين، وخلفنا حمارٌ ثالث يحمل الهبات. اجتزنا المربع وملنا يمينًا من عند حجرتي الحجرية الأولى، ومضينا والجبالُ عن يسارنا، حتى انحرف بنا الطريق يمينًا، وهبط إلى ناحية الخيام التحتانية، ودار حولها من بعيدٍ ثم سار بنا إلى ناحية الجنوب.

مررنا من عَلٍ، على خور اليهود المنخفض من جهة اليمين، فرأيتُ بؤسهم من قريب. نساؤهم يغزلن على النول في ظل الخيام، وأطفالهم لا يصخبون كبقية الأطفال.. اليهوديات لا يلبسن إلا السواد، ويضعن ستور الرأس الحاجبة لجانبي الوجه. وكلُّهن حزينات.

اقتربنا بعد حينٍ من المسير، من جبالٍ عالية ناحية اليمين، ثم درنا مع الطريق، صاعدين، حتى وصلنا إلى الكنيسة بعد ساعة سير. هي بناءٌ مستطيلٌ يقوم على ربوة، على يسار الداخل إليه مغطسُ التعميد، وإلى اليسار كنيسة كبيرة مبلَّطة، مرسوم على بلاطها أسماكٌ ملونة، وتصاوير تُشبه التي في سقف بيتي. التي هنا أجمل. الكاهنُ يسكن بيتًا يجاور الكنيسة، من الجهة اليمنى. نادى عليه زوجي، وجلسنا ننتظره عند الباب، فجاء في جلبابٍ أبيض، يزهو صدره بصليبٍ ذهبي. هم يسمون الكاهن هنا كهنو؛ لأنهم دومًا يُلحقون الواو بالأسماء. عُمير يقولونه: عميرو، وعُمر: عمرو، وقصي: قصيو. تهلَّل الكاهنُ لما رآنا، وانشرح حين أعطاه زوجي

نصف الهبات. جلسا على الدكَّة الخشبية يتحدثان، وجلستُ على الأرض مستترةَ الوجه.

- *لم أرك يا سلامة منذ زمن. كيف حال أمِّ البنين والأهل جميعهم؟*

- *بخير يا سيدنا، كلنا بخير. لكنْ أمُّ البنين تخشى أن تكون امرأتي هذه، عاقرًا.*

- *بل تكون ولودًا بمشيئة الربِّ، وفاطمة.*

قرأ عليَّ الكاهن صلوات، وباركني، بينما الحرُّ يخنقُ من خلف السِّتر أنفاسي. شكره زوجي كأن المراد قد تمَّ، ثم قام فقمتُ خلفه. استبقاه الكاهن حتى يأتينا بحلوى وماءٍ بارد، ولم يقبل اعتذار زوجي بأننا نتعجل العودة. ذهب إلى بيته المجاور، ليحضر ما يسمونه هنا القِرى، فكشفتُ وجهي إلى أن يعود.. رأيتُ في بطن التلة بيتًا مطموسًا بالرمال، فيه غرفتان، بابه مخلوع. بدا البيتُ بائسًا، ومهجورًا، فسألت زوجي عنه بقصد كسر السكون، فلم يعرف. حين جاء الكاهن بالماء والكعك، سأله: لماذا لا تستغل الكنيسة هذا البيت المغمور بالرمال؟ فهزَّ الكاهنُ رأسه بأسىً، وهو يقول مالم أفهمه: في هذا البيت، سكن الأسقف نسطور قديمًا، حين نفوه إلى هنا.

قمنا من عند الكنيسة، وركبنا الحمارين ومضينا تحت شمس الظهيرة اللاهبة، فكشفتُ على الطريق وجهي من دون أن أستأذن..

أمام ربوة الكنيسة جبالٌ محفور فيها قصرٌ كبيرٌ جدًّا، أمامه درجٌ كثير، وفي ثنايا تلك الجبال بيوتٌ منقورةٌ في الصخر، تشبه بيتي وما حوله من حجرات السيق البارد، لكنها هنا أكبر بكثير.

سارت بنا الحميرُ من فوق الربوة، ثم دارت بنا الطريقُ إلى جهة اليمين، حيث الجبال، وانخفضت رويدًا فنـزلنا بين رملٍ وأحجارٍ، حولها أحجارٌ وتلال، خلفها تلالٌ وجبال. كأن هذه الرمال التي نسير عليها، مدخلٌ. ولكن لا شيء أمامها، إلا الجبال. ناحية اليمين، تقف كعبتان كبيرتان من الحجر الأبيض، تحتهما بين الأوتاد الحجرية الأربعة الرافعة لصنم اللات، حفرةٌ نظيفة قال زوجي: إن اسمها الغبغب.. اقترب هو من ذلك الغبغب، ووضع فيه الهبات الباقية على ظهر الحمار، وعاد فأنزلني عن حماري وهو يقول: لن ندخل السيق الكبير راكبين.

السيق الكبير، كبيرٌ جدًّا، وطويل مهيب. هو شَقٌّ عجيب بين الجبال، طوله يزيد على مائة قصبة، وأرضه رمال ناعمة تنغرز فيها الأقدام. على جانبيه نقوش في الحجر ومسارب ماء وتماثيل، أشار زوجي إلى أحدها وقال: هذا هو الإله، ذو الشرى. استطال السيق حتى ساءلتُ نفسي متى ينتهي، وإلى أي شيءٍ سيكون بعد هذه المنحنيات منتهاه.. فجأة، انكشف أمامي فناءٌ، فيه بناءٌ هائلٌ منقورٌ في بطن جبل عالٍ. له طوابق ثلاثة، شاهقة العلو، وحوله أعمدةٌ عند رؤوسها نساءٌ جميلات، عاريات. بأعلى البناء مثلث

عريض، كالذي فوق بوابة المجلس، لكنه أكبر منه بكثير. تركني زوجي مشدوهةً بالمنظر، وتقدَّم إلى هذا النقش المهول المسمى خزنة الفرعون؛ لأن تحته خزائن ماء بالغة الاتساع، كان الفراعين العمالقة يشربون منها.. زوجي قال ذلك، ولم أُصدِّقه.

جلستُ على الأرض، في الظلِّ، وتقدَّم زوجي إلى الخزنة وهو يصيح: يا أمَّ الأسرار.. في مدخل الخزنة درج قليل، فوقه غرفةٌ فسيحةٌ، مفتوحةٌ، ومفتوحٌ عليها غرفتان كبيرتان، متقابلتان. تحت المدخل دَرَجٌ نازلٌ إلى خزائن ماء، وبأعلاه أعمدةٌ من فوقها أعمدة، على جانبيها تماثيل نساء جميلات، لم تسنح لي الفرصة كي أراها جيدًا، فقد انخطف قلبي حين صرختِ امرأةٌ عجوز، خرجتْ من الغرفة اليمنى، وهي تصيح بصوتٍ رهيبٍ ردَّدت الجبالُ من حولي أصداءه: ماذا تريد؟

ـ *أنا سلومة ابن أُمِّ البنين، ومعي امرأتي.*

ـ *اجلس هناك، عندها، سوف أخبر الأمَّ الكبيرة.*

كأن المرأة الصارخة عاريةٌ، وجسمها النحيل يغطيه شعرها. لم أتأكد من ذلك إلا بعد برهةٍ. جاء زوجي فجلس بجواري وسكن، حتى زعقتِ المرأةُ من وراء الحجرات مناديةً: اقدُما، ستراكما الأمُّ الكاهنة.. قام زوجي، وسرتُ وراءه خطوات حتى دخل بي إلى قلب الغرفة الوسطى الفسيحة. ما هذا المكان؟

خرجتِ الأمُّ الكبيرة الكاهنة، عاريةً تمامًا، ومن خلفها امرأتان مثلها. هي عجوزٌ نحيلة، يتدلَّى من صدرها جرابان خاويان، وشعرها المنفوش يغطي جانبي وجهها، ومعظم جسمها، لكنَّ بطنها مكشوف وساقيها. لها هيئةٌ تخيفُ، وتبعث الرهبة في القلوب. حتى زوجي، جلَّله الخشوع فجلس ووجهه إلى الأرض، وبدا متأثِّرًا كأنه على وشك البكاء.. وهي تسحب عن رأسي الستر الأسود، وتلقيه على الأرض، قالت لزوجي: كيف حال الغالية؟

ـ *بخير، تُهديكِ التحية. وهذه امرأتي..*

ـ *اسكتْ.*

صرختْ فيه الكاهنةُ فارتجفنا، وناحتِ المرأتانِ من خلفها بكلامٍ لم أفهمه. تقدَّمتِ الكاهنةُ وحدَّقت نحوي حتى خِفتُ عينيها النافذتين. مدَّت أصابعها الجافة كالأغصان الخريفية، ورفعت ذقني كي أنظر إليها، فنظرتُ مرتجفةً. احترتُ من نفاذ عينيها في عينيَّ، وارتعدتُ من غوصها في داخلي، ثم انتفضتُ من حدَّةِ نبراتها وهي تقول لزوجي، وقد راح صوتها يعلو حتى صار صراخًا يتردَّدُ في الأنحاء صداه: *قُمْ وارحلْ يا بائس، يا مسكين.. هذه ليستِ امرأتك.. أنتَ لا امرأة لك.. لا بنات ولا بنين.. وقد سَبَقَ السيفُ السكين.. وسوف تأكلُ النارُ كُلَّ عجوزٍ في الغابرين.. أتسمعين يا أَمَّ البنين؟ أتفهمين؟ ذَهَب الزمانُ المكين، وجفَّ نبعُ الحنين.. فانظري كيف تموتين، وتحيين، ثم تموتين.. تموتين، وتحيين؟*

فجأةً وقعتِ الكاهنةُ مغشيًا عليها، فحملتها المرأتانِ إلى الغرفة وأشارت إلينا إحداهما بالرحيل. خرجنا من السيق مسرعينِ، يلفُّنا اضطرابنا الصمتُ والوَجَلُ.. أخذنا الحمير المربوطة عند الكعبة البيضاء، وعدنا من الطريق ذاته، صامتينِ، حتى إذا ما اقتربنا من المربع، تأخَّر بحماره حتى حاذاني، وقال من دون أن ينظر ناحيتي: *لا تخبري أمَّ البنين بما هَرَفتْ به الكاهنة.*

لم أُخبرها، وهي لم تسألني. لكنني أخبرت ليلى يوم سافر زوجي، فقالت مستخفَّةً بالأمر: لا عليك من تهاويم الكهنة والكاهنات، فهي محضُ خرافات.. أدهشني قولها وأعجبني، وأخافني منها، فسألتها: *ألا تؤمنين بدين؟ قالت: كُفِّي عن هذا الكلام، وقومي لنحلب هذه المعزاة فقد كاد ثديها يحكُّ الأرض، ولا بُدَّ أنها تتألم.*

* * *

عاد سلومة من مصر، فأخبرني أن الأحوال هناك هادئةٌ تمامًا، وأنهم شاركوا بطرس الجابي في تجارات كثيرة، وصار أخي بنيامين يعمل معهم. وهو الآن يوسِّع بيتنا ويضمه إلى بيت عمي بشاي، ويضع بآخر الدرب بابًا يفتح على البيتين اللذين صارا بيتًا واحدًا، كبيرًا، سوف ينـزل فيه التجارُ ببضائعهم والدواب. أضاف أنهم حوَّلوا الساحة إلى سوق دائم للأنباط، فازدهر الكَفْرُ. سألته عن البلدة البيضاء، فقال: إنها خربت من يومها، ولم تعمر بعد خروج الفرس، ولا عاد إليها أهلُها.

مضتِ الأيام رتيبةً، وراح زوجي مرارًا، وجاء كما راح. ما عدتُ أهتمُّ، وما عاد في الحياة جديد إلا الأخبار التي يأتون بها مع الإبل والركائب، أو يأتي بها الزائرون من أقاربهم. اليهودُ كثروا في الخور، وقبعوا فيه، وصاروا قليلًا ما يخرجون. يزورهم الهوديُّ كثيرًا، وعُميرو يقضي معظم وقته بينهم، ثم يغيبان في التجارة ويعودان، فيعاودانِ العكوف عند اليهود الذين تلاصقت بالخور خيامُهم.

النبطيُّ أطال المكوث في أرض العراق، فكنتُ أُطعم كلبيه أثناء غيابه، وأمرُّ بأصابعي على رأسيهما وشعرهما الكثيف، وأنتظر عودتَه.. جاء بعد عشرة أشهر، وقد ازداد نحولًا وحيرةً. صار يلزم حجرته معظم الأوقات، أرى في عينيه حُزنًا وانكسارًا، كأن شيئًا فيه قد انهزم. قلَّتْ مجالسهُ، وخَلَتْ من كلامه القديم عن الآلهة، فما عاد يحكي إلا عن أيام العرب، ويروي أشعارهم ومفاتن لغتهم.

في جلسة صباحية هادئة، جاءوا له برقاعٍ مكتوبٍ فيها قرآن المسلمين، فنظر إليها طويلًا، وجال ببصره في السهول البعيدة، ثم قام وهو يقول، وكأنه يحادث نفسه: يأتي بهذا، ويُسيل الدماء؟.. سال دمعي رغمًا عني، لما رأيته حائرًا لا يدري أين يُقرُّ عينيه؛ كي يُخفي اضطرابه. بعدما وقف مدةً، متحيِّرًا، عاد من عند دَرَجِ المجلس فدخل حجرتَه من دون أن يقول شيئًا، فقُمنا من عنده في ذاك الصباح مبكرين.

صرتُ في أكثر أوقاتي مُلازمةً لخيمة أُمِّ البنين، في ترحال

زوجي وعند حِلِّه. في جوارها يحوطني الأمانُ، وتأتيني الأخبارُ والشوارد، وتتسامر النسوةُ في الأمسياتِ وهُنَّ يقلِّبن مع جمر التدفئة، الحكايات والأخبار: قافلةُ اليمن ستأتي بعد أيام. أحوالُ الروم مضطربة. شقيلةُ ستبقى هنا مع أولادها. تأخَّر المطر عن كل النواحي. المسلمون كثروا في قلب الجزيرة وحوافها، وصاروا يغزون أطراف دولة الروم، القريبة من هنا.

* * *

في صبيحةٍ شتويةٍ دافئة، امتدَّ الفجرُ حتى الضحى؛ لأن الشمس لم تُشرق، من خلف السحاب. في الأجواء ريحٌ غيرُ هادئةٍ، وفوق الأرض غبارٌ غريبٌ عن أيام الشتاء. قممُ الجبال مكلَّلة بسحابٍ أسود، يُنذر بعاصفةٍ عتية. لم يخرجِ الصغارُ بالأغنام للمرعى، وصعد إلى المربع نساءٌ وأطفال، ورجال، يأتين إلى هنا أزواجًا وفُرادى.

سرى حول الخيمة اضطرابٌ وَهْمسٌ، وقد تقاطر الجميعُ إلى المربوعة، حتى الصغار، فأحاطوا بأم البنين. جلسوا كلهم صامتين، حتى جاء نحونا الهوديُّ ينوءُ بهمٍّ ثقيل. حيَّا أُمَّ البنين وجلس قبالتها، وسكن، فرفعتْ وجهها إليه وهي تقول: هاتِ ما عندك، وأوجزْ.. قال: *نبيُّ المسلمين دخل بكَّـةَ منتصرًا، وحاصرَ الطائفَ بعد شهرٍ، فهَدمَ كعبة اللات الكبيرة، وقَتل الكاهنة الكبرى، وسَلبَ الغَبْغَب.*

انتفضتْ أكتافُ أُمِّ البنين، مرتين، وقامت كالمسحورة من وسطهم وهم ينظرون.. مضت بخطى ثقيلة إلى السقيفة المجاورة،

واستندتْ إلى قائمها الخشبي بذراعها اليمنى، وأطالتِ النظر في السهول البعيدة الغبراء، ثم دارت ببطءٍ حول صنم اللات. الجميعُ واقفون حول السقيفة، في دائرة كبيرة، يحدِّقون نحو أُمِّ البنين ولا يتحرَّكون، وقد احتقنتْ في عيونهم الدموعُ.. عند طوافها السابع بالحجر، سقط عنها سِتْرُ رأسها، فما اكترثت لسقوطه وانكشاف شعرها. أكملتْ دورتها الأخيرة بمشقةٍ، وعينين زائغتين. قبل أن تُكمل الطواف، تركنا النبطيُّ وانصرف فجأةً إلى ناحية حجرته، كأنه لم يشأ أن يسمع من أمه الشهقة الهائلة، ويرى وقوعها المريع وقد احتضنتْ بين ذراعيها الحجر الأبيض المكعَّب.. دَوَّتْ بين رؤوس الجبال، صرخةُ المتلفِّتة: أُمَّـاه.

ماتتْ أُمُّ البنين، وصرتُ وحدي.

نِكَاحُ الجِنّ

أيامُ العَزَاءِ امتدتْ أسبوعين، طويلين. جاء معزُّون كثيرون من كل النواحي، فكانوا يبيتون ليلةً أو ليلتين بالساحة المجاورة للمجلس، ثم يترحَّلون. انشغلتُ مع النسوة في إطعام المعزِّين، وزوجاتهم المتَّشحات بأردية الحدادِ. الأسودُ لونُ الأسى، والفقد والافتقار.

جرى الحالُ المنهك، طيلة الأسبوعين، على منوالٍ واحد. عند الغروب نسلق للمعزِّين اللحم الكثير، ونفتُّ في المواجير كِسَرَ الخبز لعمل الثريد. وفي الصباح نسخِّن الخبز، ونرسله إلى خيمة الرجال مع جِرار اللبن الرائب، وقطع الجبن الكبار. وفي جوف الأمسيات تتحلَّق النائحاتُ حول خيمتنا، ويترنـَّمن بكلمات العويل الجالبة لبكاء المكلومين.

بكيتُ أمَّ البنين نهاري وليلى، حتى توَّرمتْ عيناي وانتفختْ جفوني. كنتُ أبكي عليها، وعليَّ. وكانتِ المتلفِّتةُ مع حزنها، تدير المكان بحزنٍ كظيم، وعينين لا تدمعان أمام الناس.. كثيراتٌ من

التحتانيات كُنَّ يأتين إلينا في النهار، وينـزلن مع شمس الغروب إلى خيامهنَّ. وكانت سارة، العروس، تساعدنا بقدر ما تعرف وتستطيع. النسوة هنا لا يحببن سارة، لأنها أجمل من بناتهن، ولا يحببن أهلها لأنهم يهود. عُميرو اعتلى الصخرة التي عند المنحنى الجنوبي للجبل، أيامًا، وراح يبكي هناك كالأطفال.

ليلى احتجبتْ في الخيمة الوسطى، بلا حراك. لا تبكي ولا تأكل، حتى قَضَفَ قوامُها ويبس جسمها فصار كالأشجار القديمة. كنتُ أجالسها حين تسمح الأحوالُ، وأدسُّ في فمها الطعام اليسير فتلفظه، وتدير لي ظهرها كأنها تودُّ الإغفاء.. أجواءُ العزاءِ تُصقل الحزن وتُثقل الأنفاس.

بعد شهرين من وفاة أمِّ البنين، رحلتِ القافلةُ إلى مصر فسكنتْ من حولي الأنحاءُ. سافر مع زوجي أخواه النبطيُّ ومالك، صريعُ العواتك، الذي ترك هنا زوجتيه والأطفال. بدا أولًا أن الهوديَّ لن يسافر معهم، لكنه لحق بهم بعد أيام، ومعه حمولةٌ كبيرة مما غزله اليهود. ترك خلفه عميرو ليُعنى بالمكان، وبامرأته. صفا، المتلفِّتة، صارت ترتدي ملابس أمها وتجلس في مكانها بالخيمة، لكنها لا تطوف صباحًا بصنم اللات، وما عادتْ منشغلةً مثلما كانتْ، بأطفالها الكثيرين. ما عادتْ متلفِّتة. قلت لها يومًا برفقٍ، إن أطفالها يحتاجونها أكثر مما يحتاجها الحزنُ، فقالتْ إنهم كبروا.

بعد أيامٍ من رحيل القافلة، قالت لي شُقيلةُ في ظهيرةٍ ساكنة، إن

زوجها خيَّرها بين البقاء هنا مع أطفالها، أو يطلِّقها ويصحب إلى الشام زوجتَه الصغرى، عندما يعود من مصر. وبعدها بأيامٍ قالت لي الزوجةُ الصغرى، هند، إنها تسايرُ نَزَقَ زوجها مضطرةً. لكنها تتعذَّب بملاحقته للنساء، وتخشى أن يتزوَّج يومًا عليها. ومهما يكن من عذابها لشغفه بالأُخريات، فهذا عندها أهونُ من زواجه مجدَّدًا، فحسبما تقول نسوةُ العرب: *مائةُ عشيقةٍ، أهون من زوجةٍ أخرى لصيقة.*

ـ *ولماذا يتزوَّج مجدَّدًا؟ لن يجد أجمل منكِ، ولا أطوع.*

ـ *لأنني يا ماوية، عاقرٌ.*

ـ *عنده من زوجته الأولى، أولادٌ وبنات.*

ـ *هُم لا يكتفون من الأولاد بعدد، ولا يشبعون أبدًا من النساء. امرأةُ عميرو اليهودية حُبلى، وهي بَعْدُ في الخامسة عشرة، وأنا في الثلاثين وخاوية.*

ـ *سارَّةُ حُبلى!*

ضاق عليَّ الفضاءُ الفسيحُ، وداخلني خوفٌ فادحٌ.. مضتْ عليَّ هنا أعوامٌ خمسة، وسنِّي تخطَّت العشرين بعامين، ولا أمل لي في إنجابٍ قريب. فما الحلُّ، والحالُ لا يتغيَّر؟ ليلى قالت يومًا، إن الحبل والرضاعة يُفسدان أجسام النساء، فهل كانت تواسيني وقد علمتْ فقدان أملي في حَبَلٍ أو رضاع؟ أم كانت تواسي نفسها، لطلاقها مرتين

بلا إنجاب؟.. كيف لامرأةٍ أن تتزوَّج مرتين، ويعبثَ بمعدنها طَرَفا رجلين؟ لعلها صارتْ تعرف رجالًا كثيرين، لأنها لم تعرف نفسها مع رجلٍ واحد. مسكينةٌ ليلى.. كُلُّ النساءِ مسكيناتٌ.

الأيامُ بطيئةٌ، والنهارُ يتطاول مع انتصاف الصيف. صرتُ أدخلُ السيق البارد في المساء، فأنام في بيتي ومعي بنتٌ من الصبايا الصغيرات، لتؤنسني هناك.. في يوم هادئ، تأخرتُ في الخروج إلى المربع، حتى الظهيرة، فلمحتُ ليلى من جانب شرفتي، تدخل السيق وتلقي خلفها الأغصان الجافة الدِّقاق. تواريتُ حتى اختفتْ في جوف الشَّقِّ الصخريِّ المقابل لبيتي، فبقيتُ ساكنةً أترقب خروجها.. غابتْ هناك حتى الغروب.

في المساءِ انفردتُ بها، وسألتها في الأمر، فقالت إنه عزاؤها الوحيد. قلتُ لها إنها تتوهَّم الأشياء. فنظرتْ في عينيَّ بوجهٍ مائل، وابتسمتْ لأول مرة منذ ماتت أُمها، ثم قالت بصوتٍ خفيض: *الوهمُ أحلى من الحقيقة يا ماوية، وأهنأُ.*

ـ لكني قلقةٌ عليكِ، وعلى نفسي.

ـ لا تقلقي عنِّي، وليس عندك ما يُقلق.

ـ تأخَّر عنِّي الحبَلُ.

ـ سلومة لا يُنجب.. تزوَّج مراتٍ، ولم يُنجب.

ـ الرجالُ كلهم يُنجبون يا ليلى، النساءُ هُنَّ اللواتي قد يعقمنَ.

ـ *هذا ما يتوهَّمه الرجالُ، فيهنأون بالوهم.*

قامت ليلى من جانبي مسرعةً، لتفضَّ عراكًا بين الصغار العائدين بالأغنام من المرعى، وتركتني بالمربوعة غارقةً في حيرتي.. هل يُطلِّقني سلومة؟ لعل أُمه كانت تمنعه، وما عاد عنده الآن مانعٌ. لو قال لي يومًا، تعالي معي لزيارة أهلك، سيكون قد نوى أن يتركني هناك، مطلَّقةً. لن يكون لي من بعده زوجٌ، ولن أصيرَ مثل ليلى، مُستعليةً ولاهيةً.. إذا أراد طلاقي، سأطلب منه أن يتركني هنا لأُربِّي أطفال أخواته وإخوته، كأنهم أطفالي. لن أطلب منه ولا من غيره، أيَّ شيء آخر، ولو أرادوا بيتي سأتركه لهم، وأنام هنا مع الصغار والنسوة، أو أعيش في خيمة قرب المجلس فأخدمُ النبطيَّ وأعتني عند سفره بكلبيه.. وأقضي بقربه بقية عمري..

ـ *تعالي يا ماوية، وُضِعَ الطعامُ.*

هواءُ الليلة باردٌ، والنجومُ ناصعة.. علا صخبُ الصغارِ وهم يلتهمون عشاءهم المعتاد، كأنه آخر زادهم، أو هو أوَّلُه بعد صيامٍ طويل. لا يصومون هنا صومًا طويلًا، مع أن أكثرهم مسيحيون. وسلومة لا يصوم أصلًا متعلِّلًا بالسفر، حتى وهو مقيم. الناسُ هنا يصومون أيامًا معدودات ثم يعيِّدون، لأن عندهم ما يأكلون في كُلِّ الأيام، فلا يحتالون لسَتْر العَوَزِ بالنُّسُك.. النبطيُّ قال ذلك يومًا.

لا رغبةَ عندي في طعام أو نوم. ليلى تجلس بعيدة عن الآكلين، في آخر المربوعة، وذيلُ ثوبها ملفوفٌ بكفَّيها حول ساقيها. عيناها

شاردتان في ناحيةٍ نائية، وسِتْرُ شعرها الوفير مُلقى حول كتفيها.. تُرى، ما الذي يدور برأسك الآن يا ليلى؟ لو أستطيعُ، مسستُ قلبك فأحسستُ بك، أو دخلتُ رأسك فعرفتُ الكثير.

جلستُ إلى جوارها، غير لصيقةٍ، فابتسمتْ على هون. وضعتُ على كتفيها رداءً، اتقاءً للبرد، فأمالتْ عينيها نحوي وخمشتْ مُداعبةً أصابعي، كأنها تجلو عنها أوراقَ شجر، أو تمسح غبارَ سَفَر.. الناسُ على سَفَر.. حِلٌّ للروح في الجسد، حينًا، ثم ترحال بعد حين. ماتت أُمُّ البنين، فكأنها سافرتْ إلى حيث لا نعلم، أو كانت هنا مسافرة ونحن لا نعلم. كلُّ النساء كأمِّ البنين، وكلُّ الرجال، جميعُهُم مسافرون في حيواتهم.. تروحُ الروحُ وتجيء، في ترحالها المتوالي، المعلنِ الخبيء.. النبطيُّ قال ذلك يومًا.

توالتْ علينا نسماتٌ باردةٌ مبهجة، واحتجبتِ النجومُ خلف سحابٍ كثير. ليلى لم تنهض إلى نومها مثل الباقين، فبقيتُ جالسةً بجوارها. سألتني صفا المتلفتةُ، إن كنتُ سأصحب نَعْسة إلى السيق، فردَّتْ ليلى بأنها سوف تبيتُ معي الليلة. أسعدني ذلك. سوف تؤنسني هناك، وقد تحكي لي المزيد من الحكايات. أحبُّ حكايتها وطريقتها في الكلام، حين تصفو، وتُميل وجهها فينهمر شعرها الناعم الفاحم، إذا انزلق عن رأسها سِتْرُها. وحين تبتسمُ، تلمع بين سُمرة شفتيها أسنانُها، كأنها نجومٌ مصفوفةٌ تُزيِّنُ سواد الليل. ليلى غامضةٌ، كالليل وحالكةٌ، وحافلةٌ بالأسرار.. أنا مثل النهار.

* * *

في طريقنا إلى السيق، أجالتْ ليلى عينيها في السماء، مرَّتين، ثم عادتْ إلى المربوعة فأحضرت خبزًا، وطعامًا في مخلاة، وقنديلًا. قالت إن رائحة الهواء وهيئة السماء، يدلاَّن على مطرٍ يريد أن ينهمر. حملتُ معها الحاجيات، وسرتُ وراءها على مقربة.. عند مدخل السيق، التفتُّ إلى المجلس، وتذكَّرتُ الأوقات البديعة.

أغلقنا خلفنا البابين، وفَرَشنا على الأرض بساط النوم، وألقينا عليه الوسائد، ثم أوقدنا نارًا لنستدفئ.. بعدما أكلنا لقيمات، جلسنا ساعةً نتحاكى، وقد أسندتُ ظهري إلى الحائط، وشددتُ علينا ذاتَ الغطاء. أحسُّ قربهَا بالأمان. بعد حينٍ، سرى الدفءُ فاستلقينا على ظهرينا، وتحادثنا وعيوننا هائمةٌ في سقف الحجرة الممزوج بضوء القنديل.. حين لامس الضوء وجهها، وقد طوتْ تحت رأسها شعرها كالمخدَّة، رأيتُها أجمل.

مضى علينا حينٌ، ونحن ناظرتان إلى السقف القريب البعيد، ورائحةُ الجدار الحجريِّ تنفذُ فيّ. استدرتُ نحوها، وسألتها عن أخيها النبطي: ماذا كان اسمه الأول؟ فالتفتتْ نحوي بعينين تندهشانِ، ثم تبتسمان.. قالت متمهِّلةً وهي تحدِّق إلى سماء الحجرة، وتقلِّب في الهواء أصابع كفَّيها، كأنها تُدير كُرةً لا تُرى: *كان اسمه: يونس.. يونس، حروفٌ أربعة.. يونس.. ونيس.. ينوس.. نسوي.. ينسي.*

كانت تتكلم كالسكارى. سألتها هل تشرب الخمر؟ فقالت أحيانًا، خفيةً، قبل النوم. أخبرتها أن سلومة يحفظ بالحجرة

الوسطى جرار خمر، فقالتْ إنها لا تريد. أضافتْ وهي تستدير نحوي، وتطوي تحت وجهها شعرها الوفير، وتريح عليه رأسها: *نشوتُنا الليلة بالذكريات، فأخبريني بحكاية قديمة، وأفصحي عن سِرٍّ دفين.*

ـ ليس عندي يا ليلى، أيُّ أسرار.

ـ لا أحدَ بلا أسرار.

ابتسمتُ خَجْلَى، ثم حكيتُ لها بعد تردُّدٍ ما جرى قديمًا مع الرجل الغريب. راحتْ عيناها تستجلبان المزيد من الإفصاح، حتى حكيتُ لها تفاصيل الذي كان. قالت وهي تبتسم، إنها فهمتْ للتوِّ ما جرى يوم عُرسي. سألتها عن مقصدها، فقالتْ: لا عليكِ.

تساقطتْ في السيق حباتُ مطرٍ، وصل صوتُها أول الأمر خافتًا، ثم علا. قالت إنه ابتداءُ السيل، وسيهطلُ الليلةَ ماءٌ من السماء كثيرٌ. قلتُ إنني أشعر مع قربها بالأمان، فقبَّلتني.. نمتُ بعدما نظرتُ طويلًا في عينيها، فكنتُ في صحوي كأني نائمة، وفي غفوتي كأني أراها. عيناها أدفأُ في الضوء الخافت، ولونهما العسليُّ يلمعُ ألقًا.

أخذني النومُ منها وهي تنظر في عينيَّ ولا تتكلم، لكنها تقول الكثير. عيناها تشبه عينيه. لكنه يغضُّ الطَّرْفَ دومًا ولا ينظر إليَّ، وهي قويةُ النظرات، وعميقةٌ، وجريئةٌ تلسعُ القلب. كأن عينيها كهفٌ، فيه شَهْدٌ مصفًّى..

تحرسه الزنابير..

يدفعني إليها غموضها،

وبقُرْبها يغمرُني إغواءٌ ملتبسٌ، مستحيل.

واشتهاءٌ يُميلُ..

أَحَارُ فيَّ، وأتوهُ فيها، وأضيعُ

لا يدلُّني غيرُ اشتهائي المشتعل، المشتبه عليَّ:

أهو للشهدِ المصفَّى والعسلِ الكثير،

أم للوَجَعِ الحارقِ ولسْعاتِ الزنابير

ولدمٍ حَارٍّ، حائرٍ، يسيلُ

ولا يسيلُ

صحوتُ هانئةً فجرًا، فسمعتُ صوتَ المطرِ المتصلِ يأتيني من وراء الباب. خرجتُ كَسْلَى، إلى شرفتي فرأيتُ السيق في أبهى صورةٍ. حباتُ المطرِ تغسل الأشجار فيزدادُ اخضرارُها وَهَجًا، وأزهارُها بهجةً، وتقع على أوراقها فتهزُّها فرحةً.. دخلتُ ونفختُ في الجمر حتى اتَّقد، وطار عنه الرماد. لونُ النار في غَبَش الفجر، يُغري بالتوغُّل في الغوامض الممكنات. علتْ ألسنةُ النار، فلسعتُ بها حوافَّ الأرغفة، وأعددتُ الفطور. أيقظتْ رائحةُ الخبزِ ليلى، فقامت من تحت الغطاء عاريةً، فاندهشتُ، فأخبرتني أنها عادةٌ عندها. فهي لا تحتمل تحت غطائها أيَّ ملبوس، صيفًا

أو شتاءً، فتطرح عنها وهي في غمرة نومها، كُلَّ ما تلبسه. ابتسمتْ كالصغيرات، وهي تقول إن هذا أحدُ أسرارها، وبسببه تنام وحدها في معظم الليالي، بالشَّقِّ الصخري الذي اتخذتْه منزلًا.

أفطرنا كطفلتين تمرحان، وجلسنا متجاورتينِ في الشرفة لنشاهد، هادئتينِ، انهمارَ المطر. الجوُّ من حولنا دفيءٌ، وفي داخلنا دفءٌ مريح فلا ريحَ في الأنحاء، ولا رائحةَ إلا لأحجارٍ غسلتها المياه، ولا أحدَ في الكون يدري بنا. مسَّتْ ليلى يدي وهي تقولُ إن السيل سوف يستمر يومًا أو يومين، ولن تخرج الأغنامُ للمرعى. ولا بُدَّ أن أرض المربع غمرتها المياه، وأرضَ الخور غَرْقى.. سألتها:

ـ ماذا ستفعل سارةُ وأهلها الساكنون هناك.

ـ سوف يحتمون بالكهوف وبطن الجبل، فيعصمهم العلُوُّ من الماء.

ـ وهل نحن هنا، محصورتان؟

ـ الكُلُّ محصورٌ بموضعه. لا بأس، فهنا طعام سوف يكفينا لأيام، وعندك خمرٌ للأُمسيات.

دام نزول السيلِ ثلاثة أيام، جرى الماءُ فيها كالنهر في السيق، وطوَّف بنا الخيالُ في كل المخابئ. أُحسُّ بأن ليلى تمنحني في الليل، وفي النهار، ما لا يستطيعه ولا يعرفه غيرها.. ما عاد عندي في الوجود سواها، وما عدتُ أريدُ إلا الدنوَّ منها.

بعدما هدأ هطولُ السيلِ خرجنا إلى المربع، لكيلا يفتقدنا أحدٌ أو يتفقَّد. كنتُ أود المكوث. في طريقنا إلى الخيمة أشرتُ إلى المجلس، وقلتُ لها إننا كنا هنا ذات صباح، وسأل عميرو عمَّه النبطي عن الحب، فلم يُجِب. ضحكتْ ليلى برقَّةٍ، وهي تقول كأنها تهمسُ: *أخي النبطيُّ لا يعرف، أو هو لن يعترف. فالحبُّ سرٌّ خطير، بل هو أخطر الأسرار.. والمحبُّ مُقامر، يُغامر بكلِّ شيءٍ، ويثابر. يَعِدُ صادقًا بالوعود الكاذبة، لكنه ينسى مع الأيام وعودَه، ويضيقُ بقُرب محبوبه. وقد يهجره.*

ـ لن أهجُرَكِ أبدًا يا ليلى.

* * *

تهلَّل الأطفالُ لقدومنا، وابتسمتْ صفا. ما عاد أحدٌ، من بعد موت أمها، يناديها المتلفِّتة. الماءُ يغمر الوهاد، وعلى مهلٍ تشربه الرمال. جوانبُ الخيام وأسقفها تنـزُّ ماءً، والنِّقاعُ تملأُ أرض المربع. التحتانيون اهترأتْ خيامهم، واليهودُ انجرفتْ أشياؤهم. لكن الكل سعداء بما نزل من المطر. يبتهجون وهم يُصلحون ما حدث لخيامهم، ويأملون في كلأ كثيرٍ سوف يملأ الأرض بعد أيام. هكذا قالوا.

وبالفعل، نبتتْ بعد السيل في السهول أزهارٌ لم يزرعها أحد، بديعةُ الألوان، والأرضُ اكتست بخضرةٍ دامتْ شهور الربيع، وتخطَّت إلى بداية الصيف. الأشجارُ التي كانت يابسةً أورقت،

وأثمرت شجيرات التين.. كثرتْ في السيق، بين سيقان الدُّفلي، ديدانٌ حمراء، تطول بقدر إصبع أو إصبعين، اسمها العِرْبون. فكانت الهداهدُ والعنادلُ وبقيةُ الطيور، تهبط إليها وتلتقط منها بالمناقير، ثم تحلِّق مبتهجة.. أين كانت تلك الكائنات كامنةً؟.. صار السيق حديقةً كالجنَّات الغنَّاء. كان النهارُ بديعًا، والليالي، فعرفتُ معنى الربيع.

كنا نبيتُ بحجرتي كلَّ مساء، ونخرج إليهم في الصباح. ليلى في بعض الأيام تسبقني وتنتظرني في الخيمة، وفي أيامٍ أخرى أسبقها وأتلفَّت إلى مدخل السيق، حتى أراها تجيء بخطوها الرشيق، وسِتْر رأسها المرفرف حولها مع نسمات الهواء.. ما عادتْ ترتقي الشَّقَّ الصخريَّ المقابلَ لشرفتي، وما صارت تشتاق لنكاح الجِنِّ الذي زعمتْ.

زوجي جاء مع الصيف فانقبضتُ، وجاءت معه الأخبار فانقبضتُ أكثر. وجاء النبطيُّ فما اكترثتُ. ملأ سلومة حجرتي برائحته، واحتجبتْ ليلى بمسكنها معظم الأوقات، حتى مرَّتِ الأسابيعُ الطوال، وارتحلتِ القافلة إلى الشام.. شُقيلة بقيتْ هنا، وذهبتْ هند مع زوجها مالك، صريع العواتك، وسافر معهم عميرو.

قبل رحيلهم، كانوا في الأمسيات يسكرون ويصخبون، بأقل مما كانوا يفعلون أيام أمِّ البنين. وكانوا يقلِّبون مع جمر الشواء، الأخبارَ الطوال والقصار: أُمي مريضةٌ، وأخي بنيامين أقام بآخر

الدرب جدارًا فيه بابٌ يفتح على البيتين، وقد صارا بيتًا واسعًا فيه عدَّة غرف، وبمدخله حوشٌ كبيرٌ للدواب، وأوصدوا الباب الخلفيَّ لقصر الجابي. بنيامين صار يتاجر معهم، ويعاون بطرس الجابي في تحصيل المكوس للروم.. المسلمون استولوا على الجزيرة كلِّها، وخرجوا إلى أطرافها يغزون النواحي ويهدِّدون سلطان الروم والفرس. سلومة وأخوه مالك، ينويان الدخول في الدين الجديد. فروة بن عمرو الجذامي، حليفهم الذي رأيناه في أَيْلة، جعله الرومُ أميرًا على بادية الشام، وحاكمًا على نواحي جذام ومضارب الأنباط. يوحنا بن رؤبة أسقفُّ أيلة، صالح النبيَّ العربيَّ على مالٍ يؤديه له كلَّ عام. ماريةُ، الجاريةُ التي رأيتُها قرب بحر القلزم مع أختها، تزوَّجها النبيُّ القُرشيُّ وأنجبتْ له ولدًا جميلًا..

النبطيُّ كَفَّ عن الجلوس أمام حجرته، وحوله السامعون. صار يظهر على هون في النهار، أو يطوِّف بالأنحاء كالحائر، يتبعه كلباه. في ظهيرة هادئة سألتُ ليلى بالمربوعة، عن سِرِّ اختلاف حاله منذ عاد من العراق. أمالتْ رأسها نحوي، ونظرتْ بعينٍ غيورٍ. طال سُكُوتها، ونظراتُها التي تقول ولا تقول، حتى ألححتُ عليها أن تجيب. قالت بعد تمهلٍ: *ذهب النبطيُّ إلى العراق مدعُـوًّا من تغلب، وهي واحدةٌ من أعزِّ قبائل العرب. لكن رحلته كانت بائسة، وإقامته هناك أكثر بؤسًا*. التغالبة يودُّون لو يأكلون العرب، وكلَّ الناس، لكنهم يحتاجون نبوةً يحاربون تحت رايتها، بعدما استفاقوا من

حرب البسوس الطاحنة، واتّحدوا ثانيةً مع أبناء عمومتهم البكريين. قالوا لأخي سنؤمن لك، إذا قلتَ في الحرب وحيًا يدعو إلى القتال، ويمجِّد وَقْعة ذي قار، التي غلب فيها العربُ الفرس. فاعتذر منهم بأن نبوَّته لم تكتمل، فاستعجلوا الأمر فقال لا مجال لاستعجال. ما أرادوا كلامه عن إيل، وعن اللات، ودورانِ الحيوات. وبعدما طال بينهم الجدالُ، وتطاول الأمرُ شهورًا، أهانوه. لولا حلفاؤنا من جذام، وأقاربنا هناك، لهلك في أرض العراق.

* * *

رحل الرجالُ كلهم مع القافلة، بعدما انتصف الصيفُ، فصفا وقتي ثانيةً مع ليلى.. واتَّقَدَ الجمرُ مرةً أخرى، من تحت الرماد.

حُرقةُ الفِرَاقِ

مَرَّت علينا أيامُ الصيفِ مليئةً بالمسرَّة، مثل نسماتٍ رحيمة، أو قطراتِ ندى تُحيي مواتَ القلوب، وتُريح الحزانى. ما رأيتُ أوقاتًا مثل تلك التي قضيناها، ليلًا، تلفُّنا خيوطُ البخور. ليلى تحبُّ العطور. لكن تلك الأيام انطوتْ سريعًا، وطوتني. لأن الدهرَ لا يهدأ، ولا يحتمل الفرح.

مع دخول الخريف، اختلفتْ من حولي الأحوالُ، واتَّقدَ الهجيرُ. المربعُ صار صاخبًا، وامتلأ نهارُ المربوعةِ بالتحتانيات اللواتي يأتين بانتظام، فيطبخن هنا الطعام، ثم يقضين اليوم بطوله متحلِّقاتٍ حول صفا.. سألتُ ليلى عن سِرِّ هذه الجلسات، فأخبرتني بأن صفا سوف تزوِّج ابنتها نَعْسة، لرجلٍ من أقاربهم التحتانيين.

بعد يومين رأيتُ الرجل، الخاطب، فاستغربتُ. البنتُ في الخامسة عشر من عمرها، وخاطبها تخطَّى الخمسين، وعنده زوجةٌ أخرى وأولاد، ونحيلٌ أشيب.. أسرَّتْ لي ليلى، ليلًا، بأن صفا هي

التي تسعى إلى هذه الزيجة وتريدُ إتمامها، فسألتها بلسان دهشتي عن السبب، والبنتُ بَعْدُ صغيرةٌ. فجاوبتني بقولها: لا *شأن لنا*، هي *أمُّها وتعرف صالحها*.. أردتُ لحظتها إخبارها بأن الأمهات يتوهَّمن معرفة الصالح، فيؤرجحن بناتهن بين موارد الهلاك. لكنِّي سكتُّ.

ليلى تنازعتْ مع صفا بسبب نعاجٍ لهما، فما عاد أحدٌ يهتمُّ لخروجنا إلى المربوعة، أو اختفائنا بحُجرتي في غالب الأوقات. لكن السيق لم يعد هادئًا ومهجورًا، مثلما كان، فأطفالُ التحتانيين عرفوا الطريق إليه، وصاروا يصخبون تحتنا طيلة النهار، ويلعبون. حتى قريبات سارة، صرن يأتين معها إلى السيق صباحًا، ويعرِّشن على الخضرة التي نبتتْ تحت الأشجار، كأنهنَّ مُلَّاك المكان.

مع ارتحال الخريف، ودخول الشتاء بغيومه ولياليه الطوال، عادتِ القافلةُ ورجع معها زوجي. لكن ليلى لم تحتجب عني، كانت تشاركنا معظم أوقات النهار، وفي الليل تذهب إلى مسكنها أو تنـزل إلى الغرفة الوسطى لتنام هناك، فتهفو إليها روحي حتى أراها صباحًا.. أقاموا الخيام لعُرس نعسة وابتهج الجميعُ، لكن السيل العَرِم اندفق من السماء قبل موعد العرس بيومين، بأشدَّ مما انهمر به العام المنصرم. مع أننا في أول الشتاء.

دام انهمارُ المطر يومين، اشتدَّ فيهما اندفاعُه حتى كنس في طريقه الرمالَ والأحجار، واقتلع الأشجار، وكَشَفَ بآخر السيق درجًا كثيرًا

يصعد إلى أعالي الجبال. عشراتُ العتبات المنقور بعضها فوق بعض، في انفراجةٍ بين جبلين، عرضها في نحو ذراع.

تأجَّل عُرس نعسةَ أسبوعًا، أعادوا بعده تهيئة خيام الضيوف بالساحة المجاورة للمجلس، نصبوا خيامًا أخرى على عجل، ليسكن فيها أقاربهم التحتانيون.. اليهودُ تزحَّفوا إلى حواف المربع، لأن السيل دحرج أحجارًا كبارًا إلى الخور، فما عاد قاعه يصلح لسُكناهم.

ازدحم المكانُ ولم يعد مفتوحًا على الأفق، مثلما كان، لكن السيق ظل فسيحًا وخاليًا، خاصةً في الأمسيات. بعد عُرسها، جاءت نعسةُ لتسكن بكهفٍ بائسٍ على يمين الداخل إلى السيق، لأن أمها أرادتْ انتزاع الرجل الأشيب الذي تزوَّجها، من جوار زوجته الأولى.. جيراني الجدد يأتيهم زوَّار كثيرون يعمرون مدخل السيق، ومجلسُ الرجال استدام أمام المجلس، واستقلَّتِ النسوةُ بالمربوعة وقلب المربع، والتصق اليهودُ بالأطراف.

صار النبطيُّ يقضي النهار على ظهر حمار، بأعالي الجبال، وحوله كلباه. ثم ينزل مع الليل، ومعه الأعشاب الدوائية التي يحفظها مسحوقةً في أكياس، ليعطيها لمن يشتكي الأمراض.. النسوةُ أصلحن ما وقع بين ليلى وأختها، فصرنا نجلس معهن مساءً في المربوعة، وزوجي يجلس بالساحة المقابلة مع المتسامرين السكارى.

النساءُ يعرفن أخبار النواحي كالرجال، ولا يتوقَّفن عن حكاية الوقائع والمجريات: فروةُ بن عمرو الجذامي أعلن إسلامه، وهو الأمير، فأخذه الرومُ وصلبوه على خشبةٍ بأطراف فلسطين.. اليمنُ يضطربُ لأن نبيًّا اسمه الأسود، ينازع سلطان المسلمين بالأنحاء.. نبيٌّ آخر بأقصى الجزيرة، اسمه مُسيلمة، يُراشق النبيَّ القرشيَّ بآياتٍ مضحكاتٍ يزعم أنها تأتيه من السماء.. رجالُ الكنائس في الشام يتنازعون فيما بينهم، فتذهب ريحهم بددًا، والملك هرقل حائرٌ بين مذاهبهم.. القوافلُ لن تسير إلى الحبشة هذا العام، لاضطراب البلاد واختباء السُّفن، وقليلٌ من التجار سيذهبون برًّا إلى يثرب، ولا يستكملون سيرهم جنوبًا.. المسيحيون يذبحون اليهود في أنحاء الأرض، انتقامًا لما سبق منهم، والقتلى عشراتُ الآلاف.. النبيُّ اليمنيُّ، الأسود، قُتل.. الأحوالُ في مصر تبدو هادئة.. الطفلُ الذي أنجبته مارية للنبي، مات.

* * *

قبل انتهاء الشتاء، جاء جماعةٌ من أقاربهم الساكنين بوادي رَمّ، رجالًا ونساءً، فنـزلوا بالخيام التي عند المجلس. ليلى اضطربتْ أحوالها، ولم تُخبرني بحقيقة ما يجري، فلم أعرف بالخبر إلا من زوجي.. وهو يلتهمُ غداءه بالشرفة، سألني أين ليلى؟ فقلتُ إنها لم تظهر اليوم، فقال وهو يدسُّ بفمه حفنةً من ثريد: *لعلها تستعدُّ لمقابلة الخاطبين.. سوف تتزوَّج.. ما لكِ لا تأكلين؟*

ـ شبعتُ.

أخفيتُ عنه اضطرابي بَقْدر ما استطعتُ، وبقيتُ ساكنةً بالبيت حتى ارتمى على البساط ليهجع ساعةَ الظهيرة، فخرجتُ هائمةً مثل طفلةٍ، تاهت عنها أمُّها وسط سوق حاشد. عند المربوعة، قال لي الصبيةُ إن ليلى بمسكنها الصخري، ذهبتُ، فوجدتها تحزم أغراضًا.. جلستُ أمامها على الأرض متكسِّرةَ الأركان، وقد احتقن بعينيَّ دمعٌ كثيرٌ، والتهبتْ حُرقةٌ باطني. قالتْ إنه الرجل الذي يحبها، جاء يطلبها فوافق إخوتها، وسوف يذهبون معها بعد يومين، للاحتفال بعُرسها في وادي رَمّ.

ـ *وأنا؟*

ـ *يمكن أن تأتي، سلومة سوف يصحبنا ليحضر العُرس.*

دنتْ دموعي، فكادتْ تنهمرُ أو ينفجرُ قلبي، لولا قمتُ مسرعةً من مسكنها، فأخذتني خطاي إلى حيث لا أدري، وقد صارتْ روحي سليبةً.. سرتُ إلى آخر السيق، وارتقيتُ الدرج العالي الذي كشفه السيلُ الأخير، من دون أن أعرف لأيِّ موضع سيكون منتهاه. صعدتُ بجهدٍ جهيد، متقطِّعةَ الأنفاس، فوجدتُ بأعلاه شقًّا صخريًّا كأنه كهفٌ. جلستُ هناك وما بكيتُ، ولكن تمنيتُ أن ينطبق عليَّ الجبلانِ القائمان فوقي، فأموتُ.. كيف أحيا هنا إذا ابتعدتْ ليلى، وقد ابتعد النبطيُّ قبلًا، وعُميرو التصق بسارَّة، وزوجي من يومه بعيد. رحلتْ أمُّ البنين، وصفا التي تجلس محلَّها غيرُ حنون،

ولا تحبني. التحتانياتُ اللواتي حولها، ينظرن نحوي بعين معزاة عجوز، ولا ينادونني باسمي الأول ولا الأخير، لا مارية ولا ماوية. أنا عندهم المصريةُ، العاقر. فكيف أحيا بينهنَّ، وكيف أقضي الأمسيات وحدي، وكيف سأحتملُ زوجي إذا أتى من أسفاره، ومَنْ سيأتيني بالمسحوق الزاكم لأنفي.. ستحوطني حُرْقَةُ الفِرَاقِ، وفادحُ الألمِ المحالِ أن يُحتمل. سوف تغمرني بحارُ المرارة، كل يوم، مِرارًا.. فلأيِّ شيءٍ أعيشُ، وقد تعاقبتْ على قلبي الأهوالُ وفَسَقتْ بَيْضتي، فما عادتْ تصلُحُ للتفريخ. الدجاجةُ التي لا تفرِّخُ، يذبحُها الناسُ فتكون طعامًا، لأنها لا تستحقُّ طعامها.. ستذبحُني نظراتهم والكلمات:

ناديتُ هامسةً: أيها الموتُ، اقتربْ
خُذني إليك، وطوِّح روحي بنقطة ماءٍ تَنْسرب
بين الشقوق، فتشربها الرمالُ بلا تعب
لعلني أرتاحُ إذْ أذوب في التراب، فأغترب
عني وعنهم، وعن كُلِّ حَيٍّ يضطرب
وتسكُن بموتي رُوحٌ تتَّقد،
وقد يهدأ هذا القلبُ الذي يهترئ.

قمتُ منتفضةً وقد اقترب الغروب، فنـزلتُ من مرتفع الدرج

بلا حذر. فتّشتُ في الأركان وتحت الشجيرات الباقية بأرض السيق، فما وجدتُ ما أريد. ذهبتُ إلى كهف نعسة وناديتها، فخرجت إليَّ وخلفها زوجُها القبيحُ، اليابسُ. سألتها عن البيضات التي ينثرونها في السيق، لتقتل الثعابين. اندهشتْ، فقلتُ إنني لمحتُ ناحية بيتي ثعبانًا يتزحَّف بين الشقوق.. كذبتُ.. تلفَّتتْ نعسة حولها، حيرى، ثم قالتْ: لعلَّ السيل أذاب البيضات أو جرفها، وسوف يأتي غيرها من العراق قريبًا. لم أنطق بشيء، فأضافت ناصحةً وهي لا تعلم مُبتغاي، أن خالها النبطي عنده أعشابٌ تطرد الحيَّات، ولو نثرتها على الدرج الصاعد لبيتي، وفي الزوايا والأنحاء، سأكون من الثعبان في أمان.

أمان.. نعسةُ لن تدرك أنني أريدُ الأمان التام، أو مجيء ثعبانٍ يندسُّ في فرشتي فينهشني. يشرب من دمي متمهِّلًا، فأنزلقُ من نومي إلى موتي، من دون أن أنتبه. أو أُلقي بنفسي من شاهق جبل، فأرتاحُ مما لن أحتمل.. تركتُ نعسةَ خلفي، مبهوتةً من ظنها أن ثعبانًا أفزعني، وخرجتُ من مدخل السيق، فرأيتُ أمامي حجرتي الحجرية الأولى، تذكِّرني بعذابٍ عصرني قبل سنوات، وكانت ليلى هناك.. أخذتني خُطاي من المربع، إلى السهول الفسيحة الممتدة تحت احمرار الغروب.

- إلى أين يا خالة؟

رأيتُ النبطيَّ أمامي، وخلفه كلباه، وعلى حماره معه جِرَابُ

العشب المجلوب من الأعالي. كرَّر سؤاله، فقلتُ لا أدري. قال اركبي الحمار لتعودي معي، فأجهشتُ، فسكتَ، فهبطتُ إلى الأرض، فاقترب حتى وقف فوق رأسي صامتًا.. مع الضوء الأخير في الأفق، رفعتُ وجهي نحوه وليس عندي ما أقولُ، فلمحتُ عينيه، تدمعان. رفعني بلمسةٍ من كَفِّه اليمنى على كتفي، فقمتُ كالمرضى وسرتُ خلفه. لم يتكلَّم. لما وصلنا إلى أول المربع، مال يمينًا إلى المجلس، وملتُ يسارًا إلى المربوعة لأغرق في غمرة الصخب الآتي من هناك. هناك وجدتُ النسوةَ يتحلَّقن في دائرةٍ يؤطِّرها الأطفالُ، ووجدتُ ليلى في قلب الدائرة.. ترقصُ.

* * *

نمتُ يومين حتى رحلوا بالعروس إلى وادي رَمّ، وألقوا بها في حِضن رجلٍ يحبُّها ولا تحبه.. لماذا وافقتْ، وهي التي طالما رفضته؟! عاد زوجي مع إخوته بعد أسبوعٍ، ليستعدوا للسفر إلى مصر. قال إنه سيأتيني هذه المرة بهدية، فما اهتممتُ بمعرفة مقصده. غاب قرابة شهرين، قضيتهما هنا متوحِّدةً بحجرتي. كانت نعسةُ تأتي في أحيانٍ قليلة، فتجالسني ساعةً تشكو فيها زوجها، ثم تذهب عني فأعاود انفرادي بين الجدران الجاثمة على صدري.. عادتِ القافلةُ من مصر مع انتصاف الصيف، فكانتِ المفاجأةُ التي ذكرها زوجي. جاء بأخي بنيامين.

صحوتُ في تلك الصبيحةِ الساكنة، على صوتِ الصبية ينادونني

من قاع السيق. خرجتُ إلى الشرفة، فرأيتُ زوجي يسير أمام رجلٍ يتلفَّت.. هذا بنيامين.. نزلتُ الدرج مسرعةً، فاحتضنتُه بشوقٍ عميمٍ وعينين تهميانِ. سرنا خلف سلومة، يحوطنا الصبيانُ والصبايا الصغيرات، فارتقينا الدرج إلى شرفتي. وبعد طعامٍ يسيرٍ، تركنا سلومة وخرج إلى مرابط البغال ومُناخ الإبل، ليطمئن على الأحوال ويسلِّم على أهله.

بعدما انفردنا، قال بنيامين إنني تغيَّرتُ في هذه السنوات الخمس، وصرتُ كالعربيات. كأنه هو الذي لم يتغيَّر. لم أخبره بأنه صار رجلًا، وصار أطولَ وأجملَ، لكنَّ عينيه يسكن فيهما الحزنُ القديم. سألته متلهفةً عن أمي فسَكَتَ، ففزعتُ، فهمس بأنها تنيَّحتْ، فصرختُ والألـمُ يعصرني بأيدٍ من حديد.

جاءتْ نعسةُ ونسوةٌ وراءها، لتعزيتي، ونزل بنيامين إلى الغرفة الوسطى ليرتاح من سفره. اتصل بكائي وسط النسوة، وطال، بلا حاجةٍ لنادباتٍ يَنُحنَ حولي، ليستجلبن دمعي.. عاد سلومة بعد الغروب، فصرف المعزِّيات وجلس بقربي يواسيني بالسخيف من الكلام المعتاد: الموتُ نهاية كل حيٍّ. الحزنُ يولد كبيرًا ويصغر رويدًا. يموتُ الكبيرُ ليكبر الصغيرُ. الصبرُ دواءُ المآسي وجالبُ السلوان. الحيُّ أبقى من الميت.. سكت برهةً ثم قال بصوتٍ خفيضٍ، إنها هلكتْ بمرضٍ عضالٍ قبل عام، ولم يشأ وقتها أن يخبرني.

ـ *ولماذا كتمتَ عني الخبر؟*

ـ رأيتُ الإرجاءَ أنسب.. والآن استفيقي، فإن أمرًا فادحًا سوف يقع.

ـ وهل هناك ما هو أفدح مما وقع؟

ـ نعم. أخوكِ يريد تَرْكَ تجارتنا، ليدخل الدير راهبًا.

قضيتُ ليلتي مسهَّدةً يتنازعني الأرقُ والقلقُ، حتى إذا اقترب الفجرُ، قمتُ فجهزَّتُ فطورًا نزلت به إلى بنيامين. وجدته جالسًا على فرشته، ولسانُه يلهج بصلوات مهموسة.. أنت يا بنيامين آخرُ الباقين لي، فلا ترحل بعيدًا، فتموت قبل الموعد. قلتُ له ذلك بعينيَّ، فلم ينتبه لما أقولُ، لاستغراقه في صلواته.. يا بنيامين لا تتركني وتذهب إلى حيث لا رجوع، وارجعْ عما تنويه رحمةً بقلبي المحزون.

أنهى تلاوته، والتفتَ إليَّ باسمًا بوجهٍ قديم، حنون، ونظرةٍ طيبة. لو كان لي ولدٌ مثله، لطار قلبي فرحًا به بين أعالي الجبال. ولو أنجبتُ طفلةً واحدة، لكانتْ عزائي عندما يفارقني المقرَّبون. ولو كنتُ معزاةً، لانفردتُ عن القطيع وناديتُ باكيةً على ذئبٍ، ليفترسني فأستريح.

أنهى فطوره، فجلستُ قبالته وقد أطلَّ الضوءُ من فوق الجبال. سألته عما أخبرني به زوجي، فأكَّده بكلماتٍ هادئة وقلبٍ ساكنٍ. سألته عن الداعي، فحكى لي ما يملأ القلب وجعًا: بطرسُ الجابي

ازداد جشعًا، والرومُ لا هَمَّ لهم إلا تحصيل الأموال من المعدمين. الناسُ تهرب إلى الصحارى، عسى الربُّ أن يُدركهم برحمةٍ منه في الأديرة البعيدة والصوامع.. كان الفرسُ يعاقبون الناس بالسجن والسياط، فصار الرومُ يؤدِّبون بلسع العقارب وعضَّات الحيَّات. يمنعون الناس من الحركة بين النواحي، ويحظرون مفارقة الكفور والبلدات، ومَنْ يُخالف أوامرهم يُقتل..

سكت قليلًا، وابتلع بمرارةٍ ريقه، ثم قال: الآباءُ الكبارُ يهربون إلى جهاتٍ بعيدة، فرارًا من أسقفٍ ملكانيٍّ رهيبٍ، جلبه لنا الرومُ أواخر الخريف الماضي، من جهة القوقاس. أرسلوه إلينا ليحكم البلاد، ويُشيع الرعب في قلوب اليعاقبة الفقراء. الأسقفُ القوقاسي اسمه قيرس، والناسُ تسمِّيه المقوقس. بعد وصوله بقليل، قتل في الإسكندرية ألوفًا من الفقراء، لأنهم لم يرتضوا الدخول في مذهبه. البسطاء من أهلنا، الذين قُتلوا، لا يعرفون أصلًا مذهبهم. لكن الآباء الذين هربوا قالوا لهم، إن الموتَ أهونُ من مخالفة المذهب.. ذهبتْ أمي إلى جوار الربِّ، وهي تتمنَّى أن ترى حفيدًا، فما اهتممتُ برغبتها لانشغالي بالتجارة مع العرب، وجَمْع الدراهم والدنانير.. اتسع البيتُ بآخر الكَفْر وصار مسكنًا كبيرًا، لا سكينة فيه، لكثرة وارديه من التُّجَّار. تحتشد الدواب وزكائب البضاعة في حوشه الذي كَبُرَ، فصغُر.. لا أريدُ أن أتزوَّج، وما عاد المال يُلهيني عن ملكوت السماوات.. لن أدع متاعَ الدنيا يخدعني، ويبعدني عن

انتظار المخلِّص.. سأنتظرُ في الدير الخلاص، وأُحصِّلُ السكينة الأبدية.

ـ *يا بنيامين، أرجوك، أنت آخرُ الباقين لي في هذه الدنيا.*

ـ *الآخرةُ أهمُّ من الدنيا. ولا فائدة يا مارية من الكلام، فقد حسمتُ أمري، وأتيتُ لكي أراكِ للمرة الأخيرة.*

رحل بنيامين بعد يومين، بعدما ودَّعني وداعَ المفارقِ للأبد. كان زوجي يستعد لزيارة يثرب، كي يبايع النبيَّ القرشيَّ ويدخل معه في الدين الجديد. يسمونه الإسلام. لكنه لم يسافر، فقد وفدتِ الأخبارُ من جهة الجنوب، تؤكِّد أن النبي مات.. دارتْ حروبٌ كثيرة في أنحاء الجزيرة، لأن بعض القبائل ارتدَّت عن الإسلام، فحاربتها القبائلُ التي لم ترتد.. صار أمر المسلمين بيد رجل منهم، اسمه أبو بكر بن أبي قحافة، سار على نهج النبي وأرسل جيشًا إلى ناحيةٍ قريبةٍ من هنا، اسمها البلقاء.. الذين ارتدوا عن الإسلام، وحوربوا، عادوا إلى الدين.. سلومة ينامُ محتضنًا سيفًا، وينادي بأسماء رجال لا أعرفهم، ويهذي كثيرًا بكلمات من مثل: الحرب، وقت الإسلام، ربح، حان، نَبيّ، أوان السفر.

مع انتهاء الصيف الحارق، خرج زوجي وأخوه مالك إلى يثرب، في غير تجارة. قال إنه ذاهبٌ إلى هناك ليعلن إسلامه، فقلتُ له أعلنه هنا، فضحك وهو يقول: *أنتِ لا تعرفين شيئًا، ولكنِّي أحبُّك لأنَّك طيبة*.. أثار بكلامه كوامنَ نفسي، وحيَّرني. لكنه تأخَّر كثيرًا، وجاء.

بعد ستِّ سنواتٍ من زواجنا، ليقول إنه يحبني لأني طيبة.. نظرتُ في نفسي، لأرى إن كنتُ حقًّا طيبةً كما قال، أم تُراه يتوهَّم؟ فرأيتني محطَّمةً، لا طيبة ولا شريرة.

أخوه مالك هجر زوجتيه، وخطب قبل خروجه إلى يثرب، فتاةً يهوديةً في العشرين من عمرها، لم يسبق لها زواج. رأيتها مع سارة، الحبلى من جديد، تجلسان تحت الشجيرات التي بآخر السيق، وتضحكان. البنتُ أطول مني، وبيضاء، وتضع على وجهها المساحيق. في عينيها الواسعتين ميوعةٌ أصيلة، وفي مشيتها دلالٌ يحبُّه الرجال، وفي كلامها لُكْنَةٌ وإعجامٌ. استغربتُ أول الأمر اسمَها، إستير، وتذكَّرتُ أيامًا بعيدة.. جلستُ معهما ساعةً، بالسيق، فعرفتُ أن مطابقة الأسماء، لا تعني المشاركة في الصفات.

هند عادت إلى أهلها بجنوب الجزيرة، ودخلتْ شُقيلة وأطفالها إلى السيق، فسكنتْ كهفًا يجاور نعسة. مدُّوا أمام الكهفين خيمتين، فصار مدخل السيق آهلًا بالسُّكان، عامرًا طيلة النهار بالزُّوار.. نعسةُ حَبَلتْ من زوجها اليابس، وانتفخ بطنها مع دخول الشتاء، وسمنتْ، فصارت مثل النساء الكبيرات.. التحتانيات يحطن دومًا بصفا، في المربوعة، وأطفالهنَّ يمرحون في أنحاء المربع الذي امتلأ بالخيام، وامتلأت أجواءُ نهاره بروائح الطَّبْخ والناس وروث الأغنام. لم يعد المرتع الذي كان، فلم أعد أخرجُ كثيرًا إلى خيمة النساء. الحبسُ أنسبُ للحزانى، والمحرومين. لكن احتجابي غير تام، لأن بيتي

مكشوفٌ بالشرفة الواسعة، ولا أكاد أطلُّ منها أو أقترب، إلا وأرى في السيق نسوةً يتحدَّثن أو أطفالًا يلعبون.

أنا تائهةٌ هنا.

* * *

اعتدتُ المبيتَ وحدي، على ضوء القنديل، والبقاءَ أيامًا في البيت منفردةً، بلا أنيسٍ، ولا بخورٍ. مع دخول الشتاء، عاد زوجي وأخوه مالك من يثرب، وقد صارا مُسلمينِ. تزوَّج مالكٌ البنتَ اليهودية، إستير، وسكن خيمةً كبيرة أقامها في آخر الساحة المجاورة للمجلس، وراء خيام الضيوف. اشترى إبلًا كثيرة وأغنامًا، لأنه لن يعود إلى الشام. قالتْ لي شُقيلة إنه باع بيتها هناك، لأن الأحوال مضطربةٌ، والمسلمين يجهِّزون جيشًا كبيرًا لغزو الشام، أو غزو العراق. شقيلةُ تتصيَّد أخبار مالك، من الصغار والكبار، لكنها تؤكِّد أنها مرتاحةٌ بين أطفالها. ثم تبكي.

النبطي هجر حجرته المسماة المجلس، هربًا من الصخب المحيط. اتخذ خيمةً في الساحة الأبعد من الساحة المقابلة للمربع. هي ثنيةٌ واسعة في الجبال، مساحتها في مثل مساحة المربع، تقع على يمين الداخل إلى هنا من ناحية السهول.. سوف يعيش هناك، وحدَه.

طلب مني زوجي أن أدخل معه في الإسلام، فسألتُ كيف؟ فقال:

اشهدي أن لا إله إلا الله. قلتُ كما قال، فابتسم وهو يقول: *أنتِ الآن مُسلمة، وسوف يدخل الإيمانُ رويدًا إلى قلبك، مع مداومة العبادات*.. سكت لحظةً، ثم أخبرني بأنه أقلع عن شرب الخمر؛ لأنها محرَّمة، فأدركتُ سببَ اختفاء رائحة فمه. كانت الخمرُ تلهبُ بطنه، فيصعد منه البخارُ الكريه.. فعل خيرًا إذ أقلع.

في عُرس مالك واليهودية، لم يكنِ الحاضرون يبتهجون مثلما هو الحال في الأعراس، ولم يأتِ ضيوفٌ كثيرون. شقيلةُ وأطفالُها اعتصموا بكهفهم، ولم يوقدوا قنديلهم.. رأيتُ يوم العرس يهودًا كثيرين، رجالًا ونساءً وأطفالًا من كل الأعمار، يمرون من أمامنا في جماعات. كنت جالسة عند مدخل السيق، بجوار نعسة وأخيها جندب الذي كانوا هنا يسمُّونه «فرخ الجن» لكنه الآن صار يافعًا وما عادوا ينادونه بهذا الاسم.

رجالُ اليهودِ هادئون، وتحوطهم دومًا سحابةٌ من بؤس، وهم عادةً عابسون. حين يمشون، يتلفَّتون حولهم كأنَّهم خائفون.. سارَّةُ مرَّت أمامنا في ثوبٍ ملوَّنٍ، منقوشٍ، ومن خلفها أخوها الطويل الذي اسمه سِنان. أتتْ نحونا وحدها، وعلى كتفها ابنتها الرضيعة، وفي بطنها طفلٌ يبدأ التكوين. ألقتْ علينا التحية بمودة، فردَّتْ نعسةُ ببرود.

مالتْ سارَّةُ على رأسي فقبَّلتني، ثم مضتْ إلى موضع العرس، فخورةً ببطنها. لحق بها عميرو، وهو يهمُّ في خطوه. رأيناه من بعيدٍ

وهو يعبر المربع إلى الساحة، وفي يده عصاه، وقد صارت له هيئة الرجال. الظلامُ ابتدأ هبوطه، وأحاط. علا في الهواء دخانُ الشواء، وفاحتْ رائحةُ لحمٍ يُشوى، ودُهنٍ يحترق. في داخل السيق، نام الأطفالُ وبقيتْ شُقيلةُ وحدها، تبكي.

لم تخرجِ القوافلُ هذا الشتاء إلى أيِّ موضع، لأن الحروب تهدِّد النواحي من حولنا. مَكَثَ الجميعُ هنا، متحشِّرين، وقد ازدحمت بهم الأماكن كُلُّها.. في آخر الشتاء، أخبرني زوجي في ظهيرة هادئة، أن أخي بنيامين أعطاه مفتاح البيت. لم أفهم ما يريد أن يقول، فقلتُ له: حسنًا فعل. سألني إن كنتُ أتذكَّر حاطب بن أبي بلتعة؟ فقلت: إنه الرجل الذي قتل الغزال قبل سبع سنين، فهل يريد الآن شراء البيت؟ ضحك برفق وهَزَّ رأسه نافيًا، ثم تزحَّف نحوي كمن يُوشك أن يُدلي بسرٍّ خطير. قال متهامسًا، مع أننا بالبيت وحدنا، إنه سيلتقي بحاطبٍ حين يكتمل البدر، ببلدة أَيْلة، ثم يذهبان مع جماعةٍ من المسلمين، إلى مصر.

ـ ولماذا ترحلون في الحرِّ الشديد؟

ـ الأمرُ مُهمٌّ، وعاجل.

أثار انتباهي، فاستمعتُ بإنصاتٍ إلى كلامه الكثير الذي عرفتُ مفرداته، ولم أفهم مجملاته: خليفةُ النبي، أبو بكر، صالح والي الفرس الذي يحكم اليمن، على مال يدفعه، على أن يدعه المسلمون يحكم البلاد إلى أن يموت، حتى وإن سقط سلطان الفرس في كل

البلاد أو غلبهم المسلمون. ولسوف يصالحون المقوقس على الشرط ذاته، والناسُ في مصر على كل حالٍ يكرهونه، وهرقل لا يحبه. وأميرُ الحرب ابنُ الوليد تحرَّك إلى دومة الجندل، بجيشٍ كبير، يريد أن يقتطع بادية الشام من يد الروم. وأميرُ الحرب ابنُ العاص، الذي قابلناه قبل سنين عند القلزم، يمرُّ اليوم من وادي عَرَبة على رأس جيشٍ كبيرٍ، يزحف إلى فلسطين، ومع الجيش خيلٌ كثيرة من خيول الحرب.

ابتلع زوجي ريقه، ثم استكمل كلامه وهو يحدِّق نحو الحائط المقابل والشرفة: *طُرُق التجارة ما عادتْ آمنةً للقوافل، ومالكٌ سوف يذهب غدًا على حصانٍ، إلى أطراف الشام وفلسطين، فيدعو وجوه اليهود وكبار رجالهم المتوارين هناك، كي يلتقوا هنا في الشتاء القادم، مع أمراء حرب المسلمين، ويمهِّدون لهم دخول النواحي.*

ـ لكن المسلمين يقتلون اليهود؟

ـ لا .. كان هؤلاء أهلَ يثرب وخيبر، وكانوا يؤذون النبيَّ محمدًا، وخانوه، فحاربهم وطردهم. يهودُ الشمال أهمُّ من هؤلاء الهالكين، وأعرقُ في اليهودية. أبو سارَّة امرأةِ عميرو، واحدٌ منهم.

ـ لهذا أراها متفاخرة..

ـ دعينا الآن من حَكْي النساء.

قبل خروج سلومة إلى أَيْلة، بيوم واحدٍ، دعانا الهوديُّ للغداء معه في خيمته، على غير عادته. في طريقنا إليه، رأيتُ في المربع وجوهًا لا أعرفها، وفي الخيمة أخبرني عُميرو قبل الغداء، بأن التحتانيين صعدوا جميعًا إلى المربع، فلم يبق منهم ساكنٌ واحدٌ بمهابط السيول. وكذلك فعل اليهودُ الذين كثروا هنا، حتى قارب عددهم الألف إنسان، يخيِّمون بحوافِّ المربع.. *ابتسم عميرو وهو يذكِّرني باليوم الذي سألته فيه عن بلدتهم، قائلًا: ها هي مضاربنا، قد صارتِ اليوم بلدةً.*

كان عميرو يضع أمامه عصا غليظة، ناعمة الملمس، من خشب الشوْم الذي يأتون به من نواحي الحبشة. يسمون الواحدة منه شومة. لمستُ الخشبة، وراقني سطحها الناعم ولونها المشرق، فسألته عن سبب إمساكه بها في كل الأوقات. قال إنه خشبٌ أصلبُ من الحديد، يكسِّر الضلوع عند العراك، مع أنه خفيف الوزن. وهو يحملها دومًا بيده، فرحًا بها، لأنها أنسبُ له من السيوف والحراب.. لا يزالُ عميرو ولدًا.

أكلنا بلذَّةٍ لحم طيرٍ، قالوا إن سارة وأهلها طبخوه. ساعة العصر، أعطاني الهوديُّ أمام زوجي صُرَّةً، قال إن بها واحدًا وخمسين وأربعمائة دينار. هي مالي عنده، وما آل إليه من ربح التجارات في السنوات الماضية. أضاف بنبرته الهادئة الحزينة، أن القوافل سوف تتوقَّف إلى حينٍ، حتى يعود الأمنُ للمسالك بعدما تسكن الحربُ.

صاح عُميرو منفعلًا بلا داعٍ: *سوف تدور رحى الحرب زمنًا طويلًا، فالمسلمون عازمون على امتلاك المشارق والمغارب.*

نظر إليه أبوه بضيقٍ فسكتَ متحرِّجًا، ثم غيَّر وجهة الكلام بأن سأل زوجي، عن سر سفره في الغد إلى الجنوب، فقال له وهو يبتسمُ: سوف أخبرك بعد عودتي.. أخذتُ صرةَ المال الثقيلة، وقد أصرَّ اليهوديُّ على أن أَعِدَّ ما فيها من دنانير، فكان عددها كما قال. في بيتنا سألتُ زوجي عما أفعل بهذا المال، فقال خبِّئيه هنا ولا تفعلي الآن أيَّ شيء، وسوف يأتي الأوانُ المناسب.. في الصباح الباكر خرج إلى رحلته، وقبل أن يقبِّلني أخبرني أنه قد يتأخَّر شهورًا، لأنه سوف يرجع من مصر إلى يثرب، وقد يذهب إلى مواضع أخرى.

* * *

بعدما اعتاد اليهودُ والتحتانيون المجيء نهارًا إلى السيق، انتبهوا إلى مناسبته للسُّكنى. ما ردَّهم أحدٌ، فامتلأتِ الغرفُ المنقورة والكهوفُ بالآهلين. مع مَرِّ الأيام، ومُرِّها، يأتي منهم سكانٌ جددٌ، يغزون موضعًا ويسكنون فيه. النجَّارُ أقام بوسط السيق، يصنع بابًا لهؤلاء ولأولئك نافذةً، فيتصل صخبُ المكان في النهار والليل.. لم تعد الهداهدُ وبقية الطيور، تحطُّ في أرض السيق. طيلةَ اليوم تزعق الأمهاتُ، ويتنادى الأطفالُ ويصخبون، فيزعجوني ويُفزعون الطير. وفي المساء يبدأ نباحُ الكلاب وعراكها. بقيت وحدي شاردةً، نهاري وليلي، أُسائل نفسي وقد فارقني المكانُ: أين روحي التي سُلبتْ؟

في صبيحةٍ دافئة، ناديتُ النجَّار ليسدَّ عليَّ الشرفةَ بألواحٍ من الخشب، تمنع عني رائحةَ السيق وزهومةَ ما يطبخون، وتُخفتُ الضجيجَ. طلبتُ منه أن يترك في الجدار الخشبي، نافذةً صغيرة، ليدخل منها الهواءُ إذا فتحتها. للنجار عينانِ غيرُ بريئتين، وقلبٌ لا يتَّقي الآثام. وهو يسيِّل من لسانه معسول الكلام، ويرمقني بالنظرات التي تعرف معناها النساءُ، طلب مني أربعة دنانير ونصف دينار، مقابل الأخشاب والصنعة. استشرتُ صفا في الأمر، فاستدعته وأخبرته آمرةً أنه سيأخذ مني دينارين فقط، فوافق راضيًا وأتمَّ العمل. كان يريد أن يخدعني، ويأخذ ما لا يستحق.

هم يأتون بالأخشاب من نواح بعيدة، على ظهور الإبل، ولهم في صنعة الأبواب والنوافذ ومداخل الكهوف، طريقةٌ عجيبة. يأتي النجارُ ومساعِدُه بجذوع الأشجار الكبار، وأفلاق النخل، ويدور بها على حوافِّ الفراغ المراد ملؤه، فتصير كالحلْق. ثم يَرُمُّ ما بين الأشجار والحلوق، بعجين الجير والرمل وأتربة أخرى، ويملأ الفراغات بقطع الخشب والأحجار. حتى إذا استقام الحلق واستوت قوائمه، دَقَّ فيه ألواح الخشب بالمسامير، وجعل له الباب المراد أو النافذة.. استغرق الأمرُ أسبوعًا، قضيته في المربوعة، بعدما خَبَّأْتُ بالبيت أشيائي، كيلا أبقى في البيت مع النجار خلال النهار، وحدي. بعدما انتهى من عمله، عدتُ فسكنتُ في حجرتي وقد صارت كالصندوق.

صرتُ ساكنةً في معظم الأوقات. أطلُّ نهارًا من النافذة، فأرى السيق وقد صار مثل الكفور الكبيرة. وفي الليالي الطوال أستلقي تحت السقف المقبَّب، وأتقلَّب على جمر وَحْدتي وحُرْقتي، حتى تنفُذ فيَّ رائحةُ الحوائط العتيقة.. أطال زوجي غيابه حتى كدتُ أنساه، ثم عاد بعد عشرة شهور، وقد ازداد نحولًا واختلف حاله. جاء على ظهر حصان وناداني من أرض السيق، فرأيته من النافذة جميلًا. ذيله ذكَّرني بنعومة شعري، أيام كنتُ أمشِّطه كل يوم، وأغسله بعصارة الصبَّار. ليلى علَّمتني ذلك.

بعد العشاء انفردنا، وقصَّ عليَّ سلومة القصص. قال إنهم عقدوا الصلح سرًّا مع المقوقس، ثم أخذوا العهود من العرب الساكنين منذ ألوف السنين، بالجهات الشرقية من نهرنا. وعادوا إلى يثرب، بما حصَّلوه من هدايا وأموال، فأقام هناك أيامًا ثم خرج مع المسلمين غازيًا، وشارك في وقعةٍ غَلَبَ المسلمون فيها الروم، وغَنِمَ.. لم يقُل إنه اشتاق إليَّ.

بعد أسبوعٍ سافر سلومة ثانيةً، في غير تجارة، فعدتُ لوحدتي واحتمائي بحجرتي المحكمة، فكنتُ مثل دجاجةٍ وحيدة.. لما التهب الصيفُ، عاد سلومة ومعه المزيد من الأخبار. في ليلته الأولى أخبرته بأشياء وأخبرني بأخرى، وبقينا نحكي الحكايات حتى أطلَّ الفجرُ: أميرُ المسلمين أبو بكر، مات، وتولَّى مكانه رجلٌ مشهورٌ بشدَّته، اسمه عمر بن الخطاب العدوي. سارةُ أسقطت

حملها وحبلت من جديد، ونعسةُ أنجبت بنتًا وزوجُها مريض منذ شهرين، ويقولون إنه سوف يموت قريبًا. استجاب هرقل لإلحاح أساقفته، وأصدر مرسومًا يُجبر اليهود على ترك ديانتهم والإيمان بالمسيحية، وإلا قتلهم المسيحيون واستباحوهم. المسلمون يدفعون غير المسلمين من الجزيرة، لأن النبيَّ قال لهم في مرض موته: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب. الكنيسة التي خلف خزنة الفرعون، هُجرتْ وأُغلقتْ، والقسُّ رحل إلى بلدة اسمها الكَرَك. إستير حُبلى. أمراءُ حرب المسلمين يقودون آلاف المقاتِلة، فرسانًا ورُكبانًا، ويضربون بقوةٍ حدود دولة الروم، بعدما كانوا يلسعونها لسع الزنابير.

* * *

بعد وصول زوجي بأيامٍ مات الرجل الذي تزوَّج نعسة، فأقاموا خيمةً لعزاءٍ امتدَّ أسبوعًا، لم يأت فيه مُعزُّون كثيرون. لم أرها تبكي زوجها أو تنتحبْ، لكنها بدتْ لي كالمصدومين. وسكن في عينيها حزنٌ دفينٌ، أعرفه.

بعد انتهاء العزاء، رحل سلومة إلى أيلة وغاب هناك شهرًا، ثم عاد يحملُ لي الكثير من الهدايا، من غير مناسبة: مِكْحلةً بديعةً نُحاسُها كالذهب الجديد، وقطعتين من قماشٍ ملوَّن، وعطرًا أسود في زجاجة، وفُرُشًا من الصوف، وقنديلًا نُحاسيًّا كبيرًا.. بعد وصوله بيومين، أرسلتْ صفا ساعة الظهيرة صبيةً تناديني، فخرجتُ إليها

أخوض بين الأطفال والأغنام. المربوعةُ لم تعد كاشفة لما حولها، لما حولها من خيامٍ كثيرةٍ تحجب السهول البعيدة والجبال القريبة.

سألتني صفا إن كنتُ جائعةً فنفيتُ، فصرفتْ من حولها النساء وانفردتْ بي. نظرتْ في عينيَّ كأنها تبحث فيهما عن شيءٍ مستترٍ، أو تُريد إخافتي، ثم قالت إنها قلقةٌ على أخيها لأنه لم ينجبْ مني، ولا يريد أن يتزوَّج بغيري، مع أن في بيته ثلاثَ حجرات. قلتُ لها وقد اضطربتُ: وما شأني؟ فقالت: أنت تمنعينه عن الزواج، بما تقومين من أعمال السِّحْر.

ـ ماذا؟

ـ الجميعُ يعلمون أن المصريات يسحرن للرجال، فكُفِّي أعمال سِحرك يا ماوية، ليُرزق أخي بالبنين.

ـ لكني لا أعرف السِّحْر.. سلومة هو الذي لا ينجب.

ـ اخرسي يا سافلة.

قمتُ من فوري فعبرتُ المربع بخُطى التائهين، واحترت عند نهايته. هل أذهبُ يسارًا فأدخل السيق وأوقظ زوجي فأشكو إليه، أم أنحرفُ يمينًا إلى خيمة النبطيِّ بالساحة الأبعد، فأحكي له ما كان من أخته.. إلى أين أمضي؟ أنقذني عُميرو من حيرتي، حين *نادى عليَّ من ناحية حجرتي الأولى: يا خالة، مَا لكِ تتلفَّتين، هل تبحثين عن شيء؟*

ذهبتُ إليه، وحكيتُ له الكلام باكيةً، فقال بنبرةٍ عطوف: لا عليكِ، هذه عمَّتي صفا تريدُ أن تتحكَّم بالمكان، وتكون مثلما كانت جدتي. لكنها طيبة القلب. لا تذكري ما حدث لأحدٍ، ولسوف تنساه هي بعد حين. أم تريدين أن أحدِّث أبي في الأمر، لعله يردُّها عنك؟

- لا يا عميرو، لا داعي لذلك. لكني وحقِّ العذراء، لا أعرفُ شيئًا عن أعمال السحر.

- لا عليكِ من ذلك يا خالة، لا عليكِ.

صرف عميرو الكلام إلى وجهةٍ أخرى، كعادته، بإخباري بأن كبار اليهود وأمراء الحرب المسلمين، سوف يصلون غدًا ويجتمعون هنا بالمجلس، ولا بدَّ أنهم سيقرِّرون أمورًا أهمَّ مما يشغل بال عمتي صفا.. سكت برهةً كأنه يفكِّر، ثم قال وهو يبتسم بسمته القديمة: لا تُقسمي ثانيةً إلا بالله، ولا تقولي لأحدٍ إن زوجك لا يُنجب، فهذا عندنا من المعايب الداعية إلى احتقاره، وهو لا يستحق ذلك منّا.

* * *

دام كلامُ المسلمين مع اليهود أيامًا، لم أخرج فيها من حجرتي، ولا سألتُ زوجي عما اتفقوا عليه. كان مشغولًا معهم، فلم أزعجه بأسئلةٍ أو بأيِّ شيء. إذا انزعج سيطلِّقني، ولن تمنعه أعمالُ السِّحر التي تتوهَّمُها أختُه. بعدما انفضَّ اجتماعهم، بأيام، جاء عميرو إلى السيق ساعة العصر، ليصحب سارة من مجلس قريباتها، إلى خيمته.

رأيته من نافذتي فاستوقفتُه ونزلت إليه، وجلسنا على الأرض عند مبتدأ الدرج. سألته عما جرى بين المسلمين واليهود، فقال إن أمير الحرب ابن العاص كان هنا، ومعه جماعةٌ من كبار القوم، وقد أمروا اليهود بالنـزوح إلى مصر في جماعات صغيرة، كيلا يلفتوا الأنظار.. ما كدتُ أستفهم منه، حتى أقبل سلومة نحونا بحصانه. قام عميرو ليسلِّم عليه، فدعاه إلى الغداء معنا، وصعدنا الدرج. لم تأتِ معنا سارةُ، الحبلى، لأن اليهود لا يأكلون ما يطبخه الآخرون، مع أن الآخرين يأكلون الطعام الذي يطبخونه.

بعد الغداء قال زوجي لعميرو، وأنا أسمع، إن ما اتفق عليه أمراءُ المسلمين مع كبار اليهود، هو أمرٌ لا تجوز إذاعته. استفهمتُ منه، فقال وعميرو يسمع: سوف *يأخذ اليهودُ أهلهم إلى مصر، فيخلصون من مذابح النصارى بالشام. والقبطُ في مصر ضعفاءُ، ولن يذبحوهم إذا ساكنوهم. فإذا جاء أوانُ غزو مصر، ولا بُدَّ أنه آتٍ عن قريب، تحرَّك اليهودُ مع الأنباط وبقية العرب الساكنين بمصر، ومهَّدوا للمسلمين دخول البلاد، وعاشوا فيها من بعد ذلك آمنين.*

قمتُ فأوقدتُ القنديل الموضوع على نتوء الحائط، لأن الضوء صار يأتي ضعيفًا من النافذة. طلب مني سلومة أن أوقد القنديل الآخر، المعلَّق، فامتلأتِ الحجرةُ ضياءً.. بدا سلومة راضيًا وهو يقول لعميرو: *اسمعْ يا ابن أخي، طُرُقُ القوافل الآن معطَّلة، والأسواقُ كاسدة. ولسوف أقتني عددًا من الخيول، ثلاثين أو أكثر،*

وأعهدُ لخبيرٍ بتدريبها على القتال، وكلما غزونا بموضعٍ أجَّرتُ الخيل للمقاتِلة، فيكون لي سهمُ الفارس. فالغنائمُ تقسَّمُ، سهمًا للراجل وسهمين للفارس. فيكون من ذلك خيرٌ كثير. والخيل تتناسلُ، والخيرُ معقودٌ بنواصيها. فما رأيك أن تشاركني؟

- على بركة الله يا عمَّاه. سأنظرُ ما معي من مال، وأدخلُ معك في الأمر بخمسة أفراسٍ، وربما بأكثر من ذلك.

لا أعرف ما الذي دهاني، فدعاني لاقتحام كلامهما بقولي إني أريد الدخول معهما، وعندي مالٌ لذلك. هَزَّ زوجي رأسه راضيًا، وضحك عميرو بوقارٍ غير معهود فيه، وهو يقول: *مالُ الخالةِ ماوية حلالٌ كله، ومُباركٌ.. ثم أزاح قَصْعة الثريد جانبًا، ووقف وهو يطلب مني ماءً للوضوء، فاندهشتُ.*

قاما للصلاة على ضوء القنديلين، فكانت خيالاتُ قيامهما وقعودهما وسجودهما، تقع على حوائط الحجرة مهولةَ الحجم. صلَّى زوجي ووجهه إلى جهة الجنوب، وإلى جواره عميرو، وهما يغمضان الأعين ويهمسان بكلامٍ من القرآن.. بعدما انتهيا، نبَّهني سلومة إلى أن الهوديَّ لم يعلم بعدُ بإسلام عميرو، فلا يجب إخبار أحدٍ حتى يحين أوانُ الإعلان. أضاف بهدوء، أن عليَّ إذا قامتِ الصلاةُ، أن أتوضَّأَ وأصلِّي خلف المصلِّين، ما دمتُ غير حائضٍ.

بعدما نزل عميرو، وأغلقتُ خلفه الباب. أوقدتُ على الأرض

القنديل النحاسي الجديد، ساطع الضوء، وصعدتُ إلى القنديلين القديمين المعلَّقين بأعلى الحائط، ونزلتُ بهما ونفختُ فأطفأتُ الفتائل. سلومةُ ينظر نحوي مندهشًا. جئتُ بآنيةٍ معدنية قديمة، أفرغت فيها ما كان بالقنديلين الكبيرين من زيتٍ، ودنانير.

أنتِ والله ماهرةٌ، وماكرة، تخبِّئين الذهب أمام العيون.

لا أحد يأتي لبيتنا، إلا نادرًا، وأنا نادرًا ما أخرجُ. وهذا الزيتُ، يحفظ لمعان الدنانير.

مسحتُ عن النقود الذهبية الزيتَ المسودَّ بقطعةٍ من كتَّان قديم، ووضعتها في الكيس الذي كانت فيه، ومددتها إلى زوجي.. فجذبني باسمًا إليه.

* * *

خرج زوجي مع جماعة من التحتانيين، لشراء خيول الحرب من النواحي البعيدة، والقبائل الساكنة بأطراف الشام وحوافِّ العراق. قال قبل رحيله إنه قد يغيب شهورًا، أخرى، فداخلني خوف.. سوف يتركني بلا مالٍ ولا آمالٍ، ولا انتظارٍ إلا لرجوعه سالمًا. سألته عن الدير الذي ذهب إليه بنيامين، فقال إنه لا يعرفه. لكنه يقع في الناحية الغربية من مصر، وهي صحراءُ قاحلةٌ فيها أديرةٌ كثيرةٌ للرهبان على اختلاف كنائسهم، نصارى وسريانَ وأقباطًا يعاقبة وأقباطًا ملكانيين.

ليلة خروجه أخذني للعشاء في المربوعة، فسلَّمتُ على صفا كأن شيئًا لم يكن. كان النبطيُّ والهوديُّ حاضرين، وحولنا كثيرٌ من النسوة. تحلَّقنا حول قصعتين فيهما لحمٌ وثريد، فانتحى النبطيُّ عنا وفي يده رغيفٌ، راح يأكل منه على مهلٍ بزاوية المربوعة، ويُلقي منه قطعًا لكلبيه. الكلبان كبر سنهما، وسقط عن ظهريهما شعرٌ كثير.. بعد العشاء، اتكأ زوجي بكوع ذراعه على وسادة من صوف، وجال بفكره في نواحٍ بعيدة، وقد بدا راضيًا بالليلة القمراء والهواء اللطيف. وحين هدأ المساءُ وسكنتْ من حولنا الأصواتُ، اعتدل في جلسته وقال مخاطبًا أخته والحاضرون كلهم ينظرون: *اسمعي يا صفا، قد أخبرني حاطبُ بن أبي بلتعة، أن النبيَّ محمدًا قال: «يُزَوَّج المؤمن في الجنة اثنتين وسبعين زوجة، سبعين من نساء الجنة واثنتين من نساء الدنيا».. وأنا يا أختاه، لا أشتهي من نساء الدنيا ولا الآخرة، إلا امرأتي هذه.*

رَيْطة

عمَّتِ الفرحةُ الأنحاء يومَ أنجبتْ سارةُ ولدًا. اختار له جدُّه الهوديُّ اسم نوح، واحتفل بوليمةٍ كبيرةٍ ذبح فيها خروفين، ودعا إليها المهنِّئين. أهلُ سارة أعدُّوا من الطعام ألوانًا بديعة، وصنعوا حلوى كثيرة لا مثيل لمذاقها. هم مَهَرَةٌ في إعداد الطعام. قبل العشاء جلست سارة في المربوعة، متربِّعة، وفي حِجْرها الوليدُ الجميل. مِلتُ عليها فقبَّلتُ وجنتيها، ووضعتُ على بطن الوليد دينارًا يلمع، أخذتُه من الدنانير العشرة التي تركها سلومة لي قبل سفره، وحككتُه بالرمل الناعم حتى لَمَعَ بريقُه فصار يخطف العيون. أُحبُّ من الدنانير ما يلمع، مع أن زوجي نهاني عن حَكِّ الدنانير بالرمل.. متى سأجلسُ جلسةَ سارة؟

بعدما هدأ الحفل، همست لي نَعْسةُ بأن أمها جلبتْ لها خطيبًا عربيًّا، اسمه حمزة بن لِيشرح. فقلتُ مُداعبةً: يشرح ماذا؟ فبكتْ. في طريق عودتنا إلى السيق، قالت إنها لا تريد أن تتزوج ثانيةً، لأنها

رأت الأمرَّين من زوجها الذي هلك. نصحتها أمام كهفها أن تصبر حتى ترى الخاطب، فقد يعجبها، وهي لم تبلغ من عمرها العشرين، ولن تقضي بقية حياتها بلا رجُل.. قالتِ اجلسي معي ساعة، فجلسنا نحكي الحكايات حتى اقترب الصباح.

عاد زوجي على الحصان الذي ذهب به، وقد جاء بخيلٍ كثيرةٍ قال إنها أربعون، لي منها ستةٌ ولعميرو ثمانية، وهي أفراسٌ أصيلة. ضحكتُ من كلامه وأنا أقولُ: وهل للفرس أصلٌ وفصل؟ فاستغرب سؤالي.. أمضى نصف الليل يحدثني عن أنواع الأحصنة ومزاياها، ثم وعدني أن يأخذني بعد أيام إلى مربط الخيل بالساحة الأبعد. هناك خيمة أخيه النبطيِّ. كان الليل قد انتصف، عندما اعتدل في جلسته وأخرج من جيب جلبابه كيسًا حريريًّا، وقال: زيدي ضياءَ القناديل.

قمتُ ففعلتُ ما طلب، وعدتُ لجلستي أمامه فرأيتُ بين أصابعه، ما أطلق مني شهقةَ فَرَحٍ عالية. عِقْدًا بديعًا. ثلاثةَ سلاسل من الذهب، بعضها فوق بعض، مبثوثًا فيها فصوصٌ شفَّافةٌ، لونها في لون سماء الصباح. قال إنها جواهر. علَّقتُ العِقْدَ بعنقي، وقد أسال الفرحُ من عينيَّ دمعتين، فمسح سلومة خَدَّيَّ وهو يقول: *أتبكين حين تحزنين، وحين تفرحين..* فتذكَّرتُ أمي.

استجمعتُ ذاتي التي بعثرها ابتهاجي بهديَّته، وشكرته بلساني وعينيَّ وكُلِّ كياني. في اليوم التالي، أخرجتُ المرآة ومشَّطتُ

شعري، فرأيتُ عُنقي المحلَّى بالعقد، قد صار أجمل.. قضى زوجي أيامًا في إعداد الموضع للخيول، ثم اصطحبني إلى الساحة الأبعد، فرأيتُ منظرًا حوله يسرُّ القلوب. بهرني هناك، مُهْرٌ صغيرٌ أبيضُ يدور حول سيقان أمه، وينظر حوله بعين طفلٍ صغيرٍ يندهش. أردتُ أن أمسكه، فقال زوجي انتظري حتى نفصل عنه أمَّه. سألته إن كانت سترفسني إذا اقتربتُ، فقال الفَرَسُ لا ترفس ما دام وليدها حولها، لكنها قد تعضُّك.. لم أكن أعرف أن الأفراس تعضُّ.

جاء النبطيُّ عصرًا إلى خيمته، فحيَّانا وجلس على مقربة. كان خلفه كلبٌ واحدٌ من كلبيه، يعرج. قام زوجي ومعه خادمان، ليفصل عن الفرس المهر، فمشى الصغيرُ خلفها حتى دخلوا بها إلى موضعٍ مُسيَّج، ولما أتوا به ناحيتي صهلتْ أمُّه وهَزَّت رأسها هَزَّات قوية، فقلتُ للنبطي وأنا أشيرُ إليها: ما ثَمَّ غيرُ أمٍّ وابن، للابنِ اشتياقٌ وللأُمِّ حِضن.. فابتسم بأسي.

مسحتُ على ظهر المهر مراتٍ، ثم أخذوه إلى أمه فابتهج خطْوُه، وتقافز بلطفٍ وهو عائد إليها. في مربط الخيل خدمٌ كثيرون، قرابة العشرة، قال زوجي إن منهم البيطار والحدَّاد والمروِّض، ومنهم الخدم الذين ينظفون موضعها ويضعون لها الشعير. الخيلُ لا تنامُ ليلًا إلا في الموضع النظيف، وهي لا ترعى في السهول كالإبل والأغنام، وإنما تخرج إليها كل صباحٍ لتجرى حـرَّةً، وتصعد المطالع وتهبط المنحدرات، فتقوى. التفتَ زوجي إلى أخيه وسأله

عن كلبه الآخر، فقال: تناهشته ضباعٌ جائعة في وادي عَرَبة، قبل يومين، وجرحتِ الآخر. قلتُ إنني حزينةٌ للكلب الذي مات، فردَّ النبطيُّ: لم يمت يا خالة، هو حيٌّ في بطون الضباع التي أكلته.. مطَّ سلومة شفتيه، وقال لأخيه من غير أن يُظهر الأسف والاهتمام، إن عليه العودة لسُكنى المجلس، فسوف يقلُّ الساكنون هنا رويدًا. اندهشتُ من كلامه، ولم أجد الفرصة لأسأله ساعتها عن مقصده، لأنه كان يكلِّم أخاه:

ـ *دعك الآن من الكلاب الحيَّة والميتة، وقُلْ لي: ألا تريد الدخول معنا في هذه التجارة؟ في الخيل خيرٌ كثير، وسوف تبقى طرق القوافل مضطربةً لفترةٍ طويلة.*

ـ *لا يا سلومة، لن أتاجر يا ابن أُمي بِعُدَّةِ الحرب. ولو اقتنيتُ، فستكون أبقارًا تُعطي الناس الحليب.*

ـ الحليبُ لا يُباع، يا ابن أمي وأبي، ولا يُشتري. لكن الأبقار على كل حالٍ، تلد وتتكاثر.. لا بأس.. هل تريد أن أشتري لك عددًا منها، قبل سفري؟ أخبرني إذا أردتَ. سوف أسافر بعد شهر إلى مصر، وأصحب معي بعض اليهود.

ـ *صرتَ تتاجر في الخيل، وفي البشر.*

لم أفهم كلام النبطيِّ الأخير، إلا بعد حين. في طريق عودتنا إلى السِّيق، أخبرني سلومة بأنه سيبقى هنا حتى يطمئن على خيله، ثم يعهد لعميرو برعايتها، ويرحل إلى مصر فيقضي هناك شهورًا.

ونحن ندلف إلى مدخل السيق، قال كمن تذكَّر شيئًا، إن نعسة سوف تتزوَّج بعد أيام، وتذهب إلى مصر لتعيش هناك مع زوجها.. أدهشني كلامه، واستغربتُ أنها لم تخبرني بالأمر.

في الصباح رأيتُ نعسةَ، وهي في طريقها إلى مساكن اليهود التي بآخر السيق. استوقفتها ونزلتُ لها، فسألتها والحصانُ ينظر إلينا، عن حقيقة ما أخبرني به عمُّها، فأكَّدَتْ. قالت إن خاطبها جاء بالأمس ليأخذها هي وابنتها، وسوف يسافرون بعد يومين، من دون أن يقيموا عُرسًا.. تمنيتُ لها الخير وافترقنا، فلم أرها إلا بعدما انقضى زمنٌ طويل.

صار سلومة يقضي أغلب أوقاته عند خيله، ويعود إلى البيت ليلًا على حصانه الأسود الذي اختار له اسم الشهاب، لأنه قويٌّ وسريعٌ وخاض حروبًا عديدة. هو قال ذلك. كدتُ أُحبُّ هذا الحصان، فقد كان يعجُبني لمعانُ ظهره تحت ضوء الشمس، وهو مربوطٌ عند مبتدأ الدرج الصاعد لبيتي، بسير سَرْجِه، وفكَّرتُ كثيرًا أن أركبه يومًا ما. حتى قتل الحصان برفسته، الصبيَّ اليهوديَّ المسكين، فصرتُ أهابه وأخاف من الخيل كلِّها.

وقع ذلك في صبيحةٍ شتوية، بدتْ أول الأمر هادئةً، لكنها انقلبت إلى يوم شؤم. مَرَّ من خلف الحصان صبيٌّ في حدود العاشرة من عمره، في طريقه إلى الخيام التي بآخر السيق. كان في يد الصبيِّ عودٌ نحيلٌ يابسٌ يلوح به، فاهتاج الحصانُ فجأةً وقفز من مكانه..

رفس الصبيَّ بقوةٍ، فانفزرتْ بطنه وارتمى على الأرض من فوره، وثار غبارٌ. كاد الصبي يقوم، لكن الحصان رفسه ثانيةً فشجَّ رأسه، فتفجَّر منه دمٌ كثير.. انتفض الصبيُّ على الأرض مرتين، ثم خمد مثل طيرٍ مذبوح.

دوَّتْ بين جنبات السيق صرخاتُ الأمهات، ففزع سلومة من نومه. رآني جالسة على الأرض تحت النافذة، ألطُمُ خدَّيَّ، فالتقط سيفه ونزل الدرج مسرعًا. قمتُ أنظرُ ثانيةً من النافذة، وقد اختطف الفزعُ قلبي ومزَّقه.. الحصانُ يضطربُ ويصهلُ بقوة، والجميع مضطربون في الغبار الذي ملأ المكان. أخذ سلومة الحصان من سرجه، وابتعد به عن جسد الصبي الطريح، وهو يصيح غاضبًا في أهله المتعلِّقين حوله، وكأنهم المعتدون.

أعطى الحصان لواحدٍ من التحتانيين، أظنه تيم اللات، فأخذه إلى خارج السيق. وهو يخرج به، دخل عميرو يجرى إلى حيث يقف سلومة غاضبًا، ملوِّحًا بغمد سيفه. وحوله النائحاتُ يصرخن في وجهه، وخلفهن رجالهنَّ وأطفالهنَّ الفزعون. شَقَّ الدائرة سِنان، أخو سارة، وتقدَّم نحو زوجي وزعق فيه: *ما كان لك أن تترك حصانك هنا يا سلامة..*

ارتبك زوجي ولم يردَّ، وبدا حائرًا بين النسوة اللواتي يُحطن به، والفتى المتصدِّر له. جاء من خلفه عميرو وهو يزعقُ، وضرب صدر سنان بعصاه، الشومة، فألقاه على الأرض يتأوَّه. علا صراخُ النسوة،

فطردهنَّ عميرو بعصا شؤمه من حول زوجي، وهو يزعق فيهم: إياكم والجرأة على أسيادكم يا كلاب.

* * *

دخل سلومة عليَّ وهو يصيح، حانقًا، بأنه سيطرد اليهود من السيق. رجوته ألا يفعل، فهم مساكين، ويؤنسون المكان. قال بعدما هدأ قليلًا، إنه يخشى عليَّ منهم، إذا سافر عني. فقلتُ مُطمئنةً له، لن يحدث مكروه.. وافقني بعدما وعدته ألا آكل شيئًا من صُنعهم، لأنهم قد يدسُّون لي سُمًّا. هكذا قال.

بعد يومين، أَوْلَمَ الهوديُّ في وسط السيق، وجَمَعَ أهلَه واليهودَ. وقفتُ أنظر إليهم من نافذتي. تكلَّموا طويلًا من غير صخب، ثم أشار الهوديُّ إلى زوجي، فقام وأعطى لأمِّ الفتى القتيل ثلاثين دينارًا، دِيَّةً لابنها. المالُ الذي يأسو الدماء يسمونه الدِّيَّة. أعطاها الدنانير، في الموضع ذاته الذي مات ابنها فيه، فأخذتها منه وهي تبكي.. قبل أن يضعوا الطعام، صَالَحَ الهوديُّ ابنه عميرو ونسيبه سِنان، من دون أن يعطيه مالًا، وجلسوا جميعًا يأكلون. اليهوديةُ الثَّكْلَى لم تأكل معهم.

لم يسافر زوجي إلى مصر، حسبما قال، لأن الخيل شغلته. وجاء بشيخ ضرير، يمنيٍّ، أجلسَه بوسط السيق تحت سقيفةٍ، ليقرأ القرآن طيلةَ النهار. وكلَّفني بأن أُنزِل له الطعام، مرتين، في الصباح وقبل الغروب.. مالكٌ أخذ بعض الناس وسافر بهم إلى مصر، وبقي سلومة حتى دخل الصيفُ.

لم أكن في الأيام الأُوَل، أفهمُ ما يتلوه القارئ، فهو يقرأ بسرعةٍ لا تسمح لي بملاحقته. طلبتُ منه أن يتمهَّل، ويرفع صوته، فوافقني وهو يأخذ مني فطوره، وقال وكأنه يبتسم: لا تحرِّك به لسانك لتعجل به.. فكنت بعدها *أُنصتُ، من حُجرتي، فأفهم معظم الكلام. القرآنُ بليغٌ، مُدهش.*

مع اشتداد الحرِّ خرجتِ الخيولُ والمحاربون، إلى نواحي الشام والعراق، وغابوا هناك شهورًا. خرج معهم سلومة وعميرو، وعديدٌ من أقاربهم الذين أسلموا. الهوديُّ والنبطي ظلا هنا، لكنني لم أرهما إلا قليلًا، لأنني احتجبتُ بحجرتي أغلبَ الأوقات، وتشاغلتُ عن وحدتي بالنظر إلى أرض السيق من نافذتي، وبالاستماع إلى القارئ. كلامُ القرآنِ مُوجزٌ، ورهيفٌ، كأنه أحجار الصوان التي تقدح النار إذا احتكَّتْ، وتقطع بحوافِّها الحادة.. كلام القرآن يُعجبني، ويُحيِّرني مثلما حيَّر النبطي حين سمعه.

كنتُ أذهب أحيانًا مع شُقيلة إلى المربوعة، فأجالسُ النساء هناك ولا أتكلَّم كثيرًا. فكانتِ الأنباءُ تقع في حِجْري، من دون أن أسأل عن شيء: المسلمون أطلقوا أربعةً من الجيوش الكبار إلى نواحي الشام والعراق، والقبائل تنضمُّ إلى تلك الجيوش تباعًا.. نعسةُ حُبلى.. أميرُ الحرب ابنُ الوليد ينتصر في حربه بالعراق.. أمير الحرب ابنُ العاص فتح نواحي فلسطين، ولكن استعصتْ عليه مدينةُ إيلياء، لأن فيها أسقفًا عنيدًا اسمه صفرون.. قريبهم

صاعد بن تيم اللات، جُرح في الحرب ومات.. أميرُ المسلمين ابنُ الخطاب، عزل أمير حربهم ابنَ الوليد.. نعسة أنجبت بمصر طفلةً، أسماها أبوها بُسَيْسة.. الرومُ يتذبذبون، والفرسُ يتراجعون.. اليهود الذين كانوا هنا، هبط أغلبهم مصر فدخلوها آمنين، والباقون منهم يستعدون.. ابنُ الوليد عاد لقيادة جيش المسلمين بالعراق.. الهوديُّ حائرٌ يترقَّب الأخبار، والنبطيُّ لا يفارق خيمته.. المسلمون يغنمون مغانم كثيرة.. عميرو عاد من الحرب وأكَّد أن زوجي بخير، وسوف يأتي قريبًا سالمًا غانمًا.. الرومُ يحشدون للمسلمين جيشًا جَرَّارًا، ليدفعوهم به بعيدًا عن ناحيةٍ يحاصرونها، اسمها دمشق.. عميرو عاد إلى الحرب ومعه جماعة، وامرأته سارَّةُ سوف تلد بعد شهر.. أساقفةُ الكنائس منقسمون. فريقٌ منهم يؤيِّد هرقل ويسانده، وفريقٌ يقوده الأسقفُ صفرون، يعارض ويقول إن هرقل رجلٌ آثمٌ. الأساقفةُ المعارضون لا يرون فضلًا لهرقل، ويقولون إنه أعاد الخشبة المسماة صليب الصلبوت، باليدين الآثمتين اللتين يحتضن بهما مارتينة. ولا عبرة عندهم لقتاله مع المسلمين، لأنه يضاجع ابنة أخته، ويريد طَمْس الديانة بتغيير المذهب.. سلومة تأخَّر.. رائحةُ الجدرانِ تنفذُ فيَّ ليلًا.. جيوشُ المسلمين بالشام حاصرتْ دمشق، ثانيةً، وانضم إليها الجيشُ الذي كان يحارب في العراق.. الغلاءُ يعمُّ النواحي، والفزعُ مقيمٌ بالمواضع جميعًا.. كيف حالك اليوم يا بنيامين، يا مسكين.. حاكمُ دمشق الروميُّ، اسمه منصور، انهزم للمسلمين وصالحهم، فدخلوا البلد ظافرين غانمين.. سارة أنجبت

ولدًا، اسمه هود.. أنا ضائعة.. ضائعةٌ تمامًا.. النبطيُّ عاد لسُكنى المجلس، بعدما مات كلبه الآخر.. خيولٌ كثيرةٌ عادت للمربط، والهوديُّ يرعاها هناك.. المسلمون غلبوا الروم، عند ناحية تسمَّى اليرموك.. سلومةُ سوف يأتي غدًا.

* * *

رجع زوجي بعينينِ حائرتين تتلفَّتان، وقد ازداد نحولُهُ ولحيته استطالت، فصارت له هيئة القساوسة. كأنه لم يعد هو. راح يحكي في أيامه الأولى، لأهله، عن الحروب وأهوالها والغنائم. يتحمَّس في النهار، ويتقلَّقُ في الليل ويتفزَّع، وينادي وهو نائم على أنصاف أسماء.. يوم وصوله أخبرني بأنه تأخر في العودة رغمًا عنه، وبأنه جاء لي بهدايا في الكيس الذي وضعه بزاوية الحجرة. لم أفرح بها. هي حُلِيٌّ كثيرةٌ، بعضها متكسِّرٌ، مصنوعةٌ من ذهبٍ لم يعد يلمع، وفي ثناياها آثار دمٍ قديمٍ، قانٍ. قال إنه اشتراها لي من الشام، وقال قلبي إنه يكذب.

بعد وصوله بأيامٍ، استقام سلومة على منواله السابق، فصار يذهب بالنهار إلى مربط الخيل، ويسهر هناك، ثم يأتي إلى هنا لينام حتى الضحى. لم يقترب مني منذ زمن طويل، وأنا لم أقترب. عاد مالكٌ من مصر، وقد ازداد سمنةً وشبهًا بالنساء. إستير أنجبتْ له طفلةً، وبعد وصوله بأيام، رَدَّ شقيلة. صار يقضي عندها ليلةً، والتالية يقضيها عند الأخرى.. في صبيحةٍ باكرةٍ نادى، بصخب الصغار، من تحت النافذة: *ياسلومة أَفِقْ، سيصل اليوم عمرو بن العاص.*

القارئ توقف عن التلاوة، وتحسَّس حتى أمسك بعصاه، فتوكَّأ عليها وخرج من السيق يسعى لاستجلاب الأخبار. وسلومة انتبه من نومه، على نداء أخيه، فَزِعًا، فقام منتفضًا وهو يقول كالمخبول: هيا، أميرُ الحرب، أين سيفي، تعال معي..

أخذني إلى المربع فرأيتُ النسوة يكنسن المجلس وما حوله، والرجال ينحرون شاةً، والنبطي ينظر إليهم من بعيد بعينٍ غير راضية. عند الظهر جلبوا من داخل السيق ماءً، رشُّوه على الرمل كي يسكن الغبار ويلطُفَ الهواء. كنتُ أساعدهم فيما يفعلون، وألتفتُ كُلَّ حينٍ إلى حيث يجلس النبطيُّ، تحت الشمس، عند حجرتي الأولى. قال لي زوجي أسرعي إلى البيت، فاستحمِّي والبسي العباءة السوداء الواسعة، وتعالي كي نستقبل القادمين.. لماذا؟ سألته مُستغربةً، فأجاب وهو يُجيل نظره في الأنحاء: لا تسألي، هيَّا، أميرُ الحربَ يريد أن يراكِ.. لماذا؟ سألتُ ثانية، فأخذني من ذراعي إلى مدخل السيق، وهمس وهو يضطربُ: هيَّا، قد يأتون في أيِّ وقت.

أوان العصر اصطفوا كلُّهم ما بين المربع والساحة المقابلة، ينظرون إلى سحابة الغبار التي تقترب نحونا من ناحية السهول، تثيرها حوافرُ الخيول الآتية بسرعة. هُم عشرةُ رجال، وامرأة، على صدورهم قلائد تطل منها، من خلف أكتافهم، مقابضُ السيوف. يركبون خيلًا واسعةَ الأنوف، عريضةَ الصدر، عنيفةَ الحركات. نزلوا، فتراجعتِ النسوةُ إلى المربوعة، وتقهقر الرجال، فلم يبق حولي إلا الهوديُّ وإخوته.

وقفتُ بموضعي، وتقدَّموا للترحيب بالأمير. هو رجل قصير، لولا عمامته لكانتِ المرأة التي معه أطول منه. جاءت خلفه، وخلفها شابٌ طويل، يُشبه عميرو، لكنه أكبر منه وأطول. الفرسانُ الذين جاءوا معهم، ذهبوا بخيلهم إلى الساحة، وتقدَّم الثلاثةُ وحولهم زوجي وإخوته إلى جهة المجلس.

جلسوا على الأرائك التي أمام المجلس، وبقيتُ متواريةً بمدخل السيق، حتى جاء سلومة يستدعيني لمقابلة الأمير.. ماذا يريد مني؟ ستعرفين الآن.. تقدَّمتُ إليهم وركبتاي ترتجفان، فجلستُ على الأرض إلى جانب المرأة، ونظرتُ إلى وجه الأمير فوجدته ينظر نحوي بعينين واسعتين، شاردتين. سألني في أيِّ موضعٍ بمصر كنتُ أعيش؟ فقلت له بكفرٍ صغير من كفور النملة، فقال: *يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمانُ وجنوده وهم لا يشعرون.*

الكلامُ الذي قاله، قرآنٌ يصلِّي به المسلمون خمس مرات في اليوم والليلة، ويتلونه في غير الصلوات. سكت الأميرُ الذي اسمه عمرو، فسكتوا كلهم وترقَّبوا ما سوف يقول. نظرتُ حولي بعينٍ حَيْرَى، وتطلَّعتُ إلى وجه المرأة التي بجانبي، فوجدتُ عينيها السوداوين هادئتينِ، مثل عيون الأمهات، ودافئتين.. كدتُ أشردُ بخواطري، لولا ابتدرني الأميرُ بسؤالٍ عن عدد الساكنين بكَفْرنا، وعن الكفور الأخرى التي رأيتها بمصر. أخبرته، فسألني: هل رأيتِ في بيوتِ الناس هناك عُدَّة حرب، من سيوفٍ ورماحٍ ونحو ذلك؟ فقلتُ: إن ذلك ممنوعٌ عنهم، وليس في بيوتهم إلا العصي. سألني

عما يأكلون في معظم الأيام، فقلتُ: ما تخرجه الأرض، وهم في أغلب الأيام يصومون صومَهم.

جاءوا بالطعام في ثلاث قَصعاتٍ، وضعوا اثنتين على البساط المفروش أمام المجلس، ليأكل منها الرجالُ. ودخلوا بالثالثة إلى حجرة المجلس، ودخلتُ مع المرأة لنأكل معًا.. هنا يعيش النبطي، وينام.. سألتني المرأةُ إن كنتُ مسلمةً فأجبتُ بالإيجاب، وسألتني عن السنوات التي قضيتها هنا فقلتُ في حدود العشرة. هي في حدود الأربعين من عمرها. تُشبه أمَّ البنين لكنها نحيلة، ولا تأكل بنهمٍ. اسمها رائطة، وزوجها الأميرُ يناديها ريطة. هو ابن عمها، والشابُ الذي معهما ابنهما، كان أبوه قد أسماه عند مولده، العاصي، لكن النبيَّ غيَّره وجعله عبد الله.. هي قالت لي ذلك.

جاء رجالٌ آخرون وجلسوا بالخارج معهم، لم أرهم، سمعتهم يتحدثون بأصواتٍ وصلتني خفيضةً، ميَّزتُ منها صوت اليهوديِّ، أبي سارة، لأنه مرتجفٌ رقيق.. سألتُ ريطة، كيف لا تخاف ركوب هذه الخيل القوية، المسرعة؟ فابتسمتْ وهي تخبرني بأنها في صغرها كانت تخرج مع القبائل للحروب، لتغنم، ومنذ تزوَّجتْ لم تفارق زوجها في رحلاته، لا قبل إسلامه ولا بعد الإسلام. وهي تركبُ معه، كلَّ ما يركبه. ظننتُ ساعتها أنها زوجته الوحيدة، ثم استغربتُ حين عرفتُ من النساء في المساء، أن عنده غيرها زوجتين.

علا صوتُ الأمير وهو يقول لأحدهم: *ليس لكم عندي، بعدما عرضتُ عليكم الإسلام، إلا ما سمعتم*.. انخفضتِ الأصواتُ ثانيةً، فعاودتُ الكلام مع رائطة، ريطة، وكأنني أعرفها من قبل اليوم. سألتها عن معنى اسمها، فنظرتْ في عيني بودٍّ ثم قالت: هو الثوبُ اللَّيِّن والملاءة البيضاء، والأصوب في لغة العرب أن يُقال ريطة، لا رائطة.

ساعةَ الغروبِ طلبتْ مني ماءً للوضوء، فأتيتُ به. قامت للصلاة، فصلَّيتُ إلى جوارها، وما كدنا ننتهي حتى دخل الأميرُ علينا الحجرة، وخلفه الهوديُّ، وابتعد الرجالُ عن المجلس. جلسا على المفارش بأعلى، وبقيتُ مع ريطة على الأرض. قمتُ لأخرج بالقصعة وجرَّة الماء، فسمعتُ الأميرَ يقول للهوديِّ آمرًا، إنه لا يريد أحدًا هنا بعد شهرين، لأن أمير المؤمنين خرج من مدينة يثرب، وهو الآن في طريقه إلى الشمال، لأن الأسقف صفرون اشترط ألا يسلِّم إيلياء، إلا إليه. ولسوف يلقاه بعد أيام في الجابية، ويستأذنه في غزو مصر، لأن أرطيون الرومي هرب إليها ومعه جندٌ كثيرون.. قاطعه الهوديُّ:

ـ لكنكم عقدتم مع المقوقس صُلْحًا..

ـ قد نقضوه، ولسوف أنقضه.

الخـروجُ

عدتُ إلى حجرة المجلس بقنديلٍ يضيء أعطاه لي مالكٌ، فرأيتُ الأمير يستعد للخروج وخلفه امرأته ريطة. طلب مني ماءً ليشرب، فكان زوجي داخلًا خلفي بالجرَّة، كأنه كان يتوقع الطلب. داعبه الأميرُ وهو يتناول منه الماء، بقوله: أكرمك الله يا أحولَ الحُولان.. ابتسم سلومة ببلاهة المجاملين، وقد امتلأ فخرًا. بعدما شرب الأمير، قال له مالكٌ متلطِّفًا: الأنحاءُ مضطربة يا سيدي، فلو رأيت أن تترك رائطة هنا، لكيلا يحدث لها مكروه.. فردَّ عليه الأميرُ ممازحًا: إذن، نجد غيرها في مصر رياطًا كثيرة.

لم أكن أعرف أن أمراء الحرب، أيضًا، يمازحون. الهوديُّ لم يضحك معهم، وبدا مهمومًا كعادته.. حين جاءوا بالخيول أمام المجلس، كان الأميرُ يقول للهوديِّ وإخوته، وهم يسمعون منخفضي الـرءوس: لا تتأخَّروا في الرحيل، والذين يسكنون إلى الشمال من هنا، ينـزحون إلى الشام مع أهل جذام، وأنتم

ومن يسكنون وادي رَمّ وسيناء، تهبطون مصر إن شاء الله آمنين، فتبشِّرون الناس بقدومنا لخلاصهم مما يعانون، فمن دخل منهم معنا في الدين، صار عليه خراج أرضه، ومَنْ بقي على نصرانيته دفع الجزية عن يدٍ وهو صاغر.

حمحمتِ الخيول استعدادًا للرحيل، فتقدَّموا إليها وركبوا عليها بقفزة واحدة. ريطةُ لم يساعدها أحد، وركبتْ كما ركب الرجال. ودَّعهم الهوديُّ وإخواه، وانطلقوا مثلما جاءوا مُسرعين، مثيرين خلفهم الغبار.. ابتلعهم الظلامُ ونحن إليهم ناظرون.

لم ينم أحدٌ ليلته، إلا الأطفالُ. جاءتْ صفا ومعها قريباتها، فقعدتْ بين إخوتها أمام المجلس، وهي تقول غاضبةً: ولماذا يدفعوننا من أرضنا إلى بلدٍ لا نعرفه؟ رَدَّ عليها مالكٌ بما فحواه أن الأمر ليس بأيدينا ولا بُدَّ من طاعة الأمير، وسيكون لنا بمصر خيرٌ كثيرٌ، وأقاربنا يعيشون هناك من مئات السنين، راضين.. اصطخبوا بكلمات عالية تنذر بشجارٍ قريب، واشتبكت أصواتهم فبدَّدت من حولي السكون.

جاء النبطي من بعيدٍ يحوطه هُدوؤه، فجلس في دائرة الصخب من غير أن يتكلم. سألوه: أين كنت؟ فلم يردّ. قال سلومة للهوديِّ إن التبكير بالخروج إلى مصر، خيرٌ من التأخير، لأن الطريق سوف يطول، بسبب بُطءِ المسافرين. وقال مالكٌ إن جماعات كبيرة نزحتْ من وادي رَمّ، فلم يبقَ هناك إلا قليلٌ من الناس الذين يستعدون

للرحيل.. سأل النبطيُّ: وماذا عن الزروع التي تحت أيديهم؟ فأجابه سلومة بأن الناس سيزرعون في مصر، ويتاجرون، والأرضُ هنا لا تُخرج الكثير. فقال النبطي منفعلًا على غير عادته: *الأرضُ تُخرج ما يكفي الناس، وإذا هجرها المزارعون تكون بالجزيرة مجاعات، وجثثُ قتلاكم بالشام سوف تملأ الأرض بالطواعين..*

ـ *لا شأن لنا يا أخي، بالجزيرة والشام. وما نحنُ إلا جواسيسُ المسلمين وعيونُهم في البلاد، وإذا قالوا لنا ارحلوا، فلا بُدَّ من الرحيل.*

ـ *فلماذا يبقى كبارهم في يثرب؟*

ـ *لا شأن لنا..*

تدخَّل الهوديُّ بينهما بصوتٍ زاعق، فقال مخاطبًا النبطيَّ وكأنه يكلِّم الحاضرين كلهم: *أتظنُّ أننا كُنا نحب هذا الرحيل، أو كان أهلنا في وادي رَمّ وبقية المواضع، يحبونه؟ لا، لكنه الاضطرار، فما عاد اليوم عرب وفُرسٌ ورومٌ، فنتردَّدُ بالقوافل بين بلادهم مُتاجرين. والأنكى لنا، أن القبائل سوف تأكلنا هناك، مثلما أكلتنا هنا. فلن يدخل المسلمون مصر، وللأنباط رايةٌ يحاربون تحتها كبقية القوافل. حتى جذامُ وهم حلفاؤنا، لن تكون لهم راية بمصر، وسيدخلها ابنُ العاص ببضعة آلاف من أهل اليمن، كلُّهم من عَكّ، قبيلةِ الأخابث.*

ـ بضعةُ آلافٍ. كيف، ومصر يحرسها عشراتُ الآلاف من جند الروم، الرابضين داخل أسوار الحصون؟

ـ سيهربون أو يسلِّمون. وقد بلغني اليوم أن جند الروم من حُرَّاس الحدود، أخلوا العريش، ليُفسحوا أمام ابن العاص الطريق.. أخلوها له من قبل أن يزحف نحوهم.

نظر النبطيُّ إلى أخيه بعينين تندهشانِ، ولم يردَّ بشيء. صفا انتحبتْ من فورها فنهرها الهوديُّ، فقالت له بحمقٍ، متحديةً: لن أخرج معكم، ولا أولادي سيخرجون.. سادت لحظةٌ من ذهول، انتفض بعدها الهوديُّ واقفًا وهو يزعق في صفا، قائلًا: بل تكونين، يا جاهلة، أولَ المرتحلين.

ـ فإذا رفضتُ..

ـ دفنتكِ هنا، ورحلتُ بالباقين.

ضربتْ صفا الأرض بكفَّيها، وعلا عويلها مشتبكًا بالنشيج. تزحَّف مالكٌ نحوها، ليهدِّئها، فدفعته عنها بذراعها وراحت تنوح وحدها كالنادبات. سكت الجميع وقد جلَّلهم هَمٌّ مُحيط، حتى تكلم عميرو بأسًى لم أعرفه فيه، فقال كلامًا كثيرًا مضطربًا، مفاده أن الأنباط سوف يذوبون في البلاد، لا محالة.

شعرتُ برأسي يثقلُ عليَّ ويدوِّخه الدوارُ، فأرحته إلى الحائط القريب وأخذتني مَسَّاتُ النُّعاس. صاروا يتكلمون بلا ضجيج،

وصرتُ أجتهد كي أنتبه، فلا أستطيعُ. أيقظني زوجي وقد تلوَّنتِ السماءُ، فقمتُ أترنَّحُ خلفه نحو السيق وقد بدا الطريقُ إلى بيتي طويلًا.

* * *

صحوتُ ساعة الضحى فوجدتُني بالبيت وحدي، ونظرتُ من نافذتي فرأيتُ المكان خاليًا. نزلتُ أتلفَّتُ، فكان بآخر السيق نسوةٌ يتهامسن، وعند المدخل رجالٌ يجلسون. أحسُّ كأنني أحلم، أو أصحو من حُلمٍ مَديد، أو لعلني أنتقل بين حُلمين.. جلستُ ساكنةً عند مبتدأ الدرج، فداعبني نُعاسٌ صباحيٌّ. في حَلْقي جفافٌ، وحيرةٌ في باطني. مِلتُ إلى الجدار برأسي، ليقع عليه الظِّلُّ وغَطَّيتُ وجهي بالسِّتْر الأسودِ، فدفع البياضُ السواد. ما هذا الذي أراه؟.. هو بحرٌ من حليبٍ، أبيض

على شاطئه الحبيبُ، أبيض

يَغْرف لي بكفَّيه، فأَشْرَب

وبشفتيَّ أَمَسُّ راحتيه، الأطيب.

صار الحبيبُ بعد حينٍ حليبًا، والحليبُ حنينًا،

والحنينُ شمسًا تُسيِّلُني كدموع الشموع

أذوبُ، فأشرب

وأقتربُ، فأغرق..

صرنا معًا، حليبًا يسيلُ وينسرب

في البحر المحيط الحاني

فما نحنُ فيه إلا قطرتانِ

بل هي قطرةٌ واحدة، وسحابةٌ شاردة

في أفقٍ حليبيٍّ، يقطِّرُ في البحرِ السماء

حتى إذا ذاب السحاب، ونابَ الحضورُ عن الغياب،

خَلُصَ الهواءُ إلى الهواء

* * *

انتبهتُ من غفوتي حين مسَّتْ سارةُ كتفي. ليتها مرَّتْ إلى قريباتها، من دون أن توقظني من حُلمي الرحيم. جاءتْ وعلى كتفها الطفلُ الوليدُ، وفي ذيلها ولدٌ وبنت. صارت سارةُ امرأةً كاملة، وبقيتُ أنا كطبلةٍ حوافُّها متآكلة. جلستْ على الدرج إلى جواري، وسألتني عن سبب انفرادي فقلتُ لا شيء. دعتني إلى الذهاب معها، ومجالسة اليهوديات، فقلتُ لا بأس. قمتُ معها إليهن، ومشيتُ خلفها على قلقٍ، فأفسحن لجلوسي موضعًا، وقلَّبنَ حولي الحكايات الممزوجة بآخر الأخبار:

ليلى سافرت مع زوجها وأهله إلى مصر، وسوف يسكنون

بقريةٍ قُرب الإسكندرية.. سيخرج الجميعُ من هنا في جماعات، وقد جلبوا المزيد من الإبل إلى المربع، لتحمل المتاع. الخارجون يأخذون خيامهم وأغنامهم والكلابَ. قطعانُ الأغنام سوف تخرج فجرًا، ومعها ضِعافُ الحمير، ثم يلحق بهم الآخرون ساعة الضُّحى، ويدركونهم في الطريق ثم يسبقون، وقبل الغروب يجتمع الآخرون بالآخرين.. عميرو يفكُّ الآن خيمته، ليرحل غدًا بجماعةٍ كبيرة فيها صفا وسارة، وكثيرون، ولسوف يسكنون بالصعيد في بلدة مليئة بالعرب، اسمها قفط.. المرتحلون يمرُّون بأطراف أيلة بالليل، مستترين قَدْر المستطاع عن العيون.

سألتُ سارة: ألن أراكِ ثانيةً؟ فقالت إنها لا تعلم، لكنها تعلم عني أمرًا، ولا تريد أن تُخفيه.. سكتتِ النسوةُ، ليستمعن معي إلى كلامها الذي أفزعني: سلومة ينوي أن يكون آخر الراحلين عن هنا، ولسوف يأخذني معه، ليأخذ بيتي الذي هناك، وهناك يتزوَّج بامرأةٍ أخرى عربية، أو يتخذ من العربيات زوجتين. وهو يُعاملني مؤخَّرًا بلطفٍ ويجلب لي الهدايا، لأنه تقرَّب إلى أمراء الحرب العازمين على غزو مصر، بكونه زوجَ المصرية العليمَ بأحوالِ البلاد.

ـ *وكيف علمتِ بذلك يا سارة؟*

ـ *الجميعُ هنا يعلمونه، لكنهم يكتمونه عنكِ.*

نادى عميرو امرأته من منتصف السيق، فقامت إليه مسرعةً وقمتُ معها. سألته عن سلومة فأجابني بأنه مع أبيه وعمِّه، عند

المجلس. لما رآني ذاهبةً إليهم، انتحى بي جانبًا وهمس: *انتظري حتى يأتيكِ، ولا تذهبي إليهم الآن*.. استغربتُ كلامه، فقال بمرارةٍ إن عَمَّه النبطيَّ يرفض الهجرة ومفارقة المكان، ويريد أن يبقى هنا وحده، وهما يسعيان لردِّه عن قراره الغريب. لكنه لا يستجيب.

لم أستطع الانتظار، طويلًا، فخرجتُ إلى المجلس بعد سويعةٍ فلم أجد سلومة معهما. سكت الهوديُّ حين دخلتُ، وظلَّ النبطيُّ ساكنًا. سألتُ عن زوجي، فأجابني الهوديُّ: *خرج إلى النواحي ليجلب مزيدًا من الإبل والبغال*، سيعود *ليلًا وقد يتأخر إلى الغد*..

جلستُ بمدخل السيق حتى يخرج الهوديّ، فأكلِّم النبطيَّ وأشكو إليه ما سمعته، وأسمع شكواه. سأقترحُ أن يأتي معنا وأعطيه نصف بيتي، فيسكن معنا آمنًا حتى تتبدَّل الأحوال. وإذا أراد، فليتَّخذ لنفسه بيتًا في البرابي، أو يسكن في حجرةٍ من تلك القائمة هناك. ولسوف أُعدُّ له ما يريد من ألوان الطعام، وأجلب له الفواكه التي يحبها، وأغسل ملابسه. المهم أن أراه، أو أشعر بقربه إذا احتجب عن الناس، أو ذهب لزيارة سيناء. سأدعوه إلى ذلك، وأرجوه باكيةً، حتى يستجيب لي. سأتمنى عليه، بكل ما في قلبي من حُرقة الفراق، أن لا يحرمني منه، ولا يوجع قلب إخوته ببقائه وحيدًا، فتلتهمه الرمالُ والجبالُ المحدقة به من كل الجهات.

انتظرتُ طويلًا، حتى يفارقه الهوديُّ، لكنهما خرجا معًا يجُرَّان

همومًا ثقالًا، فبقيتُ بموضعي حتى يعود.. لكن ظلال المساء امتدت، وغمرني الويلُ الوبيلُ.

* * *

عاد سلومة في آخر الليل، جائعًا، فوضعتُ له القديد. جلس يأكل وحده، ثم انطرح على فِراشه لينام. حاولتُ محادثته فأجَّلني حتى الصباح، وفي الصباح قام متعجلًا يريد الخروج. قلتُ لا بُدَّ أن أتكلَّم معه في أمرٍ، فقال لا وقت الآن، وأخذني لوداع الراحلين الكثيرين. بكت شُقيلة بحرقة، وانحدرتْ من عين الهوديِّ الدموع وهو يودِّع عميرو، وبقينا جميعًا نرقبه وهو يبتعد بمن معه.. لم يكن النبطيُّ موجودًا بين أهله المهاجرين والمودِّعين.

عدتُ إلى البيت مع سلومة، وسألته عما ينويه بعد سفرنا إلى مصر، فقال باستخفافٍ: *لا شيء، سوف نستقرُّ هناك ونسكنُ حتى تنجلي الأمور وتهدأ الأحوال..* فسألتُ ثانيةً: *فما الذي تنويه أنت، وماذا ستفعل بمصر؟*

ـ *لا شيء. سوف أبشِّرُ بمجيء المسلمين، وأرقبُ الطرق، وألتقطُ السوانح من الفرص.*

ـ *هل تنوي الزواج بأخرى؟*

ـ *ماذا.. وما العيبُ إذا فعلتُ؟*

ـ *فأنتَ إذن، تنوي الزواج.*

قام من دون أن يردَّ، فصفع الباب خلفه وهبط الدرج مسرعًا، كأنه يهرب من يوم الحساب. مع سكون السيق سمعتُ خطوه السريع، ومع اضطراب باطني تاه عني السبيل. انتظرتُ عودته في المساء لكنه نام في المربوعة، وبقيتُ بلا نوم حتى أطلَّ الصباحُ. نزلتُ أتلمَّس الأخبار، فعرفتُ من شقيلة أن النبطيَّ خرج إلى حيث لا يعلمون، وقد قال لهم إنه سيعود بعد يومين. احتجبتُ اليومين بالبيت، أُحادثُ الحوائط، حتى جاء سلومة في عصر اليوم الثالث، وجلبابه متَّسخ. ألقاه عنه من غير أن يكلِّمني، ولبس غيره، ثم سألني إن كنتُ أريد أن ينام هنا أم في المربوعة؟

ـ *نَمْ حيث شئت، فهذا بيتك.. بيتي هناك.*

ـ *هذا البيتُ الذي هناك، كلَّفني تعديله وتوسعته، أكثر من ثمنه.*

ـ *خُذْ ما أنفقته من مالي الذي عندك، ورُدَّ إليَّ الباقي.*

ـ *أين هو المال؟ قد خسرتُ كثيرًا في الخيل.. والتجارة ربحٌ وخسارة.*

خِفتُ مما قد يضيف، وخِفتُ ثورته، وخِفتُ الأيامَ القادمة. احتار لساني وقلبي فالتزمتُ الصمتَ والبكاء، فتركني على تلك الحال، وانسلَّ من أمامي. في الصباح الباكر مررتُ به، وهو جالس في المربوعة مع ثلاثةٍ من التحتانيين. وقفتُ عند زاوية الخيمة، فقام إليَّ متثاقلًا، لا يريد أن يتكلم، طلبتُ منه برفقٍ أن نذهب إلى خيمة

أخيه الهوديِّ، فقال: *أنا الآن مشغولٌ، فاذهبي وحدك إذا أردتِ..*
وجدتُ الهوديَّ يجلس في طرف الخيمة، حزينًا، وحوله أطفالٌ يلعبون. حكيتُ له كل ما كان، فقال: *أما ما بيده من أموالك، فسوف أراجعه فيه. وأما زواجه فلا سلطان لي عليه، وأنتما الآن مسلمانِ، ويجوز له أن يتزوَّج بثلاثةٍ أخريات، إن أراد.*

* * *

في طريق عودتي، لم أجد النبطيَّ بأي موضع. كانت شقيلةُ تفكُّ السرادق المقام أمام كهفها، يساعدها في ذلك خادمان، فلم أستطع التحدُّث إليها في أيِّ أمر. أمام البيت ترددتُ بين الصعود إليه، أو المضيِّ نحو الجالسات بآخر السيق، لكنني قلتُ في نفسي، كفاني ما جرى من مجالسة اليهوديات. ارتقيتُ الدرج، وأغلقت خلفي الباب، ونمتُ كالهالكين.

النبطيُّ لم يأتِ من سفرته، إلا بعد أسبوعٍ، مَرَّ كأنه أعوام. بعد شكواي لليهودي، بيومين، جاء سلومةُ مُتَّسِخَ الجلباب، وأعطاني صُرَّةً قال إن بها ثمانين دينارًا، هي ما بقي عنده من مالي بعد الخسارة. سَكَتُّ. قال إن إصلاح البيت الذي في الكَفْر، كلَّفه أكثر من مائة دينار. سَكَتُّ. قال إنه يفكِّر في شراء بيت بطرس الجابي، وإذا تمَّ ذلك يمكنني السُّكنى بطابقه الأعلى. سَكَتُّ، فسَكَتَ.

* * *

الأنحاءُ تخلو من حولي، رويدًا، مع ارتحال مزيدٍ من المهاجرين. يأخذون معهم ما يمكنهم حمله، حتى جوانب الخيام، وكل ما يمشي على الأرض. سألت شُقَيْلة يوم خروجها مع زوجها وزوجته، عن عدم بيعهم الأغنام لغيرهم، بدلًا من الإبطاء بها، فقالت: *وأين المشتري؟ سوف نأكل منها في الطريق.*

صار المربعُ مرتعًا للخرق البالية، والأوتاد المتكسِّرة، وبقايا الماشية. الذين سكنوا السيق ترحَّلوا، فلم يبق بخارجه إلا خمسُ خيامٍ أو ستّ.. يومَ عاد النبطي، وقد أحضر من عَمَّان زكيبتين فيهما فواكه مجفَّفة، أخبرني زوجي باقتضابٍ بأننا سنرحل بعد يومين، ونكون آخر الخارجين. سألته عن النبطيِّ، هل يأتي معنا؟ فقال: لا شأن لكِ.

* * *

جلب سلومة خادمين بائسين كالعبيد، وراح يحزم بهمَّةٍ كُلَّ ما حولي من حاجيات، ويُخرج ما كان مخزونًا بالحجرة الوسطى. لم أجد الفرصة للخروج من السيق، كي أُكلِّم النبطي. فقد ظَلَّ سلومة طيلة اليومين، يزعق في الخادمين وهو مقطِّب الجبين، فيُشيع بأنحائي الرهبةَ والخوف.

* * *

صباحَ يومِ رحيلنا، الحزين، وقف النبطيُّ ينظر إلينا من أمام

المجلس، مثل نسرٍ كسير الجناحين، يستعدُّ لموته المحتوم. كان يقف ساكنًا، وهو يُجيل عينيه في المربع الخالي كأنه يترقبُ معجزةً لن تحدث.. لم يتحرَّك من مكانه، ولم يكلِّم أحدًا. حتى أخوه الهوديُّ، نظر إليه من بعيدٍ وهو على ظهر دابَّته، ولم يقترب منه ليودِّعه. كيف سيعيش وحده، هنا؟ هل يقتات طيلة عمره بالجافِّ من الفواكه؟ وإذا عطبتْ، ألن يموت جوعًا؟ أم يلتقط ما سوف تهبه الأشجارُ.. رجفتني فكرةٌ قويةٌ، نزلتْ بقلبي كصخرةٍ تجرفها السيول: هو يستعدُّ لموته، ويموِّه علينا بما أحضره من زبيبٍ وتينٍ جاف، حتى لا يخاف عليه إخوته ويفزعوا.

تركتُ سلومة بين البغال وذهبتُ إلى حيث يقف، فشعرتُ بعينيه تبتسمان حين اقتربتُ. قلتُ له إنني حزينةٌ لفراقه، ومشفقةٌ عليه من البقاء وحيدًا.. انحدرتْ دموعي في لحظة البوح والتمنِّي، ورجوته أن يأتي معنا فيسكن بقربي، لكنه نظر في عينيَّ طويلًا على غير عادته، وقال بصوتٍ عميق، إنه يشكرني! غير أنه لا يستطيع موافقتي.

ناداني سلومة زاعقًا، فذهبت إليه رغمًا عني. رفعني على بغلةٍ تحوطها حميرٌ محملةٌ، وأشار بطول ذراعه إلى النبطيِّ مودِّعًا..

القافلةُ تمتد أمامي، كخيط رفيعٍ، وخلفي يقف النبطيُّ في ثوبه الأبيض، كأنه حلم ليلٍ حزين.. التفتُّ إليه مرتجفة الروح، فرأيته وحيدًا بين الأحجار والرمال، من ورائه الجبلُ ومن أمامه المصير المحتوم.. انحرفتْ بي البغلةُ، مع ذيل القافلة الهابطة إلى

السهول، فلم أعد أشاهدُ بعيني غير رءوس الجبال، لكني شاهدته في قلبي واقفًا في موضعه، ينتظر في هذا التيه أمرًا قد يأتيه أو لا يأتيه.

بعد ساعة سير، بدتْ سحابةُ الغبار التي تثيرها أقدامُ الأغنام. وبعد ساعةٍ أخرى دخلنا معهم في الغبار، وغامت من حولي الأشياءُ. لم يكلمني أحدٌ منهم منذ خرجنا، ولا رأيتُ سلومة.. لو وقعتُ هنا ميتةً، فلن ينتبه أحدهم، ولن يشعروا بغيابي إلا في المساء، وقد لا يشعرون به إلا بعد أيام. لن يفتقدني أحدٌ منهم أو يتفقَّد، ولن يكترثوا، لأنهم لا يُريدونني. سلومة يُريد البيت، وسيأخذه، ولسوف يتزوج عليَّ هناك، ويبقى من بعد ذلك بلا ذرية. وليلى التي ابتعدتْ، لم تُرسل لي طيلة العامين تحيةً، واحدةً، كأن الذي جرى بيننا لم يكن. لعله بالفعل لم يكن. فأنا لم أكن أُفتِّش فيها، إلا عنه، ومسعاي لو كنتُ استطعتُ، هو التماسه عندها أو لمسه.. كان النبطيُّ مُبتغاي من المبتدأ، وحُلمي الذي لم يكتمل إلى المنتهى.. ما لي دومًا مستسلمةً لما يأتيني من خارجي، فيستلبُني.. أَحَجَرٌ أنا، حتى لا يحرِّكني الهوى، وتقودني أُمنيتي الوحيدة؟

* * *

هل أغافلهم، وهم أصلًا غافلون، فأعودُ إليه.. لأبقى معه، ومعًا نموتُ، ثم نُولدُ من جديدٍ.. هُدهُدَينِ.

يوسـف زيدان

أبـدع زيـدان رائعةً من روائـع الأدب العالمي؛ ولذلك فإن فوزنـا بفرصة نشر الترجمة الإنجليزية لروايته ضمن إصداراتنا ، يغمرنا جميعًا بالحماس.

أطلانتيك بوكس (إنجلترا)

يدخل يوسـف زيدان بقوةٍ في النقاشـات العربيـة الثقافية، ويتجه بشـكل مباشر إلى صميـم الموضـوع، فيقتحم قضايـا خطيرة، منهـا: دور الدين بين القوة والسياسـة، والاسـتبداد والحرية، والإيمان والإدراك.. وهو ما يتجلّى في نشـأة المسـيحية، والإسلام كذلك.

لاستامبا (الإيطالية)

أثبتت الجائزة العالمية للرواية العربية (بوكر العربية) أن الماضي ينير طريق الحاضر في تلك المنطقة من العالم؛ فقد فاز بالجائزة الكاتبُ المصري يوسـف زيدان الذي أعادتنا روايتـه «عزازيـل» إلى القرن الخامس الميلادي، حيث فُرِضت الأرثوذكسـية المسـيحية باستخدام العنف.

الإندبندنت (البريطانية)

يوسف زيدان، قدَّم إنتاجًا أدبيًّا أفضل من مؤلَّفات «دان براون» التجارية، وعاد بالأدب إلى الأصول والجذور الأولى للديانة.

أطلنتيد إيتسيني (إيطاليا)

تمثِّـل رواية «عزازيل» المقدِّمة التاريخية التي توضـح أنه لم يكن من قبيل المصادفة، أن تستقبل مدن شـمال إفريقيا (ومصر) مجموعةً من الفرسان المسلمين الفاتحين، بالترحاب والارتياح.

الجيورنالي (إيطاليا)

يوســـف زيدان يمـــتلك ناصـــية الإبـداع الروائـــي.

د. صـــلاح فـضــل

دار الشروق
www.shorouk.com
6 221102 027434